الأحزاب في أفريقيا بين التسلط والتبعية

قراءة في أثر الحروب الأهلية على الشباب

قراءات أفريقية

مجلة ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
العدد الثالث - ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

الاستثمار في أفريقيا

آمال وتحديات

- المسلمون في الجنوب الأفريقي
- أزمة الغذاء والأزمة المالية العالمية

قراءات أفريقية
العدد الثالث
ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

الأحزاب في أفريقيا بين التسلط والتبعية

قراءة في أثر الحروب الأهلية على الشباب

قراءات أفريقية

مجلة ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
العدد الثالث - ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

الاستثمار في أفريقيا
آمال وتحديات

- المسلمون في الجنوب الأفريقي
- أزمة الغذاء والأزمة المالية العالمية

قراءات أفريقية
العدد الثالث
ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

قراءات أفريقية

مجلة ثقافية فصلية متخصصة في شؤون القارة الأفريقية
العدد الثالث - ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

الاستثمار في أفريقيا
آمال وتحديات

- المسلمون في الجنوب الأفريقي
- أزمة الغذاء والأزمة المالية العالمية

قراءات أفريقية
العدد الثالث
ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م

أرجو الاختصار
تم تصغير الخط والمسافة بين الأسطر

أفريقيا ومشاريع النهضة

ليست أفريقيا إلا صورة واحدة من صور متعددة تصطدم فيها مشاريع النهضة بحجر الزاوية الأهم؛ المتمثل في رجال النهضة وسواعدها.

عندما نقلب صفحات التاريخ خاصة تاريخ أفريقيا نلحظ أن أي مشروع للنهضة ما كان ليتمثل واقعًا دونما وجود إرادة دافعة له وروّاد حقيقيين يذودون عنه؛ فالأفكار العظيمة لا تستغني عن الرجال العظماء الذين يحولونها من مُثُل إلى واقع، ومن كلام إلى فعل، ومن أحلام إلى أهداف، ومن أفكار إلى مشاريع.

يرى كثير من المحللين أن المشروع النهضوي الذي تحتاجه أفريقيا ينبغي أن يكون متعدد الجوانب بتعدد الآفات التي تعانيها هذه القارة المثقلة بالمشكلات والتحديات. وهذا يعني أننا لا نسير في الاتجاه الصحيح عندما نقصر رؤيتنا للإصلاح وإعدادنا للكفاءات والطاقات في زاوية واحدة أو اثنتين، عبر نظرة أحادية قصيرة المدى.

فأفريقيا تعاني من مشكلات وإشكاليات على مستوى الاقتصاد، وعلى مستوى التعليم، وعلى مستوى الثقافة، وقبل ذلك كله على مستوى التوجُّه والقرار.

وعندما نتحدث عن دور الدعوة الإسلامية في المساهمة في حل مشكلات أفريقيا فإنه ينبغي التذكير بأن الدعاة يفقدون جزءاً من رصيدهم الشعبي عندما تنحصر رؤاهم، ومن ثَم واقعهم في التعامل مع إشكاليات الناس عبر مفردة واحدة فقط من مفردات الإصلاح هي بث الوعي الفقهي في صورته الأولية. وهي صورة مطلوبة لكنها لا تمثل إلا زاوية واحدة من زوايا الوعي الديني العام، مما يؤدي إلى اعتقاد الناس خطأً أن الإسلام معني فقط بما هو فوق السماء وتحت الأرض فحسب، دون تغيير واقع الناس نحو الأفضل. وهي صورة لا تمثل الإسلام الصحيح الشامل، ولكنها تمثل الخطاب الإسلامي المعاصر في أحايين كثيرة.

ولن يصلح الأمر كثيراً حينها بالحديث النظري الموسع المستمر عن شمولية الإسلام ودخوله في تفصيلات الحياة، ما لم يكن هذا الحديث مرهوناً فعلاً بمشاريع نهضوية حقيقية لا تنحصر في جانب واحد من جوانب الإصلاح. وهذه المشاريع لن تتم إلا من خلال كفاءات متعددة القدرات في مجالات النهضة المطلوبة. وعدة النجاح هنا بعد عون الله وتوفيقه -ليس قدرة هؤلاء الرجال على الحديث في شتى مجالات النهضة- وإنما قدرتهم على ترجمة هذه المعاني والشعارات إلى واقع معاش، ولن يكون ذلك إلا من خلال أهليتهم الأكاديمية والثقافية، وقدرتهم العملية على تحقيق الإصلاح على أرض الواقع.. الإصلاح الشامل الذي لا يقوم به داعية أو طالب علم فاضل فحسب.. وإنما طبيب متقن، وعامل ماهر، وقانوني غيور، وإعلامي واع، وإداري مبدع.. الأمر الذي يتطلب تكاملاً مع جميع التخصصات، وسائر الطاقات، وكافة المبادرات والمشروعات.

في زمن الفقر لا يحتاج الناس إلى من يحدثهم عن خطورة الفقر ومظاهره وآثاره، ولا حتى طرق علاجه، وإنما إلى من يتبنى فعلاً مشاريع التنمية والتكافل الاجتماعي. وفي مجتمعات التخلف التقني لا نحتاج كثيراً إلى من يسب التخلف ويزدريه، وإنما إلى من يتخصص فعلاً ويتأهل. وتبقى مهمة الطبيب في علاج الحمى لا في هجائها.

فالحديث عن النهضة أو الإصلاح أو أي شيء آخر لا يعد سوى الحلقة الأولى فقط من السلسلة المطلوبة لتحقيقه. وكم يكون سلوكنا خاطئاً عندما نظن أن الواقع

السيء إنما يعالج فقط بمزيد من الأفكار الجميلة والعميقة والرائعة، والمواعظ المؤثرة، والشعارات النبيلة!

قد يتسع الخرق على الراقع كما يقولون، وقد ننادي من خلال كلمات بأمور تعجز عنها دول فضلاً عن دويلات، إلا أن الأمر الذي ينبغي أن يظل مستقراً أن عدم قدرتنا على الحل يجب أن لا تحول بيننا وبين رؤية الحل كاملاً، وأن لا تجعلنا نختصر الحلول في دائرة قدراتنا الضيقة والمحدودة، بل علينا أن نوسع دائرة النظر ونعدد زواياه، لنرى الصورة كاملة، ونرسم لإصلاح شامل لحياة الناس، ونضرب فيه بسهم من خلال ما يمكننا فعله، ونتنادى مع كافة الغيورين ليقدم كلّ أحد ما في وسعه من زاوية تخصصه واهتماماته وقدراته.

كما إن هذه القدرات المحدودة التي نملكها تدعونا إلى إعادة النظر في طرائق عملنا؛ من أجل تحقيق النهضة المطلوبة، وبيان ذلك عبر المفردات التالية:

سيكون من أوائل ما ينبغي أن يفكر فيه الدعاة في أفريقيا ويعملوا من أجل تحقيقه: أن يوسعوا دوائر الإصلاح العام، ليدخل معهم فيها آخرون كلٌّ في مجاله، وأن تتسع صدورنا لشراكات رحبة نلتقي وإياها في جوانب محددة لنعالج معها جوانب محددة كذلك!

عندما تتعدد جوانب الحاجة وتتقاصر القدرات والإمكانيات، نحتاج حينها إلى الضرب على الجذور من خلال العمل الأكثر تركيزًا والأكثر إبداعًا. وليس مقبولاً حينها الهدر في الطاقات من خلال الخوض في مشاريع مكرورة أو مشتتة، أو منخفضة القيمة، أو الإغراق في الجزئيات على حساب الكليات،أو الانشغال بمشاريع صغيرة تستهلك جهوداً كبيرة، أو الانشغال بأمور يمكن أن يفوَّض بها آخرون.. الأمر الذي يعطلهم عما يقدرون عليه، ويعطلنا في الوقت ذاته عن الأهم.

المشروع الدعوي الأفريقي ينبغي أن يتحرر من كونه تابعاً لثقافة المجتمع إلى أن يكون موجهاً لها. والملاحظ أن كثيرًا من مفردات الإصلاح وطرائقه في القارة الأفريقية لم تستطع أن تخرج من أسر الواقع الأفريقي الذي أثر عليها سلباً ولا شك.

يلعب مفهوم الزعامة ومكانتها في أفريقيا دوراً مؤثراً في التغيير والتأثير أياً كانت هوية هذه الزعامة ووجهتها. وإذا كانت الزعامة في الماضي تتمثل غالبًا في رئيس القبيلة الأقوى، واليوم تتمثل أيضًا في صاحب الجاه والمال، فإن الأمور تتجه في الغد القريب إلى أن تكون قوة التوجيه والتأثير رهن المؤسسات الجماعية، وسيتضاءل دور الفرد أمام الجماعة. ولذا يظل بناء مؤسسات قوية تخدم مسيرة الإصلاح ومشاريع النهضة ضرورة مرحلية ملحة.

الولوج بوعي في مشاريع النهضة الاجتماعية وحاجات الناس الأولية مطلب مهم، فالدعاة إلى الله لا يمكن أن يعملوا بمنأى عن مشكلات مجتمعاتهم فيظهرون وكأنهم يحلقون خارج السرب، إلا أن الولوج غير الواعي سيستهلك كل طاقاتهم المحدودة دون خدمة الرسالة الدعوية المطلوبة،أو إيجاد تغيير يذكر في بنية المجتمع الأولية.. والحل يتمثل في علاجنا لقضايا أولية بطرق غير أولية، كأن نعالج الفقر لا بتوزيع الأموال والأعطيات (المحدودة)، وإنما بتأهيل الناس ورفع كفاءتهم. وهكذا يبقى النظر إلى العلاج الجذري أولى من الاهتمام بالعلاج الآني، دون إهمال للحد الأدنى من هذا العلاج العاجل.

استحضار مفهوم الصراع على القارة واستهدافها معنى مهم، ولعله كان حاضراً عند العديد من رجالات الإصلاح في أفريقيا، إلا أن مبالغة ما طرأت على هذا المفهوم جعلت كثيراً من مشاريعنا تكاد تكون منطلقة من نظرة الصراع هذه، مما أدى بمشاريع الإصلاح إلى أن تتحول إلى مشاريع مدافعة وصد فحسب، وذلك جزء من الإصلاح، لكنه ليس الإصلاح كله. ولقد كان لحصر الدعاة أنفسهم في خانة الرفض والصد أثر واضح على لغة الخطاب الدعوي وموضوعاته ومواقفه الساخطة، وهي سياسة ربما نفعت في وقت مضى، إلا أن الاستمرار عليها في المستقبل قد يجعل الآخرين يتجاوزوننا. فالمجتمع لا بد أن يسير، والإسلام لم يكن محصوراً أبداً بإغلاق أبواب الشر فحسب، وإنما بفتح أبواب الخير قبل ذلك، فالأمر بالمعروف مقدم على النهي عن المنكر.

وأخيراً: لا تستغني مشاريع النهضة في قارة تتنازعها التحديات والصعوبات كأفريقيا، عن نفَس طويل وعمل بعيد المدى، يبدأه جيل ويتمه جيل آخر، أو أجيال أخرى، فعمر الإصلاح أكبر من عمر الأفراد، وإن تحقيق هذا المعنى يفرض علينا مهامًا عديدة هامة، كالتخطيط الطويل، والعمل المرتب، والتعاون، والتجرد الذي تتضاءل أمامه مصالح الأفراد أمام مصلحة الدعوة، والوعي الكبير الذي يطيل من أمد الرؤية، فيجعلنا نرى أبعد مما هو أمامنا مباشرة فحسب، فنستشرف المستقبل، ونعمل على كسبه من اليوم. والله غالب على أمره، ومنه العون والطَّول.

الاستثمار في أفريقيا
آمال وتحديات

التحرير

يلعب الاستثمار دورًا كبيراً في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والأمن والاستقرار؛ حيث يسهم في قيام المنشآت والمشاريع الإنتاجية والخدمية وغيرها من التكوينات الرأسمالية الأخرى. وأفريقيا صاحبة ثاني أكبر بساط أخضر في العالم تمتلك مقومات الاستثمار في شتى المجالات، فهي غنية بمواردها البشرية والمادية، وتتميز بموقعها الاستراتيجي، واليوم تشهد نشاطاً اقتصادياً واسعاً وتدفقاً لاستثمارات كبيرة. لقد بلغت عملية التنمية فيها أعلى معدل لها منذ عام ١٩٦٠م، كما حققت أفريقيا جنوب الصحراء في السنوات الأخيرة أقوى معدلات النمو وأدنى معدلات التضخم المسجلة منذ ثلاثين عاماً، وكثير من البلدان الأفريقية «... تجاوزت المرحلة الحرجة، وأنها في سبيلها للمضي على المسار لتحقيق معدلات نمو اقتصادية أشدّ ثباتاً وأكثر سرعة، وهي معدلات ضرورية لتخفيض مستويات الفقر المرتفع»،[1] وقد أوضح نائب رئيس البنك الدولي لمنطقة أفريقيا، أنه: «على مدى العقد الماضي، سجلت أفريقيا معدل نمو متوسط بلغ ٥,٤ في المائة التي هي على قدم المساواة مع بقية العالم.»[2].

من المتوقع أن تكون للتنمية الشاملة آثار إيجابية مباشرة وغير مباشرة على العديد من المؤشرات الاقتصادية قي الدول الأفريقية، مثل: ميزان المدفوعات، والموازنة العامة (الميزانية العامة)، والناتج المحلي الإجمالي، والطلب الإجمالي، ومستوى التوظيف (التشغيل)، والأسعار، وتوزيع الدخل والثروة، وتأثيرات واسعة في المجالات السياسية والاجتماعية والتقنية والثقافية، وعلى المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، يشير تقرير الأعمال للبنك الدولي لعام ٢٠٠٨ م إلى أن الدول الإفريقية تسير بمعدل جيد للإصلاح. إلا أن الأمر لا يخلو من مخاطر تهدد اقتصاد الدول واستراتيجياتها لضعف أسس النمو التي لا تزال هشة، والأهداف المستترة وراء الاستثمارات الخارجية، مما يمس سيادة الدول وأمن مجتمعاتها؛ بسبب التنافس العالمي وسعي بعض الدول الكبرى لبسط الهيمنة والنفوذ، وتلويحها باستخدام القوة إذا اقتضى الأمر.

إن السياسات الاستثمارية الحكيمة، وإيجاد شراكات استراتيجية عادلة، وتنويعها، وتمكين القدرات المحلية من المشاركة في التخطيط السليم للمشروعات وتنفيذها، وإيجاد المناخ المناسب، يمكن أن يسهم في احتواء الهجمة الاستثمارية العالمية، وتوجيه تدفقاتها المالية

١) «تقرير مؤشرات التنمية في أفريقيا ٢٠٠٧ (ADI٢٠٠٧) الذي أصدره البنك الدولي.

٢) توسيع نطاق النمو ومواصلته في أفريقيا .http://go.worldbank.org/J7TZWQ6KG

في مسارات التنمية بما يحقق تطلعات الشعوب الأفريقية وآمالها ويقلل من التحديات والمخاطر.

■ فرص الاستثمار في أفريقيا:

«ونحن ندرك أن البلدان الأفريقية تمتلك موارد كبيرة وفي جميع الميادين: الموارد المعدنية والنفطية، والموارد الزراعية، والموارد السمكية، وموارد الغابات، ولكن هذه الموارد لا تجهز، للأسف، بطريقة مفيدة في أفريقيا. وهذا يشكل فرصة كبيرة ضائعة لأفريقيا»[1]، إن هذه الموارد تمثل مجالات استثمارية قوية، بجانب فرص أخرى متاحة في مجال بناء المنشآت الأساسية والبنى التحتية، كبناء الطرق والسكك الحديدية والمطارات والموانئ، وتوليد الكهرباء والسدود والخزانات وإمداد الماء، ومنشآت أساسية أخرى في مجال الخدمات المختلفة، أو إعادة تأهيل وبناء لما تقادم عهده من ذلك.

إن الموارد البشرية تعد أهم مجالات الاستثمار التي تقاس بها ثروة الأمم، فهي على رأس المكونات الرأسمالية والأصول المؤثرة في الوضع الاقتصادي والاجتماعي للدول، وقد أصبح العنصر البشري ودرجة كفاءته هو العامل الحاسم لتحقيق التقدم، وأفريقيا التي يبلغ عدد سكانها قرابة ٩٣٤مليون نسمة، لا يزال الاستثمار فيها محدوداً في مجال التنمية البشرية، برغم اهتمام بعض الجهات المستثمرة بالتنمية الحضارية للمجتمع، والبيئة والصحة، وزيادة معرفة الفرد، والارتقاء بدرجة وعيه وقدراته عن طرق التعليم والتدريب.

وبالنسبة للموارد الأخرى غير البشرية، فإن أفريقيا التي تتميز بموقعها الجغرافي، وبمساحة إجمالية تبلغ ٣٠,١٩٠ مليون كم٢ تمتلك أكبر مخزون للعديد من الثروات والمعادن الاستيراتيجية، فمن بين ٥٠ معدناً هاماً في العالم يوجد ١٧ معدناً منها في أفريقيا باحتياطيات ضخمة. وهي تمتلك النسبة الأكبر من احتياطي « البوكسيت، والفروكروم، والكوبلت، والماس، والذهب، والمنجنيز، والفوسفات، والمعادن البلاتينية، والتيتانيوم، والفاناديوم»[2]

كما أنها تتمتع بإمكانيات هائلة في مجال الزراعة، تؤهلها لأن تكون سلة الغذاء العالمي كما يرى كثير من الخبراء؛ فهي تشتهر بمواردها المائية حيث يجري فيها ١٣ نهراً، هي: (زامبيزي، شيري، بونجولا، لونجوا، أوجوي، نهر ساند، ليمبوبو، روفيجي، أوكافانجو، مارا، فكتوريا، النيل، أوليفانتس)، وأطولها نهر النيل الذي يبلغ طوله ٦٦٩٥ كم)[3]،

إضافة إلى ارتفاع معدلات سقوط الأمطار في بعض مناطقها المناخية المتنوعة، ومخزونها الضخم من المياه الجوفية، وتقدّر الطاقة الكامنة للريّ في القارة الأفريقية بأكثر من ٤٢,٥ مليون هكتار، مع مراعاة الطاقة الكامنة للريّ لكلّ من الأحواض والموارد المائية المتجددة.

ونظراً لاتساع رقعة أفريقيا الجغرافية فإنها تتميز بتنوع أقاليمها المناخية، وبمستويات ونوعيات مختلفة من التربة الغنية، و بمواسم زراعية متنوعة، وهو ما يجعل منها « بيئة ملائمة لزراعة وإنتاج جميع المحاصيل والحبوب والخضروات، وتقدر نسبة مساحة

١) البيان الوزاري الأفريقي إلى القمة العالمية المعنية بالتنمية المستدامة. المعتمد في المؤتمر الأفريقي التحضيري للقمة العالمية المعنية بالتنمية المستدامة المعقود في نيروبي في الفترة من ١٥ إلى ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١م

٢) ((تقريرا تحت عنوان // البيئة الاستثمارية فى افريقيا وكالة انباء الصين الجديدة / شينخوا

٣) المقومات الاقتصادية ومتطلبات الاستثمار في دول أفريقيا. الدكتور: علي محمد سعود.

الأراضي الصالحة للزراعة فيها بحوالي٣٥٪ من إجمالي مساحة القارة، يستغل منها ٧٪ فقط في الزراعة بشتى أنواعها،... ولا تزيد مساحة الزراعة المروية في الجزء الواقع جنوب الصحراء من أفريقيا عن ٥٠ كم٢ من إجمالي ٢٣ مليون كم٢ ».[١]

فالاستثمار في المجال الزراعي يعد من أفضل الخيارات التي تقدمها أفريقيا للمستثمرين للإسهام في تحقيق النمو الاقتصادي والأمن الغذائي في أفريقيا.

وفي مجالات الطاقة ومصادرها، فإنه برغم ضخامة الطاقة الكهرمائية الكامنة الهائلة في أفريقيا، والتي تناهز ١٧٥٠ تيراواط ساعة، ورغم إمكان ضمان أمن الطاقة من خلال توليد الطاقة الكهرمائية، لا يُستغلّ حالياً سوى نسبة ٥ في المائة من هذه الطاقة الكامنة.

وهي بالنسبة للنفط والغاز تعد المنطقة الأخيرة في العالم التي يوجد بها احتياطي هائل، ويقدر الخبراء حجم النفط الأفريقي بين ٧ في المائة و٩ في المائة من إجمالي الاحتياطي العالمي، ما يوازي ما بين ٨٠ إلى ١٠٠ مليار برميل خام، حيث تنتشر حقول النفط داخل القارة في كثير من دولها وعلى شواطئها الغربية، وهو أسهل وأسرع في استخراجه، وسهولة نقل الخام المتدفق من الآبار إلى سفن راسية عند السطح تقوم بأعمال التصفية والتكرير، بحيث تصبح مشتقاته جاهزة للتحميل والتصدير مباشرة، وهو ما يحقق وفراً اقتصادياً مشجّعً للمستثمرين، كما يعد النفط الخام المستخرج من إقليم خليج غينيا، من النوعية الممتازة.

وتحرص أفريقيا في مجال الصناعة على تعميق وتطوير شراكات استثمارية، وقد جاء مؤتمر القمة الأفريقية العاشر تحت شعار: (التنمية الصناعية في أفريقيا)، تأكيداً لأهمية التوجه نحو تطوير قطاع الصناعة الذي لا يزال الاستثمار فيه ضعيفاً؛ حيث إن « مخرجات القطاع الصناعي بالقارة لا يتعدى نسبة ٢٪ من الإنتاج العالمي... وصادراتها الصناعية تبلغ نسبة ١٪ فقط من إجمالي الصادرات العالمية»[٢]، بالرغم من أنها كما تقدم « ...خلافاً لما يحصل في أجزاء أخرى من العالم، تعتبر أفريقيا أغنى القارات من حيث الموارد والمعادن الطبيعية بما في ذلك الكثير من الموارد الصناعية والزراعية التي يمكن أن تكون محركاً للنمو الاقتصادي والتنمية إذا ما تم استخدامها على نحو فعال ومتوازن»[٣]. فالقطاع الصناعي في أفريقيا أكثر القطاعات حاجة إلى الإمكانات الفنية والمالية، والمعلومات والخبرات حول تنفيذ البرامج الخاصة بالتنمية الصناعية. وحرصاً على مشاركة المستثمرين في تسريع التنمية الصناعية في أفريقيا، نظّم المؤتمر الثامن عشر لوزراء الصناعة الأفريقيين٢٤ – ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٨م في دوربان، بجنوب أفريقيا منتدى يجمع الفاعلين الأفريقيين وغير الأفريقيين،... قرابة ٨٠ مسؤولاً تنفيذياً من الشركات الأفريقية الكبرى، والمتعددة الجنسيات العاملة في أفريقيا للحصول على مساهماتهم بخصوص التحول الصناعي الأفريقية واستراتيجية التنفيذ.[٤]

١) الزراعة في إفريقيا. العمود الفقري للاقتصاد الإفريقي http:// www.voiceofafrica.com

2) www.gom.com.eg/algomhuria/2008/.../detail00.shtml

٣) مذكرة المؤتمر الثامن عشر لوزراء الصناعة الأفريقيين٢٤ ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٨م دوربان. جنوب أفريقيا. www.africa-union.org

٤) مذكرة المؤتمر الثامن عشر لوزراء الصناعة الأفريقيين٢٤ ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٨م دوربان. جنوب أفريقيا. www.africa-union.org

■ تداع وتنافس عالمي محموم :

كانت ثروات أفريقيا من أسباب الهجمة الاستعمارية الغربية عليها في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، كما كانت من أسباب بعض الحروب الداخلية ؛ فاستغلال ثرواتها الطبيعية لم يكن هدفاً للجماعات المتصارعة في الداخل فحسب، بل كان أيضاً هدفاً للقوى الخارجية التي تدخلت في النزاعات الأهلية مدفوعة بمصالحها الاقتصادية.

واليوم تتسابق الدول نحو أفريقيا في تنافس محموم، في مقدَّمتها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والصين وروسيا إضافة إلى إيران وتركيا وماليزيا والهند وكوريا وتايوان والبرازيل، جميعها تسعى للنفاذ إلى ثروات القارة، و خاصة مصادر النفط فيها. يحذر إيان غاري محلل السياسة النفطية بمنظمة (أوكسفام)* العالمية من أن « القارة أصبحت بقعة ساخنة لسباق دولي محموم للاستثمار في قطاع النفط «[1]، و قد سارعت الولايات المتحدة في محاولتها لتعزيز السيطرة على النفط الإفريقي من خلال المجلس الاستشاري لإفريقيا، وهو تحالف يضم شركات أمريكية عملاقة، ويعد هذا المجلس شريكًا أصيلاً للحكومة الأمريكية في كل ما يخص إفريقيا، وهو وراء تضخم الاستثمارات الأمريكية في قطاع النفط في غرب إفريقيا حتى تجاوزت سبعة المليارات دولار بعد أن كانت ملياراً واحدًا في بداية عقد التسعينات.[2]

■ تحديات ومخاوف :

لقد ولد هذا التنافس مخاوف من تدخلات عسكرية، تجعل أفريقيا خاضعة لبعض الدول ذات الهيمنة والنفوذ كفرنسا، أو أمريكا التي ترعى بجانب مصالحها الخاصة مصالح إسرائيل في أفريقيا وتتولى مسؤولية حمايتها،. يؤكد هذه المخاوف ويزيدها الوجود العسكري الأجنبي وقواته وقواعده المنتشرة في مناطق متفرقة داخل القارة، وفوق المياه المحيطة بها، كالقواعد الفرنسية والأمريكية، كما تأتي تصريحات بعض المسؤولين والمحللين السياسيين لتقوي هذا التأكيد ؛ يرى مؤلف كتاب: (حروب مصادر الثروة)، المحلل الأمني الأمريكي (مايكل كلير): « أن أفريقيا ستكون هي الهدف، وستكون مسرحًا للحروب القادمة بين القوى المتصارعة. «[3] ويقول الدكتور جاك ضيوف المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو) « : إن السباق بين الدول المستوردة للغذاء على الحصول على أراض زراعية في الدول الأخرى لتعزيز أمنها الغذائي يهدد بخلق نظام «استعماري جديد»،[4] لقد حذرت بعض المنظمات العالمية من الآثار والنتائج السلبية لتنافس المستثمرين على شراء مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في أفريقيا، كما دعا جامعيون أفارقة إلى إعداد إستراتيجية إقليمية وقارية للعلاقة مع الصين لتجنب الاختلال في علاقاتهما الثنائية مشيرين إلى أن «الاستثمارات الصينية مرتبطة بالاحتكارات الكبرى للدولة الصينية» و أنها تركز على قطاع المناجم والمسح الجيولوجي أو على البنى التحتية.

---

* هي ائتلاف دولي من ١٣ منظمة تعمل مع نحو ٣٠٠٠ شريك في ١٠٠ دولة بهدف إيجاد حلول دائمة للفقر في العالم. يتحكم في المنظمة نحو ٦٠٠٠ شخص في العالم. ولها برامج تدريبية ودليل للتدريب على الجندر وهي من المنظمات الطوعية التي تم طردها من دارفور بالسودان.

١) ((النفط والدولار.. ومهمة تسليح الدول الكبرى إعداد: علي الطالقاني* شبكة النبأ المعلوماتية-الخميس ٢٠ آذار/٢٠٠٨ - ١٢/ربيع الاول/١٤٢٩

٢) (إفريقيا.... آتون الصراعات وبحر الثروات مفكرة الإسلام: وحدة متابعة الشئون الإفريقية ١٨ - ٠٧ - ٢٠٠٦

٣) (إفريقيا.... آتون الصراعات وبحر الثروات مفكرة الإسلام: وحدة متابعة الشئون الإفريقية ١٨ - ٠٧ - ٢٠٠٦

٤) (تحقيق الأمن الغذائي بقلم د.جون اسفكياناكيس* مدير عام وكبير الاقتصاديين لمجموعة ساب (البنك السعودي البريطاني) الرياض الاقتصادي الاثنين ٢٤ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ - ٢٠ ابريل ٢٠٠٩م - العدد ١٤٩١٠

إن هذه المخاوف لا يمكن تجاهلها طالما هنالك وقائع تاريخية سبقت، ومؤشرات قائمة لاحتمال وقوعها ثانية، فهل تقبل أفريقيا بنظرية ‹السيطرة الحميدة› التي يطلقها بعض رؤوس المحافظين الجدد في أمريكا ؟! أم تفضل الاستعمار الناعم القادم من بكين ؟!

أياً ما كان الأمر، فإن أفريقيا أخذت تهيئ بيئتها الاستثمارية لاحتواء سيل التدفقات القادمة نحوها بقوة.

■ تهيئة المناخ الاستثماري في أفريقيا:

اهتمت الدول الأفريقية بتهيئة بيئاتها الاستثمارية، وخاصة جنوب الصحراء التي ظلت تعاني أوضاعاً سياسية غير مستقرة، إضافة إلى ضعف أسس النمو، وعدم ملاءمة كثير من السياسات الاقتصادية المطبقة فيها؛ لذلك سارعت الحكومات الأفريقية من خلال أجهزتها المعنية إلى إيجاد بيئات استثمارية مناسبة، فقامت بمراجعة سياساتها الاقتصادية، ونظمها الاستثمارية، وسنَّت العديد من التشريعات والقوانين والأنظمة واللوائح الجديدة التي تشجع الاستثمار وتدعمه، واستحدثت الهيئات والمؤسسات التي تخطط له وتنظمه. ووضعت امتيازات كثيرة، منها: تيسير شروط الاستثمار وتخفيف القيود على تدفقاته، والتحوط لما يمكن أن تتعرض له الاستثمارات من مخاطر، والعمل على تقليلها، والشفافية في توفير المعلومات الضرورية للمستثمر وكسب ثقته، وتبسيط الإجراءات، وتقديم ضمانات بحرِّية نسبة المساهمات ونقل الأموال إلى الخارج، إضافة إلى الإعفاءات من بعض الضرائب الجمركية والربحية وغيرها. في ظل هذه التوجهات الجادة للحكومات، وحرصها على جذب الاستثمارات الخارجية وتشجيعها، تسابقت الدول والشركات والمؤسسات نحو أفريقيا، وتدفقت الاستثمارات حتى بلغ حجم الاستثمار المباشر مستوى قياسيا قدر بحوالي ٥٣ مليار دولار أواخر عام ٢٠٠٧م، يتوقع أن يصل إلى مئات المليارات من الدولارات، وهو ما يمكن أن تترتب عليه نتائج مدمرة لاقتصاد الدول الأفريقية إن لم تكن ثمة محددات لقبول تلك الاستثمارات وضوابط لتوجيه مساراتها.

■ الاستثمار الخارجي:

سياسات الاحتواء:

من التجارب الدالة على ما يمكن أن يسببه الاستثمار الخارجي في أفريقيا من آثار مدمرة لاقتصاد دولها تأثر التنمية مؤخراً بصورة سلبية في البلدان الإفريقية نتيجة ارتباط اقتصادها بالأسواق الأوربية، والتضرر الذي حصل للدول التي فتحت قطاعها المالي بصورة أكبر في السنوات الماضية للاستثمارات الأجنبية مثل جنوب إفريقيا. فقد يتسبب الاستثمار في إشكالات اقتصادية كبيرة في الدول الأفريقية كانهيار الاقتصاد أو انكماشه في حال الانسحاب المفاجئ لرؤوس الأموال أو التركيز على الاستثمارات قصيرة المدى، وكالتضخم النقدي، ورفع أسعار العملات، أو التسبب في زيادة حجم الفساد الإداري والمالي في المجتمعات، والتهديدات الأمنية فيما يتوقع من صدامات بين الدول المتنافسة. إن تجنب مثل هذه المخاطر من ناحية، وتحقيق الاستفادة القصوى من الاستثمار الخارجي في تطوير الاقتصاد وتحقيق ثباته واستقراره في الدول الأفريقية من ناحية أخرى، يتطلب وضع استراتيجية شاملة وسياسات راشدة توجه تدفقاته، ومن ذلك وضع محددات وشروط

أساسية أهمها :

١ - التعاون مع الدول الأفريقية كمجموعة واحدة يتم التنسيق بينها من خلال استراتيجية تنموية متوازنة ومتكاملة للقارة عبر مؤسساتها القارية كمفوضية الاتحاد الأفريقي وغيرها.

٢ - ربط الاستثمارات الخارجية بخطط التنمية المحلية للاستفادة منها بصفتها موارد تمويلية، وتحقيق التوازن والتكامل بينها وبين الخطط الاستراتيجية للدول، وبينها وبين الاستثمارات المحلية.

٣ - توظيفها للمساهمة في تحقيق التنمية الشاملة، وتنفيذ المشروعات الاستراتيجية، وخاصة ما يتعلق بالأمن الغذائي والبنى التحتية لأفريقيا.

٤ - المشاركة في تنمية رأس المال البشري في الدول الأفريقية من حيث: التخطيط والتنمية والتوظيف.

٥ - المساهمة في تحقيق الجانب الأمني للمجتمعات الأفريقية بمعالجة المشكلات المزمنة كالفقر، والبطالة، والمرض، وتوفير الخدمات الأساسية لحياة الإنسان.

٦ - دعم السياسات والبرامج التي تزيد من إمكانية تحقيق الدولة للتنمية و الانخراط في اقتصاد متطور.

٧ - وضع الموازنة السليمة لتدفقات رؤوس الأموال الخارجية بالنسبة للناتج القومي العام، تجنباً لتعرض اقتصاديات الدول الأفريقية للانهيار في حال انسحاب هذه الأموال عند ظهور أية بوادر لعدم الاستقرار، مع التركيز على الاستثمارات طويلة الأجل.

٨ - توريث وتوطين الخبرة والتجربة والتقنية، وبناء وتطوير المؤسسات المحلية.

٩ - تطوير البنيان أو الهيكل الاقتصادي، ونقله من طرق الإنتاج التقليدي إلى طرق الإنتاج المتطورة.

١٠ - إتاحة الفرص على نطاق واسع للشراكة مع القطاع الخاص في التخطيط والتنفيذ لتلك المشروعات.

■ المبادرات والبرامج التنموية :

ظهرت مبادرات ومشروعات وبرامج تنموية متعددة من جهات مختلفة، منها :

تصميم آلية للتقييم الذاتي : أكد ذلك القادة الأفارقة في بيان مشترك، سعياً لتعزيز امتلاك أفريقيا لبرنامجها التنموي الخاص.

مشروع «مشاورات من أجل صياغة استراتيجية للاستثمار في أفريقيا » وهو مشروع استشاري أصدرته مفوضية الاتحاد الأفريقي يهدف إلى اقتراح استراتيجيات الاستثمار وسياساته التي يجب أن تعتمدها الدول الأعضاء من أجل تطوير القارة الأفريقية...في ظل إستراتيجية شاملة تكون موجهة نحو التكامل الإقليمي)[1] وذلك من خلال محاور أساسية أهمها ما يلي :

- تحليل وضع سياسات الاستثمار في الدول الأفريقية، وعلى مستوى المجموعات الاقتصادية الإقليمية، ومدى تجانسها.
- مراجعة أنشطة المجموعات الاقتصادية الإقليمية في مجال مواءمة استراتيجيات الاستثمار.
- تقييم قدرة الدول الأعضاء على اعتماد أفضل الممارسات لتسيير الاستثمار.

١) ((١٣يوليو ٢٠٠٨ ٢:١٥:٢٤:١٢:٢٠٠٧

- تقييم دور وكالات ترقية الاستثمار وأصحاب المصلحة الآخرين المعنيين في تيسير الاستثمار وتعزيزه.
- صياغة الاستراتيجيات والممارسات المناسبة التي تحتاجها الدول الأعضاء جماعياً من أجل استثمارات مستقرة ومتطورة في أفريقيا.
- برنامج للعمل المشترك في مجال الزراعة والغذاء تم الاتفاق عليه بين الجامعة العربية والاتحاد الأفريقي.
- المنتدى العربي الأفريقي للتنمية. يشارك فيه مسؤولون وخبراء وأكاديميون والغرف التجارية والقطاع الخاص والمجتمع المدني على الجانبين، وستعقد الدورة الأولى لهذا المنتدى نفسه في أوائل عام ٢٠١٠ في إحدى الدول العربية.
- مشروعات المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا لتحسين الظروف المعيشية للسكان ورفع المعاناة عنهم، والتخفيف من حدة الفقر، وتطوير الخدمات المختلفة.
- المؤتمر الخليجي الأفريقي: وهو مؤتمر يهدف إلى بحث القضايا والتحديات التي تعوق تعزيز العلاقات بين قارة أفريقيا ودول مجلس التعاون الخليجي وبحث آفاق التعاون الاقتصادي إضافة إلى الارتقاء بعلاقات الجانبين على الصعيد السياسي والأمني والاجتماعي.
- المشروعات الثنائية المباشرة بين عدد من الدول العربية والخليجية من جانب والدول الأفريقية من جانب آخر، مثل:المملكة العربية السعودية، وقطر، وبين الدول الأفريقية وبعض الشركات العربية.

■ مصرف الاستثمار الأفريقي:

وهو من الأدوات المميزة وذات الأولوية لتمكين إفريقيا من المضي قدماً وتسريع عملية الاندماج والتنمية المستدامة، وسيساهم في تغطية احتياجات إفريقيا الفعلية للتمويل والمقدرة بين ٥٤ و١٠٠ مليار دولار أمريكي لسبع السنوات القادمة.

■ نحو شراكات عربية وإسلامية :

هل يكون في ذلك تحقيق الطموحات، ودفع التحديات؟

هذا ما تطمح إليه أفريقيا، فقد جاء على لسان جان بينج رئيس الاتحاد الإفريقي: «إن الاستثمارات العربية للحد من الفقر في القارة أفضل وسيلة لتخفيف حدة التوترات بين العرب والأفارقة»[1]، كما أكد الرئيس السنغالي عبد الله واد على الاستفادة من الروابط الدينية لجذب استثمارات تقلل من الاعتماد على مانحين غربيين، وتطوير التعاون الشامل لمواجهة التحديات، يقول: «إننا نتجه بالفعل إلى تعاون شامل نعمل على أن يكتسي بعداً مؤسسياً كاملاً، يشد من عضدنا في مواجهة التحديات الراهنة والمستقبلية. وإنني كلي ثقة في حنكة وإدراك وتعاون الرئيس جان بينج الذي أعمل معه يداً بيد للوصول إلى هذا الهدف، هذا هو المدخل الحقيقي للحفاظ على أمننا وسلامة مجتمعاتنا، وتحقيق نمائها وتطورها والمشاركة بحق في لعب دورنا الطبيعي والتاريخي في بناء الحضارة الإنسانية» [2]. لقد أثبتت تطورات الأوضاع التنموية والسياسية أن معالجة قضايا التنمية في كل من أفريقيا والعالم العربي،

١) الجلسة الافتتاحية لقمة الاتحاد الإفريقي أديس أبابا: ٢ فبراير٢٠٠٩

٢) الجلسة الافتتاحية لقمة الاتحاد الإفريقي أديس أبابا: ٢ فبراير٢٠٠٩ ١٧ صحيفة الاقتصادية - تاريخ النشر : ٩ / ٥ / ٢٠٠٩م بتصرف.

و التعامل مـــع القضايا الأساســـية التي تثقل كاهل القـــارة الأفريقية ،وتلك التي يتعرض لها العالم العربي، أصبحت متداخلة متشـــابكة في معظمهـــا، الأمر الذي يجعل ممارســـة التعاون العربـــي الإفريقي أمراً يدخل في باب حســـن إدارة الأمـــور، ويتطلب التنظيم المباشـــر لهذا التعاون وإحياء آلياته.

كما يتوقـــع أن يكون للتمويل والاســـتثمار الإســـلامي في أفريقيـــا دور فاعل بعد مؤتمر «عالم التمويل والاستثمار الإسلامي – إفريقيا ٢٠٠٩» الـــذي يعد الأول مـــن نوعه الذي يعقد في القارة،... وفـــي أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية التـــي لفتت أنظار المجتمع المصرفي والاستثماري بشكل متزايد إلى صناعة التمويل الإسلامي باعتبارها نعمة الخلاص من الأوضاع الســـائدة، ومع التوقعات التي تشير إلى وصول حجم هذه الصناعة إلى تريليون دولار في عام ٢٠١٠م).

المسلمون في الجنوب الأفريقي
نجاحات الماضي وتطلعات المستقبل

د. آدم بمبا

يستهدف هذا المقال ما يتوقع التوصل إليه بإذن الله من استكشاف بعض جوانب المدِّ الإسلاميِّ في منطقة الجنوب الأفريقيِّ، وما حققه من إنجازات حضاريَّة في هذا الجزء من القارَّة الأفريقيَّة، وبالتالي ما يمكن أن يُحقِّقه المسلمون في الحاضر والمستقبل من إنجازات بناءً على تلك المعطيات. ولا شكَّ أنَّ لمثل هذه الدِّراسة أهميَّة في التعرف على تاريخ الإسلام بالقارَّة؛ لكون هذه المنطقة ثالثة المنافذ الرَّئيسة التي نفذ منها الإسلامُ إلى عمق القارَّة الأفريقيَّة.(١)

يقع الجنوب الأفريقيُّ بين المحيط الهنديِّ والمحيط الأطلسيِّ، وهي منطقة مترامية تضمُّ في الجغرافيّة السِّياسيَّة الحديثة دُولاً كثيرةً مثل: بتسوانا، وجمهوريَّة جنوب أفريقيا، وزامبيا، وزيمبابوي، وسوازيلاند، وليسوتو، وملاوي، وموزمبيق، وناميبيا. ويُطلق بعض الجغرافيِّين على هذه المنطقة مصطلح «جنوب ليمبوبو» (Limpopo)، أو ما وراء نهر «زامبيزي» (Zambezi).(٢)

تتميَّز هذه المنطقة بتنوع المناخ، ففي الجزء الشَّرقيِّ منها المحاذي للمحيط الهنديِّ تمتدُّ الغابات الاستوائيَّة، وسلاسل جبال «دراكنسبرغ» (Drakensberg) الوعرة، وتمتدُّ في الجزء الغربيِّ منها صحراء كلاهاري، وصحراء كارو. وفي الجزء الشَّماليِّ منها أنهارٌ كبرى مثل: نهر ليمبوبو، ونهر أورنج (Orange)، ونهر زامبيزي. وتعيش في منطقة الجنوب الأفريقيِّ قبائل رعويَّة وزراعيَّة عديدة أكبرها: الخويّ سان (Khoisan)، الخوسا (Xhosa)، سونغا (Tsonga)، السوتو (Sotho)، سوانا (Tswana)، الزُّولو (Zulu)، وناما (Nama). وتعيش نسبة (٩٠٪) من سكَّان هذه المنطقة في الجزء الشَّرقيِّ منها.(٣)

١) المنفذ الأوَّل هو الشرق الأفريقي. وكان النفوذ الإسلامي الأول منه منذ العهد النَّبوي. متمثِّلا في الهجرة الأولى إلى الحبشة. والمنفذ الثاني هو الشمال الأفريقيّ. وعبر فيه الإسلام الصَّحراء الكبرى إلى غرب أفريقيا. وبذلك يكون المدُّ الإسلاميُّ في أفريقيا أشبه بكائن حيٍّ يُطوق هدفه من جميع جوانبه. ويحكم به قبضته.

2) See for instance: J. D. Fage, Roland Anthony Oliver (ed). The Cambridge History of Africa, (Cambridge University Press, 1986), p567.

3) Elizabeth Isichei, A History of African Societies to 1870,

■ العرب والمسلمون والجنوب الأفريقي:

عرف الجغرافيِّون العرب والمسلمون منطقة الجنوب الأفريقي قبل التَّطوُّر الملاحيِّ في القرن الخامس عشر الميلاديِّ، وكانت تُسمَّى في أدبيَّاتهم الجغرافيَّة والتَّاريخيَّة ببلاد «ما وراء سفالة» (Sufala)، أو «الواق واق». و(سفالة). كما قالوا: آخرُ مدينة تُعرف بأرض الزِّنج، وكانت مشهورة لدى العرب بالذَّهب، حتى إنَّهم أضافوها إلى المدينة فقالوا (سفالة الذَّهب). وفيها تُذكر قصَّة التُّجار العرب الأوائل الذين كانوا يجلبون الأمتعة إلى السُّكان المحلِّيين، فيتركونها على الشَّاطئ ويمضون، فيأتي السُّكان فيأخذونها ويضعون ثمنها ذهبًا خالصًا، فيأتي التُّجار ثانيةً ويأخذون الذَّهب.[١] وقد أوضحوا أنَّ أرض سفالة متَّصلة بأرض الواق واق، وهي جنوب أفريقيا اليوم، وذلك واضحٌ في قول ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في وصفه للأقاليم: «... ثم بلد مقدشو، ثم بلد سفالة، وأرض الواق واق، وأممٌ أخر ليس بعدهم إلا القفارُ والخلاء».[٢] وقد توَّج الإدريسيُّ ذلك كلَّه برسمه لخارطة العالَم عام (٨٠٤هـ/١١٥٤)، التي تُعدُّ أوَّل خارطة مفصَّلة للكرة الأرضيَّة، وفيها رسمٌ شبه دقيق للجنوب الأفريقيِّ.

عليه، يتأكَّد أن الجغرافيِّين العرب والمسلمين، قد عرفوا هذه المنطقة، وخاض بعضهم بعض أرجائها كالمسعودي مثلا. أمَّا سفالة التي كانت مقصدهم، فما زالت موجودة بهذا الاسم، وهي ميناءٌ في موزامبيق، وتعدُّ جزءًا من منطقة الجنوب الأفريقيِّ.

أما عن علاقة سكان تلك المنطقة القديمة بالعرب والمسلمين، فلم يخلُ مصدرٌ تاريخيٌّ أو جغرافيٌّ تناولَ هذه المنطقة بالحديث، عن الإشارة إلى تلك العلاقات، من ذلك قول المسعودي: «أهل المراكب من العمانيِّين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزِّنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزِّنج».[٣] وقنبلو تلك، يغلب الظنُّ أنَّها جزيرة مدغشقر الحاليَّة، وقد ذكر المسعودي في موضع آخر أنَّ المسلمين يحكمون بها. قال: «... فيها خلائقُ من المسلمين يتوارثونها ملوك من المسلمين، يقال لها قنبلو».[٤]

هذا عن العلاقات العربيَّة والإسلاميَّة المباشرة من قِبَل الشَّمال (جزيرة العرب)، ومن شرق أفريقيا، مع منطقة الجنوب الأفريقي. أما عن التَّأثير الإسلاميِّ القادم من الشَّرق (بلاد الجاوة)، فليس بين المؤرِّخين أو الأنثربولوجيِّين (المختصون بعلم الإنسان) أو غيرهم من الباحثين في الحقول العلميَّة المختلفة، خلافٌ في التَّأثير الأندونيسيِّ في تعمير جزيرة مدغشقر والسَّواحل الأفريقيَّة القريبة منها، فقد كان تعميرها، كما يقول المؤرِّخ ريموند كانتْ (Raymond Kent)، والمؤرِّخ ديكامب (Dechamps).[٥] منذ القرن الرَّابع الميلاديِّ حيث وفدت سفنٌ تحمل جماعات من الشُّعوب الأندونيسيَّة، ولغتهم المالاجاسي، واستقرَّت بالجزيرة،[٦]، وما زالت العلاقات التِّجاريَّة والثَّقافيَّة متواصلة منذئذٍ، إلى ظهور الإسلام، وانتشاره بأرض الجاوة، فكانت الجاوة رافدًا من روافد الإسلام وثقافته إلى جزيرة مدغشقر.

---

١) الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم البلدان. (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ٢٤٤/٣.

٢) ابن خلدون، المقدمة، ٧/١.

٣) مروج الذهب، مصدر سابق، ص٤٠.

٤) المصدر السابق، ص١٧٤.

5) Fernand Braudel, Siân Reynolds, Civilization and Capitalism 15th-18th Century, (CA: University of California Press, 1992), p13.

٦) ماكيفيدي كولين. أطلس التاريخ الأفريقي. ترجمة مختار، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧)، ص١٩.

■ قدم وعمق التأثير الإسلامي في الجنوب الأفريقي:

أثبتت دراسات أنثربولوجيَّة (في علم الإنسان) وتاريخيَّة حديثة، خطأ المزاعم التي تقول بأنَّ التَّأثير الإسلاميَّ في شرق أفريقيا، بقي في السَّواحل فحسب، دون النُّفوذ إلى العمق الأفريقيِّ. ومن النَّماذج التي أوردها الباحثون في الجنوب الأفريقيِّ، نموذج المدينة الأثريَّة القديمة «زيمبابوي الكبرى» (Great Zimbabwe)، وقبائل أفريقيَّة غير ساحليَّة، وجُدت بينها مظاهر إسلاميَّة عدَّة. وهذا ماسيتم الوقوف عند بعضه في الفقرات التالية.

أوَّلاً: زيمبابوي الكبرى والحفريَّات الأثريَّة

تعدُّ الكشوف الأثريَّة في زيمبابوي الكبرى من أهمِّ الكشوف المعاصرة التي غيَّرت كثيرًا من المفاهيم عن تاريخ منطقة الجنوب الأفريقيِّ، وهي مدينةٌ أثريَّة قديمةٌ تقع على بُعد (١٧) ميلاً جنوبيَّ شرق زيمبابوي الحاليَّة، أي غير بعيدٍ عن مدينة سفالة السَّالفة الذِّكر، اكتشفها المستكشف الألماني كارل م. (Carl Mauch) عام (١٨٧١م). وتمتدُّ على مساحة (٧٠٠ هكتار) بأكثر من تسعين ألف بيت.[1]

تأتي أهميَّة هذا الموقع الأثري في تأكيده على العلاقات التِّجاريَّة والثَّقافيَّة التي ربطت هذه الحاضرة في فترة أوْج ازدهارها (من القرن الثَّالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي) بالمدن التِّجاريَّة وممالك الطِّراز الممتدَّة على السَّواحل الأفريقيَّة، وكذلك المراكز التِّجاريَّة في الهند، والصِّين، والجزر الأندونيسيَّة.

وتوَّج المؤرِّخون المكتشفات الأثريَّة فيها بدراساتٍ تاريخيَّة أثبتت وجود نشاطٍ تجاريٍّ بين هذه المدينة وبين مدينة كلوة خاصة.

بالإضافة إلى ما ثبت تاريخيًّا من وجود تجارٍ سواحيليِّين مسلمين قطنوا مدينة زيمبابوي الكبرى، وكان لهم نفوذٌ على ملوكها.[2] بل خلُص غير أولئك إلى القول بوجود عرب ومسلمين نزحوا إلى تلك المنطقة واستوطنوا بها بشكل دائم، وذلك منذ القرن الرَّابع عشر الميلاديِّ تقريبًا.[3] ومثَّلت مدينة زيمبابوي الكبرى – في هذا التَّبادل التِّجاريِّ الثَّقافي- الواسطة بين العمق الأفريقيِّ الشَّاسع، وبين العرب والمسلمين. وقد أكَّد ذلك نماذج حجريَّة معماريَّة أخرى اكتُشفت في المنطقة الجنوبيَّة من بوتسوانا الحاليَّة (Makgadikgadi)، وهي تمثِّل المنطقةَ الوسطَ في الجنوب الأفريقيِّ، ممَّا حمل الباحثين على القول بأنَّها تؤكِّد أنَّ الاختراق الإسلاميَّ قد بلغ منذ ذلك العصر أواسط تلك المنطقة التي كانت شهيرة بتجارة العاج وصناعته.[4]

ثانيًا: الدِّراسات الأنثربولوجيَّة (علم الإنسان).

الدِّراسات التَّاريخيَّة والأنثربولوجيَّة الحديثة تؤكِّد أنَّ المدَّ الإسلاميَّ من الشَّمال (السَّواحيلي) إلى العمق الجنوبي، فيما وراء منطقة (Soutpansberg) الموجودة في جمهوريَّة جنوب أفريقيا الحاليَّة، كان منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي. وهذا ما تثبته شواهدُ لغويَّة من السَّواحيليَّة العربيَّة توغَّلت في اللُّغات المحليَّة نحو الجنوب الأقصى حتى بلغت نهر سانت جونز في سواحل (Pondoland)، بترانْسكايْ (Transkai)، بالإضافة إلى فلولٍ من القبائل المحليَّة الأفريقيَّة من بطون قبائل شونا القاطنة في المناطق الجنوبيَّة من

(1 Philip, Curtin. African History from Earliest times to Independence, (London: Longman, 2nd. Ed. 1995), p250-251.

(2 Peter S. Garlake. Early Art and Architecture in Africa, (Oxford University Press, 2002), p184.

(3 Timothy, Insoll. The Archeology of Islam, p368.

(4 Ibid, p364.

زيمبابوي الحاليَّة، وقبائل (Venda) وسوتو، وتونغا في منطقة ترانسفال (Transvaal)، الواقعة شماليَّ جمهوريَّة أفريقيا الجنوبيَّة، ويُجمع هذا الشَّتات القبلي لدى المؤرِّخين تحت مسمَّيات ثلاث هي: ليمبا (Lemba)، وفاريمبا (Varemba)، وباليمبا (Balemba)، التي سمَّاها الباحث إبراهيم موسى «قبائل أفريقيَّة مسلمة»، الذي أوضح أنَّ الدِّراسات الأنثربولوجيَّة الدِّينية قد فوجئتْ بوجود بعض الممارسات والمظاهر الثَّقافيَّة بين تلك القبائل تؤكِّد –بلا أدنى شكٍّ– أخذ تلك المظاهر من الشعائر الإسلاميَّة، هذا فضلاً عن انعكاسات لغويَّة للغة العربيَّة –غير السَّواحيليَّة– في لغات أولئك.[1]

بناء على ما تقدم، يمكن الاطمئنان إلى القول بأنَّ المدَّ الإسلاميَّ قد وصل إلى العمق الأفريقيِّ في فترة من الفترات، ولكن عدم متابعة هذا المدِّ، وإذكاء جذوته، قد أفضى إلى ضعفه حتى سهُل على المنكرين إنكار وجوده.

ثالثًا: قبائل ياوْ والإسلام.

الموطن الأصليُّ لقبائل الياوْ هو شمالي موزامبيق، ولكنَّها اليوم تنتشر في تنزانيا، والموزامبيق، وفي ملاوي خاصة، وقد انحدرتْ مجموعاتٌ كبيرةٌ منها إلى المناطق الشَّماليَّة من جمهوريَّة جنوب أفريقيا الحالية.

تمثِّل قبائل الياو (YAO)،[2] وجهًا آخر حيًّا للمدِّ الإسلاميِّ في العمق الأفريقي. وظاهرة فريدةً لانتشار الإسلام في الجنوب الأفريقيِّ؛ حيث كان إسلامُها إسلامًا جماعيًّا على غرار قبائل الماديغو والفولاني والهوسا في غرب أفريقيا. كان إسلام الياوْ نتيجة العلاقات التِّجاريَّة بينها وبين التُّجار المسلمين السواحيليِّين منذ القرن السَّابع عشر الميلادي، فقدكان الكتبة والمستشارون في بلاطات زعماء الياوْ مسلمين، وهذا ممَّا سهّل إسلام أولئك الزعماء، ومن ثمَّ إسلام عامَّة الشَّعب. ويُذكر أن من أوائل أولئك الزُّعماء إسلامًا، الملك ماكانجيرا الثالث (Makanjira III).[3]

نتج عن الاحتكاك الطَّويل –كما يؤكِّد– المستكشف ليفيغستون (عام١٨٦٦)، تأثيرٌ سواحيليٌّ واضح في أزياء قبائل الياو، وفي فنونها المعماريَّة، خاصَّة في عاصمتها (Mwembe)، وأكَّد ذلك الباحث ميتشل، والذي ذهب إلى أنَّ مساجد الياو، وبيوتها صورة أخرى لأصولٍ زنجباريَّة. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ هذه العلاقة التاريخيَّة المطوَّلة بين العرب وبين الياوْ قد تمخَّضت مؤخَّرًا في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي عن محاولة سالم بن عبد الله (عام١٨٤٠م) تأسيس مملكة في (Nkhotakota) على ضفاف نهر ملاوي، ومملكة أخرى أسَّسها شخص يدعى (Mlozi)، لكن القوات البريطانيَّة وأدت المحاولتَين، وقُبض على ملوذي وشُنق عام (١٨٩٥).[4] ومن هنا، فإنَّ المدَّ الإسلاميَّ في المناطق الشَّرقيَّة من الجنوب الأفريقيِّ، يعود إلى قبائل الياو. وهي كذلك – كما يقول الباحث بونْ– «أهمُّ مصدر لنشر الإسلام في ملاوي اليوم».[5]

رابعًا: قبائل أخرى في الجنوب الأفريقي.

على الرُّغم من التَّأخُّر النِّسبي في احتكاك شعوب جنوب أفريقيا الحقيقيِّ بالمسلمين ابتداءً من القرن السَّابع عشر الميلاديِّ، فإنَّ المصادر

1) Ebrahim, Moosa. P130.

٢) نظرًا لانتشار قبال الياو في معظم أرجاء أفريقيا الشرقية والجنوبية، فقد تعددت أسماؤها، ومن ذلك: wayao و veiao، و adjao، وحصرت دراسة قديمة منذ ثلاثين عاما، تعدادها بأكثر من ثمانية ملايين نسمة، وأن أكثر من نصف هذا العدد مسلمون. ينظر: Richard V. Weekes (ed), Muslim Peoples: A world Ethnographic Survey, (Westport USA, Greenwood Press), p870.

3) Timothy, Insoll. The Archeology of Islam, p394.

4) Op. Cit. p393.

5) Bone, 1982, p130.

التَّاريخيَّـــة تفيد بأنَّ إقبالهم على الإســـلام كان مرنًا وسلسًـــا، خاصَّة في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر الميلاديين. وقد أثار ذلك توجُّس المســـتعمرين والمنصِّرين -كمـــا يأتي بيانُه في فقـــرة الحديث عن الإســـلام بمســـتوطنة رأس الرَّجاء الصَّالح- ففي أواســـط القرن التَّاســـع عشر الميلادي، أبدى بعضهم تخوُّفه من الإسلام قائلاً: «هناك خطرٌ حقيقيٌّ في انتشـــار الإسلام بين الزولو والباسوتو؛ لأنَّهم إن انخرطوا في صفِّ الإســـلام، فإنَّهم سيغدون من دعاته...».[1] وفي عام (١٩٠٠م) كتب الأب توماس (T. Fothergill Lightfoot) فـــي مذكراتـــه «أنَّ كثيرًا من زعماء العشائر الزُّنوج قد اعتنقوا الإسلام».[2]

تدعونا هذه المعلومات إلى القول بأنَّ هناك حلقةً مفقـــودةً في تاريخ المدِّ الإســـلاميِّ في الجنوب الأفريقيِّ، ينبغي الكشف عنها؛ لمعرفة أسباب توقُّف هذا المدِّ قرابة قرن كامل.

وعلى كلٍّ، فإنَّ الدراســـات الحديثة تُجمع على تنامي الإســـلام في مجتمعـــات الجنوب الأفريقـــيِّ، ببُعدها الشَّـــعبي القبائليِّ خاصَّةً، ومما يستأنس به في هذا المقام، نموذج قبائل فاريمبا فـــي زيمبابوي وجنوب أفريقيا، وقبائل ناماكُوَا (Namaqua) في ناميبيا الحاليَّة.

١ - قبائل فاريمبا (VaRemba).

تتكوَّن قبائل الفاريمبا (وتسمَّى أيضًا فامْوينْي VaMwenyi)، من تفرُّعات قَبليَّة عدَّة هي: فادُومبا (VaDumba)، فاتونْغا (VaTonga)، فانْياكافي (VaNyakavi)، وفاساريري (VaSariri). وتقطُن المناطق المتاخمة لمرتفعات نيانْغا (Nyanga) فـــي جمهوريَّة زيمبابوي، وتمتـــدُّ مناطقها حتى (Soutpansberg) جمهوريَّـــة جنـــوب أفريقيا الحاليَّة.

وكما ســـبق تحت فقرة: (ثانياً: الدِّراسات الأنثربولوجيَّـــة)، فإنَّ هـــذه القبيلة من القبائل التي أطلق عليها بعـــض الباحثين صفة «قبائل أفريقيَّة مسلمة»، تمثِّل حالةً فريدةً بين القبائل في العُمق الأفريقـــيِّ بادِّعاؤهـــا الانتماء إلى أصول عربيَّة، تقول الرِّوايات المحليَّة إنَّ جدَّهم كان عربيًّا، تزوَّج امرأةً من الشُّـــونا (Shona)، واســـتقرَّ بين الأفارقـــة، وكان ذلك في عصر ازدهار مملكـــة مونوموتابا (Monomotapa/ Munhumutapa). وقد ذهب بعض الباحثين إلى التَّشكيك في ذلك، غير أنَّ آخرين يؤكِّدون الأصل العربـــيَّ لهذه القبائل. يقـــول الباحث بوســـلت (Posselt): «إذا حكمنا على الملامح الجســـديَّة لهؤلاء المحلِّيين، فـــإنَّ فيهم -بلا شـــكٍّ- دماءً ســـاميَّة، ولم يكن ذلك إلا نتيجة احتكاكهم القديم بالتُّجار العرب الذين استقرُّوا في المناطق السَّـــاحليَّة، ثـــم توغَّلوا بعيدًا في القـــارَّة».[3] وعلى كلٍّ، فـــإنَّ الفاريمبا تعد أهمَّ حاضـــن وناقل للإســـلام في عمـــق زيمبابوي الحاليَّـــة، ويتميَّـــزون بتبنِّـــي أســـماء عربيَّة، ومن زعمائهـــا المعاصرين الشـــيخ آدم ماكُدا (Makda)، أول مؤسِّـــس لجماعـــة دعويَّة في زيمبابـــوي الحاليَّة منذ السَّـــبعينيَّات الماضية المملكة العربية السعودية.

وإلى جانب دور قبائل الفاريمبا في نشـــر الإســـلام في زيمبابـــوي، كان هنـــاك حضورٌ ملموسٌ لمســـلمي ملاوي منـــذ عام (١٨٩٠م)، الذين قدمـــوا إليها لأعمـــال الزِّراعة ومناجم الذَّهـــب، وكذلك للهنـــود المســـلمين. وقدتم تأسِّـــيس مجلس وطنيٌّ لأئمَّة زيمبابوي في عام (١٩٧٥م).[4]

(1) E. M. Wherry, Islam and Missions, (READ BOOKS, 2007), p15.

(2) Robert Shell, op. cit. p276.

(3) Pathisa Nyathi. Zimbabwe›s cultural heritage, (African Books Collective, 2005), p95.

(4) David Westerlund, Ingvar Svanberg, Islam Outside the Arab world, (Palgrave Macmillan, 1999), p114.

٢ - قبائل ناماكُوَا.

يرجع انتشار الإسلام في ناميبيا إلى قبائل ناماكُوَا، حيث لم يُسجَّل حضورٌ إسلاميٌّ ملموسٌ للإسلام فيها قبل أواخر التِّسعينيَّات الماضية، إلاَّ بعد اعتناق أحد السِّياسيِّين البارزين من الناماكُوا الإسلام، وهو السَّيد جاكوبس سلمان دامير في مؤتمر إسلاميٍّ بلوسوتو. وقد أحدث إسلامُ هذا الشَّخص حركةً دعويَّة نشطة ونموًّا مطَّردًا للمسلمين المحلِّيين في ناميبيا، خاصَّة بين أبناء قبيلته، وهي إحدى القبائل الثَّلاث عشرة في ناميبيا. وكالعادة، فإنَّ النسبة الحقيقيَّة للمسلمين في ناميبيا غير متَّفق عليها، فالإحصاءات الرَّسميَّة ترفعها إلى سبعين ألفاً، ويحدِّدها بعض المسلمين بعشرين ألفًا من مجموع ٢ مليون نسمة بالبلاد، وغير ذلك.[١] ولكنَّ هذه الأعداد جميعها، لها أهميَّة معتبرة في ظلِّ حداثة الإسلام بهذا البلد، باعتبار أن هذا المكان محطَّة بين الجنوب الأفريقيِّ، وبين الوسط الأفريقيِّ وغربيِّها على السَّواء.

■ المدُّ الإسلاميُّ في دُوَل أخرى في الجنوب الأفريقي:

لم يتم تناول المدِّ الإسلامي في هذه الدِّراسة، على حسب الدُّول القطريَّة؛ لأنَّ التوزيع الدِّيموغرافي للقبائل لا يعترف بالحدود السياسيَّة، ولكنْ، -إكمالاً للصُّورة الكليَّة للمدِّ الإسلاميِّ بهذه المنطقة- لم يكن بدٌّ من تناوُل بعض الدُّول القُطريَّة الحديثة.

أوَّلا: بُتسوانا (Botswana).

لقد تقدَّم في فقرة: زيمبابوي الكبرى، أنَّ المدَّ الإسلاميَّ قد وصل إلى منطقة (Makgadikgadi) منذ القرن الرَّابع عشر الميلاديِّ، وهي منطقة داخل بتسوانا الحاليَّة، أمَّا في العصر الحديث، فيرجع المدُّ الإسلاميُّ في بتسوانا إلى العمَّال الهنود في مناجم الذَّهب منذ أواخر القرن التَّاسع عشر (١٨٩٠م)، لكنَّهم كانوا مثل المسلمين في رأس الرَّجاء قابعين تحت القمع الاستعماريِّ.

وفي أواسط القرن الماضي، ظهر الإسلامُ بقوَّة مع تنشيط أعمال المناجم، وتوافُد العُمَّال من ملاوي إليها، ومن دُوَل أفريقيا الغربيَّة، ويشير باحثون في دراسة منشورة (منذ عام ١٩٩٦م)، إلى أنَّ الإسلام في تنام مطَّرد في بتسوانا.[٢] وهذا ما أكَّدته دراسة أخرى ظهرت في عام(٢٠٠٦م) وفيها ذهب ديمبو إلى «أنَّ الإسلام يكسب أعدادًا كبيرةً من الأتباع، على الرُّغم من تأخُّر ظهوره في هذا البلد»، وعلَّل ذلك بتوافُق الإسلام مع أسُس المجتمع البطريركيِّ (النظام الأبوي) للأسرة في بوتسوانا».[٣]

ثانيًا: سوازيلاند (Swaziland).

بدأ الظُّهور الملموس للمسلمين في مملكة سوازيلاند، في حدود عام (١٩٦٣م)، وكان ذلك نتيجة تمازُج المحلِّيين بعُمَّال المناجم الملاويِّين المسلمين، كذلك كان للمسلمين الهنود من جنوب أفريقيا أثرٌ ملموس في المدِّ الإسلاميِّ في هذا البلد، وهو -مثل ليسوتو- دُوَيْلَة (صغيرة جدًّا) داخل جنوب أفريقيا (عدد سكانها مليون نسمة، ومساحتها ١٧ كلم٢). هذا، وقد اعتُرف بالإسلام دينًا في هذه الدَّولة، من قِبَل ملكها عام (١٩٧٢م)، وكان بناءُ أوَّل معهد إسلاميٍّ بمدينة (Ezulwini)، عام (١٩٨١م)، وبها مؤسَّسات إسلاميَّة أخرى، تأثَّرت في

(١) See: Rodrick Mukumbira, "Islam in Namibia. Making an Impact", http://newsgroups.derkeiler.com/ on: Sun, 4 Jun 2006.

(٢) See: Jeff Ramsay, Barry Morton, Fred Morton, Historical Dictionary of Botswana, (Scarecrow Press, ١٩٩٦).

(٣) James Raymond Denbow, Phenyo C. Thebe, Culture and customs of Botswana, (Greenwood Publishing Group), ٢٠٠٦, p٣٩.

تأسيسها وفي أنشطتها بالمدِّ الإسلاميِّ من جنوب أفريقيا.[1]

ثالثًا: ليسوتو (Lesotho).

لا يُعرف الكثير عن الإسلام في مملكة ليسوتو الحديثة، ولكنْ لكونها بلداً صغيرًا جدًّا (٣٠ كلم٢، وعدد سكَّانه ٢ مليون نسمة)، ووقوعها داخل جمهوريَّة جنوب أفريقيا، فإنَّ ظروفها لا تختلف كثيرًا عن ظروف جنوب أفريقيا.

وعلى ذلك، يُذكر أنَّ أوَّل من أسَّس مسجداً في ليسوتو، هو الشَّيخ صوفي صاحب (ت١٩١٠)، وكان ذلك في أواخر القرن التَّاسع عشر. ولعلَّ ما اشتُهر به هذا التَّاجر الدَّاعية من أعمالٍ اجتماعيَّة، أدَّى إلى نشوء مجتمع إسلاميٍّ من المحليِّين السُّود بمدينة (Butha Buthe). والطَّريف أنَّ هذه المجموعة من السُّود يتحدَّثون لغة هنديَّة، وليس لدينا تفسيرٌ لهذه الظَّاهرة إلاَّ شدَّة تمسُّك أولئك بالإسلام، واعتبار لغة شيخهم (الهنديَّة) هي لغة الإسلام، وبالتَّالي، تركوا لغتهم القبَليَّة لصالح اللُّغة الدِّينيَّة.[2]

وبعد، فإنَّ استعراض المدِّ الإسلاميِّ في هذه الدُّوَل، وفي تلك القبائل الموغلة في العمق الأفريقيِّ، الذي وقع منذ قرون عدَّة، يؤكِّد لنا عدَّة حقائق، منها:

- ❖ – أنَّ الإسلام قد امتدَّ في الجنوب الأفريقيِّ، واخترق القارَّة من المحيط الهنديِّ إلى الأطلسيِّ في ناميبيا شمالاً، وفي رأس الرَّجاء جنوبًا.
- ❖ – أنَّ المدَّ الإسلاميَّ في هذه المنطقة وفي سائر مناطق أفريقيا قد واكبُ التِّجارة، وسائر الأنشطة الإنمائيَّة. وفي الجنوب الأفريقيِّ، تركَّز ذلك في أعمال مناجم الذَّهب.
- ❖ – أنَّ التَّفاعُل كان نشطًا بين قبائل المنطقة وشعوبها في نشر الإسلام. فكلُّ قبيلة تُسلم، تنقل الإسلام إلى من يليها، وهكذا دَوالَيك.
- ❖ – أنَّ المدَّ الإسلاميَّ –قديمًا وحديثًا– في ازديادٍ وتوسُّع، رغم ضآلة الجهود الدَّعويَّة في الوقت الرَّاهن، وما ذلك إلاَّ نتيجة الانقياد السَّهل والسَّلس للشُّعوب الأفريقيَّة إلى الإسلام لسماحته وبساطته وموافقته فطرة الإنسان.

■ الحضور الإسلاميُّ في رأس الرَّجاء وفي جنوب أفريقيا:

يُرجع المؤرِّخون الوجود الإسلاميَّ الأوَّل برأس الرَّجاء (كيبْ تاوْن) إلى عام (١٦٥٢م)، حين أقامت الشَّركة الهولنديَّة في الهند الشَّرقيَّة (DEIC) – التي كانت تستحوذ على التِّجارة في المحيط الهندي– مستوطنةً في رأس الرَّجاء؛ لتكون محطَّة للاستراحة ولتموين السُّفن التِّجاريَّة، وذلك بعد حروب ضروس، واجتياح للسَّلطنات الإسلامية الواقعة آنذاك في هذا المحيط.

وكذلك ووجه الهولنديُّون والبرتغاليُّون بمقاومة عنيفة في رأس الرَّجاء منذ اكتشاف هذه النُّقطة للعبور إلى آسيا، ولمواجهة تلك الثَّورات المحليَّة، يُذكر أنَّ القبطان (Jan Van Riebeeck) استقدم مجموعة من مسلمي (Mardyckers)، من أمبويا (Amboya) عام (١٦٥٨م)، وسُجِّلوا بالرَّأس بوصفهم «عبيدًا» مهمَّتهم حماية المستوطنة الهولنديَّة الجديدة من الثُّوار المحلِّيين. غير أنَّ أولئك «العبيد» المسلمين، لم يُعرف عنهم الكثير، ولا عن مدى

1) David Westerlund, Islam Outside the Arab world, op. cit. p114.

2) Ibid, p115.

تأثيرهم الدِّيني في المستوطنة الحديثة كيبْ تاوْن.[1]

إن بُعد هذه المنطقة عن الهند وعن الجزر الأندونيسيَّة، وأرخبيل الملايو، واختلاف سكَّانها عن الآسيويِّين، جعلها مكانًا مناسبًا ليتَّخذها المستعمر منفًى للثُّوار ضدَّ الهيمنة الاستعماريَّة في تلك المناطق، وبعض المناطق في غرب أفريقيا، وقد كان معظم أولئك المنفيِّين من علماء المسلمين، ومن الأئمَّة وقادة الجيوش والسلاطين. ومن أوائل مشاهير المشايخ والزُّعماء المنفيِّين إلى رأس الرَّجاء: السلطان عبد الرحمن متاهي شاه من سلاطين سومطرة، والشَّيخ عبد الله (van Batavia)، والشيخ سعيد العلوي (Aloewie van Mokka, ١٧٤٤)، والشَّيخ حاجي ماتارم (١٧٤٤)، والشيخ مدورا (١٧٥٤)، والشيخ توان السيد (حوالي ١٧٦٠)، والشيخ (Agmat Prins van Ternate, ١٧٦٦)، والجنا عبد الله (١٧٦٦)، وإمام عبد الله (١٧٨٠)، وإمام نور (١٧٨٠)، وإمام بدر الدين (Imam Patrodien, ١٧٨٠).

وعلى الرُّغم من النَّجاح الآني الذي حقَّقته تلك السِّياسة القاسية في الحدِّ من الثَّورات، وقطع نفوذ أولئك المنفيِّين في شعوبهم، فإنَّ الكيان الاستعماريَّ، بغير وعي منه، كان قد جعل من نفسه سببا لغرس بذرة الإسلام، ونشر الدَّعوة الإسلاميَّة في جميع البقاع التي نفى إليها الزُّعماء المسلمين.

■ المسلمون الهنود:

إلى جانب الحضور الإسلاميِّ في رأس الرَّجاء، كان هناك حضور آخر في أقصى الشَّرق من جنوب أفريقيا؛ حيث استقدم البريطانيُّون مجموعاتٍ من الهنود للعمل في حقول قصب السُّكر في كوازلو-ناتالْ، وفي ترانسفالْ شماليَّ أفريقيا الجنوبيَّة.

بعد إلغاء الرِّق (عام ١٨٣٨م)، عبر الرحلات البحريَّة التي روَّجت لها بريطانيا تحت مسمَّى «المسافرون الأحرار» (Free Travelers) التي بلغ تعداد الأيدي العاملة فيها حوالي (١٧٦,٠٠٠ شخص)، وكان معظم أولئك من المسلمين.[2] ومن مشاهير الهنود الوافدين، الشَّيخ محمد إبراهيم صوفي، المشهور بـ«صوفي صاحب» (Soofie Saheb)، وقد وصل مدينة دوربانْ عام (١٨٩٦م)، وإليه يُعزى بناء جلِّ المساجد الأولى بتلك المنطقة، وبناء حضانات ومدارس للأيتام، ومشاريع اجتماعيَّة تكافليَّة كثيرة. ويُعزى إليه الظُّهور الأوَّل للإسلام في ليسوتو كما سبق.

■ المسلمون الزِّنجبار:

كان حضور العبيد المحرَّرين من الزنجبار بشكل جماعيٍّ إلى بورتْ ناتالْ، عام (١٨٧٣م)، وتتابعت أفواجهم حتى عام (١٨٨٠م)، وكان يُطلق عليهم «زنجباريُّون»، ويُصنَّفون عرقيًّا في السِّجلات الرَّسميَّة بوصفهم «آسيويِّين آخرين» (Other Asians)، علمًا بأنَّهم كانوا من أصول مختلفة: عرب، وتنزانيين، وزنجباريين، وموزامبيق، وملاويين، وقمريين، وملجاش (مدغشقر). وتعدُّ تلك المجموعات أواخر المستقدمين.

يتبيَّن من خلال هذا الاستعراض أنَّ النُّزوح الإسلاميَّ إلى ما يُعرف الآن بجمهوريَّة جنوب أفريقيا، كان عمليَّة ممتدة في الزَّمان والمكان؛ حيث استمرت حوالي قرنَين ونصف (١٦٥٢-١٨٨٠م)، وامتدَّت جغرافيًّا من أبعد نقطة

(1 Tayob, Abdulkader. Islamic Resurgence in South Africa, (Juta and Company Limited, 1995), p40.

(2 P. M. Holt Ann & K. S. Lambton Bernard. The Cambridge History of Islam, (Cambridge University Press, 1995) p404-405.

غربيَّ البلاد (رأس الرَّجاء) إلى أبعد نقطة في شرقيِّها (بورتْ ناتالْ)، جامعة أجناسًا كثيرة من المسلمين من أقصى غرب أفريقيا إلى أقصى شرق آسيا.

وعلى الرُّغم من الظُّروف المماثلة للمسلمين في جنوب أفريقيا، فإنَّ المسلمين برأس الرَّجاء، الذين يُشار إليهم بـ«ملايو الرَّأس» (Cape Malays)، كان نصيبهم من الاضطهاد -مع الأسف- أوفَر، وتاريخهم مع النِّضال، والصِّراع من أجل البقاء أطولَ من غيرهم، وقد طوَّروا -بناءً على ذلك- استراتيجيَّات اجتماعيَّة كثيرة، تناسبُ تلك التَّحدِّيات التي واجهوها. وهذا ما يتمُّ الوقوف على بعض جوانبه في الفقرات التالية.

■ شخصيَّات وقادة إسلاميون أوائل في رأس الرَّجاء:

في الفقرات الآتية استعراض لسِيَر بعض القادة والمنفيِّين السِّياسيِّين، وما قاموا به من جهودٍ دعويَّة برأس الرَّجاء، وتكوين للمجتمع المسلم الجديد بها.

(١) راجا (سلطان) تامبورا.

هو عبد البصير سلطان تامبورا في الجاوة. نُفي هذا السُّلطان إلى رأس الرَّجاء وسُجن بسجن (Castle)، عام (١٦٩٧م)، ومن أهمِّ أعمال راجا تامبورا نسخه للمصحف كاملاً عن ظهر قلب، وكان لذلك دلالة قويَّة، وتأثير ملموس في المجتمع، خاصَّة إذا استحضرنا ظرف القمع والعداء الدِّيني من لَدُن المستعمر الذي كان يستهدفُ -في المقام الأوَّل- قطع المسلمين عن كلِّ مصدر ديني، ويحظر على المنفيِّين حمل كُتبهم، أو استصحاب بعض تلاميذهم أو أتباعهم الرَّاغبين في اللِّحاق بهم في المنفى.

(٢) تُوان سعيد العلوي.

كان الشَّيخ توان سعيد العلوي من العلماء اليمنيِّين، نُفي من أرض الجاوة إلى رأس الرَّجاء عام (١٧٤٤م) مع رفيقه حاجي ماتارِمْ. سُجن الاثنان مع غيرهما بجزيرة روبنْ الشَّهيرة (Robben)، وقضى الشيخ توان بها إحدى عشرة سنة في عزلة تامَّة، وبعد الإفراج عنه، عمل بالشُّرطة، وقيل إنَّه وظَّف منصبه ذلك خير توظيف؛ فكان يحمل الطَّعام إلى السُّجناء والعبيد، ويُكثِّف دعوته بينهم، ويقصدهم في ضاحيتهم في دعوة سريَّة استقطبت الكثير من المحليِّين السُّجناء والعبيد من مختلف العرقيات.

(٣) الشَّيخ تُوانْ غُورو (ت١٨٠٧).

هو الشَّيخ الإمام عبد الله بن القاضي عبد السلام، المشهور بـ«تُوانْ غورو» أي (السَّيد الأستاذ)، من الأمراء الأشراف في الجاوة. كان نفيه عام (١٧٨٠م) إلى جزيرة روبنْ أيضًا. له كتاب «معرفة الإيمان والإسلام» بالعربيّة والملايويَّة. ألّفه في السجن، واستهدف به تعليم المجتمع المسلم أحكام الإسلام الأساسيَّة، وقضايا العقيدة والإيمان العامَّة، وقد ظلَّ هذا الكتاب لمدَّة قرنَين مرجعيَّة مهمَّة في جنوب أفريقيا. بل تجاوزتْ شهرته إلى المسلمين في جنوب شرق آسيا، وشبه القارَّة الهنديَّة.

ويرجع الفضل إلى الشَّيخ توان غورو في تأسيس المدرسة الأولى برأس الرَّجاء إثر الإفراج عنه عام (١٧٩٣) بعد ثلاث عشرة سنة من الحبس، وبلغ عدد أطفال العبيد بها (٣٧٥طفلاً)، وحين رفض طلبُه في بناء مسجد، كان ردُّه بإقامة أوَّل جمعة في العراء في رأس الرَّجاء. وقد مثلت تلك الخطوة نقلة نوعيَّة في الخروج بالإسلام من طور السِّريَّة المطلقة إلى الجهريَّة، وإلى عهدٍ جديدٍ من الدَّعوة

الإســـلاميَّة ببعدها المجتمعيّ المنظَّم، وبذلك استحقَّ الشَّيخ توان غورو بجدارة لقب «مهندس الإســـلام في جنوب أفريقيا» الذي أطلقه عليه أكثر من مؤرِّخ.[1]

وبعـــد، فـــإنَّ ما يمكـــن اســـتخلاصُه من اســـتعراض حياة هؤلاء الزُّعمـــاء الأوائل، أنَّ الإسلام قد أفاد كثيرًا من خبراتهم، وشخصيَّاتهم القياديَّة، في إرســـاء البنيـــة التَّحتيَّة للمجتمع المســـلم في الجنوب الأفريقي، فكرًا وتطبيقًا، وبفضل شخصيَّات أولئك القادة الفذَّة، والرؤى القيادية والحركيَّة (الجهادية)، التي تميَّزوا بها، قبل مجيئهم إلى مســـتوطنة الرَّجاء، فإنَّ العمل الإســـلاميَّ، قد وفَّر على نفسه حُقبًا زمنيَّة من الخطأ والمحاولة، وبـــدتْ بواكير ثمار الجهود منذ الجيل الأوَّل من المسلمين برأس الرَّجاء.

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ هؤلاء القادة الأوائل قد ضحوا تضحياتٍ كبيرة، في ســـبيل الدَّعوة الإســـلاميَّة، مـــن ذلك إصرارهم علـــى البقاء بالمســـتوطنة بعد الإفراج عنهـــم، على الرُّغم من حرص المستعمر –ثانية– على رحيلهم عن المستوطنة، وكان هذا الخيارُ واضحاً كما صرَّح بـــه الباحث كيري واردْ، بنـــاءً على رؤية دعويَّة لدى أولئك المشـــايخ.[2] فضحُّوا بنشوة العودة إلى مسقط الرَّأس، من أجل الإسلام.

ومـــن الجدير بالذِّكر في هـــذا المقام، أنَّ سجن جزيرة روبنْ الذي ذاع صيته –على غرار غوانتانامو– كان المســـلمون الأوائـــل، أوَّلَ مَن دشَّنوه بأعمارهم، وبالسَّنوات الطِّوال فيه، وكان أحفادهم –من بعدهم– فـــي الصُّفوف الأوَّل، لكســـر بوَّابات هذا السِّجن وسلاسله في فترة حكم التَّمييز العنصري.

1) The Archeology of Islam, p375.

2) Kerry Ward. Network of Empire Networks of Empire: Forced Migration in the Dutch East India Company (Cambridge University Press, 2008), p209.

■ المسلمون في جنوب أفريقيا في ظل الاستعمار:

فـــي ظـــلِّ الإرث العدائيِّ للإســـلام لدى المســـتعمرين البرتغاليِّين والهولنديِّين، لم يكن يُتوقَّع أن تكون مستوطنة الرَّجاء الصَّالح مناسبةً للمسلمين الأوائل، بل كانت ابتلاءً لهم في ثباتهم وصبرهم على القمع وأعمال السخرة، وانتهاك الحريَّات.

بـــدأ الحظر على الإســـلام وعلـــى جميع مظاهره منذ أن وطئت أقدام السُّـــجناء الأوائل أرض مســـتوطنة الرَّجاء، فالمشـــايخ والأمراء المنفيُّون أطلق عليهم في ســـجلَّات السُّـــجون (bandieten) أي «مجرمـــون»، واســـتُحدثت قوانين تجرِّم كلَّ نشـــاطٍ علنيٍّ لشعائر الإسلام فقد أصدر المســـتعمر مرسومًا صارمًا يحظر أيَّ ممارســـة علنيَّة لشـــعائر الإسلام، وحددت عقوبة الشَّـــنق لمن يخالف هـــذا القانون، ثم أُكِّـــد هذا القانون بمراســـيم أخرى في العقود اللاَّحقـــة بالنصِّ علـــى عقوبة الشَّـــنق،[3] أو مصادرة ممتلكات كلِّ من يقوم بنشـــاط دعويٍّ بيـــن المحليِّين أو بيـــن المســـيحيِّين، وكانت تهمة «مبشِّـــر محمَّدي» (Mahometaanese priesters)، من أكبر التُّهم بالمستوطنة.

من أبشـــع الأحكام بهذا الصَّدد ما نفذ في عام (١٧١٢م) على داعية مســـلم جاويٍّ؛ حيث قُطع لسانُه،

و أُحـــرق حيًّا، عقابًا له على «تبشـــيره بين الكفرة وعلى فعلته الجهنميَّة».[4]

لقد ظل هـــذا القانون ســـاريًا طوال قرن ونصف، حتى أُلغـــي في عام (١٨٠٤م) مع بقاء قيودٍ أخـــرى مثل ضرورة الحصـــول على إذن

3) Selim Argun, The life and contribution of the Osmanli Scholar, Abu Bakar Afendi, 2000, p. 4.

4) Robert Shell, "Between Christ and Mohammed...", in: Richard Elphick T. R. Davenport, Christianity in South Africa, (James Currey Publishers, 1997), p269.

رسمي لبناء المساجد، والمدارس، وإقامة التَّجمُّعات.

بالإضافة إلى ذلك، قام المستعمر في خلال قرن ونصف بإجراءات وسياسات كثيرة، من أجل قطع الطَّريق أمام أيِّ ظهور إسلاميٍّ، أو تأثير للمسلمين في رأس الرَّجاء وفي جنوب أفريقيا، مثل: فتح الباب على مصراعَيه للحركات التَّنصيريَّة، وتشجيع هجرات المسيحيِّين إلى المستوطنة. وفي الفقرات الآتية وقوفٌ عند بعض تلك الإجراءات ونتائجها.

أوَّلاً: سياسة الهجرات الجماعيَّة المسيحيَّة إلى رأس الرَّجاء:

على الرُّغم من الحظر المفروض على الإسلام وعلى جميع مظاهره، فإنَّ الإسلام قد ظلَّ في تنام مستمر، خاصَّةً بين العبيد، الأمر الذي أزعجَ المستعمر في رأس الرجاء؛ فأصدر مراسيم عدَّة (عام ١٧٦٧م، ١٧٨٨م، ١٧٩٢م) – عُمِّمت على شركات النخاسة –، بإيقاف تهجير العبيد من الملايو إلى رأس الرَّجاء.[١] وحتى تكتمل حلقات هذه السِّياسة الهادفة إلى تغليب المسيحيَّة على الإسلام، شجَّع المستعمرون الهجرات الأوربيَّة الجماعيَّة إلى المستوطنة، حتى بلغت نسبة المسيحيِّين الوافدين إلى المستوطنة عام (١٨٢٩م) ٢٧٪ من إجماليِّ عدد المستوطنين، بينما لم تتجاوز نسبة ذلك لدى المسلمين واحدًا في المائة، ولكن بالرغم من هذه السياسة فإن نسبة المسلمين المئويَّة من مجموع السُّكان بلغت (٥٧,٦٧٪).[٢]

ثانيًا: إنشاء إرساليَّة خاصَّة لتنصير المسلمين.

كان إنشاء إرساليَّة خاصَّة لتنصير «العبيد» المسلمين إيغالاً من المستعمر في طمس الوجود الإسلاميِّ برأس الرجاء، وعرفت تلك الإرساليَّة باسم: (The Anglican Mission to Moslems)، إلا أن تلك الإرساليَّة مُنيت بفشل مستمر طول قرن ونصف؛ لذلك حين نجح الأبُ بيك (Henricus Beck)، في تنصير «رجل مسلم»، وجَّهت إليه الإدارة الاستعماريَّة خطاب تقدير خاص بهذا «الإنجاز».[٣]

في مقابل ذلك، كان اعتناق الإسلام بين العبيد يتزايد، على الرُّغم من الحظر المفروض على الدَّعوة. ففي عام (١٨٢٩م) مثلاً، لاحظ المسؤول آنذاك عن تلك الإرساليَّة الأب ويليام إليوت أنَّ «نصف ملاحئ العبيد البالغة ثلاثة وثمانين في المستوطنة، هم محمديون».[٤] فكان إخفاق هذه الإرساليَّة مزدوَجًا؛ إذ لم تفلح في تنصير المسلمين، ولم تفلح كذلك في الحدِّ من إقبال العبيد على الإسلام.

ثالثًا: مسخ الهويَّات.

من الإجراءات التي رافقت محاولات تنصير المسلمين طمس هويَّاتهم، وإجبار المسلمين على تبنِّي أسماء برتغالية أو هولنديَّة، أو مسخ أسمائهم القديمة وتهجيها بطريقة تبعدها عن أصولها الإسلاميَّة، وهذا الأثر واضح في أسماء معظم المسلمين بجنوب أفريقيا إلى اليوم، فالاسم أحمد مثلاً يُكتب ويُقرأ عندهم (Agmat)، وبدر الدين (Patrodien)، وعبدالحميد (Abdolgamiet)، بالإضافة إلى أسماء كثيرة هي أسماء هولنديَّة خالصة؛ لذلك لا عجب إذا تمسَّك المسلمون بشدَّة في جنوب أفريقيا حتى الآن بالعقيقة، وشاعت بينهم أسماء مشاهير المسلمين في عصر الصَّحوة بعد الخروج عن ربقة التَّفرقة العنصريَّة،

(1) Bradlow, p20, in Shell, p42.

(2) Ebrahim Mahomed, Mahida. History of Muslims in South Africa: A Chronology, (SA: Arabic Study Circle, 1993).

(3) Richard Elphick, T. R. H. Davenport. Christianity in South Africa: a Political, Social, and Cultural History, (James Currey Publishers, 1997), p268.

(4) Robert Shell, op. cit. p269.

ولكنا نلاحظ أن كثيرًا من الأسماء الممسوخة -خاصَّة أسماء العوائل- قد استمرت عبر الأجيال، وأصبح من الصَّعب التَّخلي عنها.

والحاصل، أنَّ جميع هذه السِّياسات والإجراءات عادتْ على المستعمر بالخيبة والفشل الذَّريع، واعترف كثيرٌ من السِّياسيِّين ورجال الدِّين المنصِّرين بهذا الفشل.

■ نجاحٌ دعويٌّ في رأس الرَّجاء:

على الرُّغم من أنواع الاضطهاد وسياسات القمع المشار إليها، فإنَّ النَّجاح الدَّعوي الأوَّل الذي يمكن تسجيله للمسلمين، لم يكن في احتفاظ هؤلاء المبعَديين المنقطعين عن أصولهم بعقيدتهم وثقافتهم الإسلاميَّة فحسب، ولكنَّه كان في كسب أتباع جُدد كُثر من العبيد والمحليِّين على السَّواء. فبينما بدأ الإسلام في رأس الرَّجاء ببضعة عبيد ومساجين من الملايو في أوَّل سفينة رست في رأس الرَّجاء عام (١٦٥٢م)، بلغ عددهم ثلاثة آلاف مسلم في (عام١٨٢٢م) أي بعد قرن ونصف تقريباً، وفي أواخر القرن التاسع عشرالميلادي (١٨٩١م) بلغ تعدادهم (١١,٢٨٧) شخصًا، وتلك أرقامٌ لا يُستهانُ بها في ظلِّ الكثافة السُّكانيَّة آنذاك برأس الرَّجاء، وفي ظلِّ ما كان قائمًا من الحظر على الإسلام بأبشع وسائل القمع.

لم يأت هذا النَّجاح من فراغ، وإنَّما كان - بعد توفيق الله - نتيجة وسائل وأسباب دعويَّة هادفة تبنَّاها الدُّعاة الأوائل، تحلَّوا فيها بحسٍّ اجتماعيٍّ مرهف نحو المجتمع الجديد، وتوسَّعت رعايتهم لاستقطاب العبيد غير المسلمين، بإيوائهم وتقديم الملاذ المعنويِّ والماديِّ لهم، وحمايتهم من أسيادهم الظَّلمة، وعقد الزِّيجات بينهم، واتباع جنائزهم، واهتمام المشايخ الزُّعماء بتعليم أطفال العبيد المحرَّرين مبادئ القراءة والكتابة، وغير ذلك من الحقوق التي حرمهم الكيان الاستعماري منها، وأحجمت الكنيسة بدَورها عن توفيرها لهم. بل إنَّ كثيرًا من العبيد، تقلَّدوا مراكز الإمامة والزِّعامة في المجتمع المسلم الجديد برأس الرَّجاء، فالشيخ أحمد بنْغَلين مثلاً، كان من تلامذة الشيخ تُوانْ غورو. تقلَّد القضاء والإمامة بالمستوطنة.

وفي أواخر القرن الثَّامن عشر برزت طبقة وسطى من التُّجار المسلمين في رأس الرجاء، وضربت أروَع المثل في الرِّعاية الاجتماعيَّة، وخاصة في تحرير العبيد، - مسلمين وغير مسلمين -، وقد شهد بذلك أكثر المؤرِّخين، يقول أحد المبشرين في هذا الصَّدد: «ولست أدري أيوجد بين الملايو قانونٌ يُلزمهم بتحرير العبيد... يجب الاعتراف للملايو، أنَّهم في مواقف كثيرة، خلال البيوع العلنيَّة، يشترون العبيد المسنِّين، والضَّعفة، بصرف النَّظر عن دياناتهم، ثم يحرِّرونهم».[1] وممَّا يدعو إلى التَّأمُّل أنَّ أوَّل مسجد برأس الرَّجاء (عام ١٧٩٨م) بُني على أرض وهبتها امرأةٌ من الإماء المحرَّرات، واسمها (viz Saartjie van de Kaap). وتوفيت عام (١٨٤٧م).[2]

في مقابل ذلك يورد المؤرِّخون نموذجًا طريفًا لشخص من السُّود، يُدعى مارت (Maart van Mosambiek) وكان من ألمع العبيد ثقافةً، وأشدِّهم إخلاصًا في العمل التَّبصيريِّ بين المحليِّين بجمعية لندن التَّبشيرية (London Missionary Society)، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يشفع له بأن يحظى بمجرَّد التَّعميد في الكنيسة، أو التَّحرر من العبوديَّة حتى وفاته.[3] ومنها أيضًا أنَّ

(1 36-Robert Shell, p271, and Davids, 1991, p32

(2 Madeleine, Barnard. Cape Town Stories, (Struik, 2007), p58-65.

(3 Robert Shell, p271. Karel, Schoeman. The Early Mission

عدد العبيد المسيحيِّين بلغ قرابة ألفين في أواخر عام (٢٤مكن المعمَّدين منهم كانوا (٨٦) شخصاً فقط، وسبب ذلك -كما أوضحه الباحث (Bigge) أنَّ المستعمرين والمستوطنين، بما فيهم الكنيسة، كانوا ضدَّ «أيِّ إجراء يفضي إلى تضييق الفجوة بين الأسياد البيض وبين العبيد».[1]

إذنْ، لم يكن إسلام العبيد - في الواقع - إلاَّ نتيجة طبيعيَّة للرُّوح الأخويَّة والمعاملة الإنسانيَّة التي حفاهم بها المسلمون، ولم يكن هذا خاصًّا بالعبيد الذين وُصِفوا بأنَّهم «لا دين لهم»، وإنَّما شمل ذلك العبيد الذين كانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحيَّة، فكانوا سرعان ما ينبذونها حالَ تحريرهم؛ ليعتنقوا الإسلام، وليصبحوا دعاةً أوفياء إليه.

■ إسهاماتٌ حضاريَّة إسلاميَّة في جنوب أفريقيا:

لقد أسفرت الخبرة الإسلاميَّة في تاريخ الوجود الإسلاميِّ في جنوب أفريقيا، الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف، عن إسهاماتٍ حضاريَّة كثيرة في مختلف المجالات، يدينُ المجتمع الأفريقيُّ اليوم بها للمسلمين، من ذلك:

أوَّلا: في المجال الثَّقافي العلمي.

بحكم الإرث الثَّقافي للملايو في كتابة لغتهم بالحروف العربيَّة؛ فإنَّ العلماء والدُّعاة الأوائل لم يجدوا أيَّ إشكالٍ في متابعة التَّواصُل العلمي بالرُّموز العربيَّة، واعتمادها في كتابة الورقات والمنشورات القصيرة التي كان يكتبها المشايخ السُّجناء بالعربيَّة الجاويَّة، و«يهرِّبونها» إلى العامَّة.

ونظرًا للتَّعدد اللُّغويِّ للعبيد في رأس الرَّجاء؛ فإنَّ اللُّغة الدَّارجة بينهم أصبحت بمرور الزَّمن خليطاً من الهولنديَّة واللُّغة المحليَّة (الخوي-خوي)، وقليل من مختلف اللُّغات، وقد أخضع المشايخ هذا الشَّتات اللُّغوي الجديد للكتابة بحروف عربيَّة، فظهر ما يعرف بـ «الأفريكانْس»، وهو إنجاز لا يُستهان به من النَّاحية الحضاريَّة اللُّغويَّة، وقد طُبعت نصوص تعليميَّة ودعويَّة بهذه اللُّغة الجديدة عام (١٨٥٦م)، في حين لم يكن المستعمرون أنفسهم

يعتبرون هذه اللُّغة جديرةً بالتَّداول على مستوى علميٍّ، ولكنَّ وضع رموزٍ كتابيَّة لها على أيدي المسلمين كان إيذاناً بفترة جديدةٍ من الرُّقي اللُّغويِّ، ونشوء لغةٍ جديدةٍ، تعدُّ اليوم من اللُّغات العالميَّة المتداولة.

إن ما يفاجئ الباحثين في التُّراث الإسلاميِّ في جنوب أفريقيا، هو وفرة الكتب الإسلاميَّة المكتوبة بالعربيَّة الأفريكانيَّة، (بصرف النَّظر عن المنشورات العربيَّة الجاويَّة المذكورة)، وقد أحصَى بعض الدَّارسين المؤلَّفات القديمة التي وضعها العلماء الملايو فبلغت (٧٤) مؤلَّفًا، في قائمة أوليَّة فيما بين عام (١٨٥٦م)، وعام (١٩٥٧م).[2] وكان استهلال هذا النَّشاط التَّأليفيِّ بكتاب:

- «هداية الإسلام»، ويُذكر أنَّه أوَّل مؤلَّف بالعربية الأفريكانيَّة عام (١٨٤٥م).ومن المؤلَّفات الشَّهيرة كذلك:[3]
- - كتاب: «تحفة العوام في أصول الإيمان

(1) John, Edwin Mason, Social death and resurrection: slavery and emancipation in South Africa, (University of Virginia Press, 2003), p183.-184.in South Africa, (Indian: Protea Book House, 2005), p57

(2) See: Muhammed Haron. "The Making, Preservation and Study of South African Ajami Mss and Texts", Sudanic Africa, (12), 2001, 1.-14

(3) See: Gerald, Stell. "From Kitab-Hollandesch to Kitaab-Africaans: The Evolution of a non-white Literary variety at the Cape 1856-1950," Stellenbosch Papers in Linguistics Vol. 37, 2007, pp89.-127

وأركان الإسلام» للشَّيخ الإمام عبد القهار بن عبد الملك عام (١٨٦٨م)،

- وكتاب: «بيان الدين»، لأبي بكر أفندي، وهو في أصول المذهب الحنفي، نشر عام (١٨٧٧م) بالقسطنطينيَّة،
- وكتاب (Boek van Tougeed) أي: «كتاب التوحيد»، للإمام عبد الله بن عبد الرؤوف، عام (١٨٩٠م).
- وكتاب «سراج الإيضاح» في قواعد الإسلام والعبادات على المذهب الحنفي، مؤلِّفه الإمام هشام نعمة الله أفندي، عام (١٨٩٤م)، وله أيضًا كتاب: «هذا علم الحلِّ للصبيان»، وهو في الفقه التَّعليميِّ في أسس العبادات والزَّكاة.
- ومن الكتب المهمَّة في هذه القائمة كتاب «الرِّياض البديعة في أصول الدين وبعض الفروع الشَّرعيَّة» عام (١٨٩٩م)، وموضوعه ظاهرٌ من عنوانه، للشَّيخ عبد الرقيب بن عبد القهار، وهو مترجمُ كتاب: «سفينة النَّجاة» للشيخ سالم بن سمير الحضرمي، ترجمه إلى العربية الأفريكانيَّة.
- من الكتب أيضًا كتاب: «مطالعات لتدريس تلاميذ مدرسة الحبيبيَّة»، وهو كتاب تعليميٌّ تربوي في توجيه النَّاشئة إلى الأخلاق الإسلاميَّة، ومؤلِّفه الشيخ الإمام عبد الرَّحمن بن قاسم جميل الدين، عام (١٩٠٧م)، وله أيضًا كتاب: «ترتيب الصَّلاة».

ومن أهمِّ التَّرجمات إلى اللُّغة العربيَّة الأفريكانيَّة، كتاب: «المقدمة الحضرميَّة» للشيخ عبد الله بن الشَّيخ عبد الرَّحمن بافضل الحضرمي، وهو في فقه العبادات، ترجمة الشَّيخ إسماعيل حنيف، وللشَّيخ الحضرمي أكثر من عشرين كتابًا، طُبع معظمُها في القاهرة والهند.

هذا، وقد تداوَل المسلمون في المنفى الأفريقيِّ تلك المؤلَّفات فيما بينهم، وكان لهم تمسُّكٌ شديدٌ بها، خاصَّة في الحقَب الأولى، وكان بُعدُهم عن الموطن الأصليِّ، وندرة المخطوطات آنذاك، وقلَّة القادرين على النَّسخ، كلُّ ذلك كان سببًا لتمسُّكهم الشَّديد بتلك المخطوطات، وإضفاء شبه قدسيَّة عليها. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا النَّشاط التَّأليفي قد بدأ مباشرةً مع رفع الحظر الشَّديد عن الإسلام في أواسط القرن التَّاسع عشر الميلادي، واستمرَّ قوياً حتى أوائل القرن العشرين، حيث دخل في فترة ركود. (بحسب النَّماذج المتوفَّرة بين أيدينا).[1] وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه النَّماذج، هي ما كتبَ باللُّغة العربيَّة الأفريكانيَّة فحسب، وفي رأس الرَّجاء بالذَّات. أمَّا المؤلَّفات الإسلاميَّة باللُّغات الأخرى كالأرديَّة مثلاً، -كتبها الهنود - فلا شكَّ أنَّها كثيرة.

ثانيًا: في المجال التَّعليمي (حركة التَّعليم الإسلامي)

جاء تطوُّر الحركة التَّعليميَّة طبيعيًّا بدءً بالحلقات المنزليَّة «الدَّارات»، فالحلقات في المساجد، فالمدارس الحديثة. وهنا استعراضٌ لبعض تلك الأنماط:

٣ - حركة تحفيظ القرآن الكريم.

تعدُّ حركة تحفيظ القرآن الكريم أول حركة التزم بها عامة المسلمين في جنوب أفريقيا، ولا يخفى ما في هذا الالتزام بحفظ كتاب الله تعالى من قوَّة تكوينيَّة للمجتمع في تثبيت

(1) Heinrich Matthée. Muslim identities and political strategies: A case study of Muslims in the greater Kassel) ,2000-Cape Town area of South Africa, 1994 .96-University press GmbH, 2008), p95

العقيدة والثَّقافة الإسلاميَّة. كانت حلقات حفظ القرآن تُعقد في بيوت المشايخ للرَّاشدين وللصِّغار.[1] ومن المشايخ الرواد في تحفيظ القرآن الكريم: الشَّيخ تُوانْ غورو، والشَّيخ إسماعيل معاوية ماني، وكانا حافظَين للقرآن الكريم. بالإضافة إلى هذين الرَّائدَين ظهرت أسماء كثير من المشايخ حفظة القرآن الكريم الذين تخرَّجوا على أيديهما، منهم: الشيخ محمد صالح عبادي في كيبْ تاوْن، والشَّيخ عبد الرحيم حسن صالح، وكان عالمًا حافظًا شهيرًا في جوهانسبرغ.[2] بالإضافة إلى مشايخ وحفظة مرموقين من أصل هندي.

وأما في العصر الحديث، فإنَّ هذه الحركة قد نحتْ منحى مؤسَّسيًّا أكثر تنظيمًا على أيدي ثلة من المشايخ الحفَّاظ، أمثال: الإمام عبد الملك حمزة في جوهانسبرغ، والإمام إسماعيل طالب في ضاحية بريتوريا، والإمام عبد الحميد مالك الذي افتتح مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم بفريديدُورْب عام (١٩٥٠م)، ومثله فعل الحافظ سليمان ميللر عام (١٩٥٤م)، بافتتاحه مدرسة للتَّحفيظ في جوهانسبرغ. كما شهدت نقلة كميَّة في المدارس الخاصَّة، مثل: مدرسة الشيخ عبد الرَّحيم حسن صالح في فريديدُورْب-جوهانسبرغ، ومدرسة الشيخ عمر زرداد (ت١٩٧٥م)، ومدرسة الإمام إبراهيم أحمد في مسجد رود بورت.[3] ومدرسة الشيخ إسماعيل محمد حسن بمسجد نيوكلير (Newclare)، عام (١٩٧٠م)، ومدرسة الشَّيخ الحافظ عبد الرحمن ميا (١٩١١-٢٠٠٥م).

ومن النَّتائج المباشرة لحركة التَّحفيظ في جنوب أفريقيا، وعلى الأقليَّة الملايويَّة خاصة، أنَّها حافظت على الكيان الإسلاميِّ صلبًا قويًّا، وحقَّقت للأقليَّة المسلمة اكتفاءً ذاتيًّا في «الكوادر» البشريَّة الإسلاميَّة. بل خرجت بجنوب أفريقيا من طور المحليَّة إلى العالميَّة، وتمثَّل ذلك في ابتعاث بعض الأئمَّة وأساتذة تحفيظ القرآن الكريم إلى الدُّول المجاورة، وإلى أمريكا وأوربا وأستراليا.

٤ - التعليم الإسلامي.

جاء تأسيس المدارس الأولى في جنوب أفريقيا، وفي رأس الرَّجاء خاصَّة، متأخِّرًا جدًّا بالنِّسبة للحضور الإسلاميِّ في هذه المنطقة؛ وذلك للحظر الذي كان مفروضًا على نشاط المسلمين، بينما كانت الحرية متاحة للمدارس التنصيرية المدعومة من قِبَل الكيان الاستعماريِّ الهولندي.

وكانت المدرسة الإسلامية الأولى هي مدرسة الشَّيخ توانْ غورو، التي أسَّسها إثر الإفراج عنه من السِّجن عام (١٧٩٣م)، وأنشأ الملايو مدرسة شارع دُورب (Dorp Street Madrasah)، في العام نفسه.

وعلى الرُّغم من هذا التَّأخُّر، وحرية النَّشاط التَّنصيريِّ، فإنَّ المنصرين لم يحقِّقوا نجاحًا يذكر، في حين نجحت المدرسة الإسلامية نجاحًا كبيرًا. يقول الباحث «روبرت شيل»، فإنَّ المدارس الإسلاميَّة الأولى القليلة في رأس الرجاء، التي أنشئت في عصر الرِّق، قد استقطبت الأطفال «الملوَّنين» بعدد يفوق المؤسَّسات التَّعليميَّة المسيحيَّة في مستوطنة رأس الرجاء مجتمعةً. وبلغ تعداد طلبة إحدى تلك المدارس التي أسَّسها أحد الأئمَّة عام (١٨٢٠م)، أكثر من (٣٧٠) طالبًا من الرَّقيق. ومدرسة أخرى للشَّيخ أحمد بنغلين (Achmat van Bengalen, d.١٨٤٣)، لتعليم أبناء السُّود

(1) Davids, Achmat. Afrikaans of the Cape Muslims from 1915-1815 Unpublished M.A. Thesis, University of Natal, D/U, 72.

(2) Da Costa, Yusuf et al, Pages from the Cape Muslim history, Cape Town: Shutter and Shooter, 1994, p. 21

(3) Moegamat A. P. op. cit. p. 35.

المحرَّريـــن والرَّقيـــق «المحمدانيِّين» في كيب تـــاونْ» بلغ تعداد تلاميذها (٤٩١) طالباً، وذلك في عام (١٨٢٥م)،[١] وبحلـــول عـــام (١٨٤٠م) بلغ عدد التَّلاميذ فـــي رأس الرجاء قرابة (٢٤٥١) تلميذاً في بضع مدارس يُشـــرف عليها عشرة من الأئمَّة.[٢]

ومن الإجـــراءات التـــي اتَّخذهـــا الكيان الاستعماريُّ لمحاربة التعليم الإسلامي إلزاميَّة إلحاق جميـــع الأطفال بالمدرســـة التنصيرية الهولنديَّة والإنجليزيَّة، ولم يجد المسلمون بُدًّا مـــن الانصياع لهذا القانـــون الملزم، غير أنَّهم كانوا ينزعون الأطفال من المدرسة حين يبلغون العاشـــرة.. «إنَّهم يرسلون الأطفال (المسلمين) الصِّغار إلى المدرســـة الهولنديَّة والإنجليزيَّة، ويبدي أولئك تفوُّقاً وذكاءً ملحوظاً، ولكنَّهم في ســـن العاشرة، يُســـحبون للالتحاق بمدارسهم الملايويَّة الخاصَّة، وفيها يدرســـون حتى سن الخامسة عشر».[٣]

ناشد المسلمون بريطانيا عام (١٨٥٥م) لدعم نشـــاطهم التعليميِّ بتوفير دعاة ومعلِّمين أسوةً بغيرهم، وبوصفهم مـــن دافعي الضَّرائب؛ فكان إرســـال العالم الكردي أبي بكر أفندي إلى رأس الرَّجاء. والذي قدم جهوداً ملموسة في المجال التَّربويِّ والتَّعليمي، فقام ببناء بضع مدارس من بينها مدرســـة في مدينة كيـــبْ تاوْن، مخصَّصة للبنات في (١٨٧٠م)، وكانت تحت إشراف إحدى زوجاته.[٤] وتلك كانت البداية الحقيقيَّة للمدارس الإسلاميَّة بمفهومها الحديث.

1) Ibid. p.103.
2) See Moegamat A. P. op. cit. p.103.
3) Robert Shell. Madrasahs & Moravians: Muslim Education Institutions in the Cape Colony 1792-1910, New Contree No. 51 (May 2006), University of the West Cape, p.106.
4) See. Moegamat Abdulrahgiem Paulsen, The Malay Community of Gauteng, (MA), 2003,. P. op. cit. p.110

وعلى ســـبيل الإجمـــال، فـــإنَّ المدارس والمؤسَّســـات التَّعليميَّـــة الحديثـــة في جنوب أفريقيـــا اليوم تزيـــد على (٦٠٠) مؤسَّســـة، تشمل المدارس الابتدائيَّة، والثَّانويَّة، والمعاهد الأهليَّـــة، والكليَّـــات المتخصِّصـــة، وأقســـام الدِّراسات الإســـلاميَّة في الجامعات الوطنيَّة والأهليَّـــة، وتُصنَّـــف بعض تلك المؤسَّســـات التَّربويَّة على أنها أفضل المؤسَّسات التَّعليميَّة في جنوب أفريقيا.[٥] بالإضافة إلى ذلك، يحتلُّ الدَّارسون في تلك المؤسَّسات الإسلاميَّة مراكز الصَّدارة في الامتحانـــات الوطنيَّة بالدَّولة.[٦] وتشـــتهر جنـــوب أفريقيا بمنهج تربـــويٍّ قويٍّ خطَّطه تربويُّون مســـلمون، وقـــد اعتمده كثيرٌ من المسلمين في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وفي بريطانيا، وفي دول الجنوب الأفريقيِّ، وفي بنغلاديش وغيرها من الدُّول.

ومـــن المؤسَّســـات التَّربويَّـــة العاليـــة سلســـلة مدارس وكليـــات «دار العلوم»، وتخرِّج المتخصِّصين في الدِّراسات الإسلاميَّة، والأئمَّة الخطباء، والتَّربويِّين. ومنها الكلية الإسلامية في جنوب أفريقيا، وقسم اللُّغة العربيَّة -حديثًا- بجامعـــة «ويســـترنْ كيبْ»، ومؤسَّســـة دار الأرقم الإســـلاميَّة، وتقدم برامج دبلوم عام في الدراســـات الإســـلاميَّة، ودبلوم عالٍ في اللغة العربية، وليسانس في العربية والشريعة.

تجدر الإشـــارة بصورة عامـــة إلى أنَّ اللُّغة العربيَّة قـــد اعتُمدت في المرحلـــة الجامعيَّة بجامعـــة جنوب أفريقيـــا (UNISA)، منذ عام (١٩٥٦م) بوصفها لغة ســـامية، وكذلك بجامعة دوربـــان (UD-W)، في الســـتينيات من القرن الماضي، وفـــي جامعة رأس الرِّجـــاء الغربية

٥) من ذلك مدرسة أزادفيل (Azadville) الإسلاميَّة. وتصنف بأنها أفضل مؤسَّسة تعليميَّة أهليَّة في جنوب أفريقيا.
6) Moulana Ebrahim I. Bham, "Muslims in South Africa", op. cit.

(UWC)، منذ عام (١٩٧٥م)، إلا أن تدريس اللغة العربيَّة في تلك المؤسَّسات لم يحظ بالتَّطوير المأمول في محتواه وفي أساليبه ووسائله مقارنةً باللغات الأخرى. ناهيك عن أنَّ هذه المسيرة كانت بأيدٍ يهوديَّة في ظلِّ غياب أهل العربيَّة.

ثالثاً: في المجال الاقتصادي والاجتماعيِّ والمؤسَّسات المدنيَّة

تعود جذور العمل الخيري وخدمة المجتمع في جنوب أفريقيا إلى الفترات الأولى من دخول الإسلام إلى رأس الرَّجاء، كما سبقت الإشارة إلى بعض صورها لدى المشايخ الأوائل. ويعود النَّجاح الرَّاهن في العمل الخيريِّ المؤسَّسي إلى تلك الجذور الثَّابتة، والخبرات القديمة.

ويشار في هذا الصَّدد إلى أنَّ المساجد الجامعة التي تتجاوز ستمائة مسجد في جنوب أفريقيا تقوم بأدوارٍ اجتماعيَّة، وتربويَّة كثيرة، من رعاية للفقراء، وإيواءٍ للعجزة، وتقديم دروسٍ وبرامج تدريبيَّة مختلفة، وتتقاطع أعمال المساجد بأنشطة المؤسَّسات الخيريَّة الكثيرة، منها على سبيل المثال: جمعيَّة مسلمي جنوب أفريقيا (SMA) التي أنشئت عام ١٩٠٣م، وهي صاحبة السَّبق في إنشاء كثير من المدارس. ومن أكبر المؤسَّسات كذلك: اتِّحاد التُّجار ورجال الأعمال المسلمين (AMMTA)، والذي أنشئ عام ١٩٠٦م، واتحاد علماء المسلمين في جنوب أفريقيا عام ١٩٢٣م

ولا شكَّ أنَّ تلك المؤسَّسات قامت على قواعد متينة من الأسس الاقتصادية؛ فقد تميَّز المسلمون في جنوب أفريقيا منذ فترة الرِّق بالانخراط النَّشط في المجالات الاقتصاديَّة، بدءً بالمشايخ السُّجناء المنفيِّين؛ إذ كان معظمهم –بعد الإفراج عنهم– أصحاب أملاك وتجارة وظَّفوها في العمل الدَّعويِّ. فعلى سبيل المثال، يذكر أنَّ العدد التَّقريبيَّ للعبيد الذين نالوا حريَّتهم بمستوطنة الرَّجاء عام (١٨٢٠م)، بلغ قرابة ألف وتسعمائة شخص، وكان مجموع ألف وستمائة من أولئك أصحابَ حِرَف وأملاك،[1] أضفْ إلى ذلك أنَّ الهنود الوافدين إلى جنوب أفريقيا بعد عام ١٨٣٨م كان معظمهم تجَّارًا. وقد استمرَّ هذا التَّقليد لدى المسلمين؛ فغدوا أصحاب رؤوس أموال ضخمة في العقارات، والزِّراعة، وصناعة الملابس، وتوكيلات السَّيارات، وغيرها. ومن المؤسَّسات الاقتصاديَّة الخيريَّة: بنك البركة، ومؤسَّسة الأوقاف الوطنيَّة ٢٠٠١م، وشركة التَّكافل ٢٠٠٣م. ومن إيجابيَّات ذلك، عمل الحركات

الإسلاميِّة بهدوء، وبرؤية محلية واقعيَّة بعيداً عن الوصايا الخارجيَّة، والصِّراعات المذهبيَّة وخاصة في العالَم العربيِّ، والتي تجرُّ ذيولها على الحركات والمؤسَّسات الإسلاميَّة في العالَم الإسلاميِّ خارج الوطن العربيِّ.

رابعًا: في المجال السِّياسيِّ ومقاومة المحتل

للمسلمين في جنوب أفريقيا باع طويلة في التَّاريخ السِّياسي والنضال من أجل الحريَّات، بل إنَّ الوجود الإسلاميَّ الأول هناك كان نتيجة صراع المسلمين من أجل تأكيد الحريَّات، وتحرير المستضعفين،كما سبق بيانُه في فقرة ظروف دخول الإسلام إلى رأس الرَّجاء.

أمَّا في العصر الحاضر، فإنَّ فترة النِّضال من أجل الاستقلال قد سجَّلت أسماء الكثير من الرِّجالات من قادة الشَّباب المسلمين، جنباً إلى جنبٍ مع حركات مناهضة الحكم العنصريِّ، وليس

(1) Heinrich Matthée. Muslim identities and Political Strategies: A case Study of Muslims in the Greater Kassel) ,2000-Cape Town area of South Africa, 1994 .University Press, 2008), p71

بوُسع أيِّ مؤرِّخ أن يتناول حركات مناهضة الحكم العنصريِّ، ويؤرِّخ لجنوب أفريقيا دون أن يقف عند قامات سامقة من المسلمين المناضلين أمثال: الإمامِ عبد الله هارون، وأحمد تيمولّ اللَّذين قُتلا على أيدي الجيش العنصريّ.[1] ومنهم: إبراهيم إبراهيم الذي أمضى عشرين سنة بالسِّجن، وأحمد كاثرادا (Kathrada) الذي قضى كذلك عشرين سنة في سجن روبن، وأمثالهم من السِّياسيِّين بحركة الكونغرس الأفريقيِّ الوطني (ANC)، والشيخ مولانا كشاليا (Cachalia)، لقدكانت تضحيات أولئك وأمثالهم جسرًا إلى عصر الحريَّة... بجنوب أفريقيا (١٩٩٤).[2] ولا يزال المسلمون نشطين في العمل السِّياسيِّ، فهناك وزراء مسلمون، ونُوَّاب ومحامون.

خامساً: في المجال الإعلامي

يوجد للمسلمين في جنوب أفريقيا نشاطٌ إعلاميٌّ قويٌّ في النشر الصحفي، وفي نشر الكتب، والمحطَّات الإذاعيَّة المحليَّة، مثل: راديو إسلام، وراديو ٧٨٦، وصوت الكيب (Voice of the Cape)،[3] وغيرها من المؤسَّسات الإعلامية.

ختاماً لهذا الجانب من بيان الإنجازات المتحقَّقة في التَّاريخ الإسلاميِّ في جنوب أفريقيا، نذهب إلى أنَّ الأقليَّة المسلمة في جنوب أفريقيا تُعدُّ اليوم نموذجًا يحتذى لكثير من مثيلاتها من الأقليَّات المسلمة في العالَم بما حقَّقته من نجاحات سياسيَّة واجتماعيَّة، واقتصاديَّة، وغيرها من أوجُه النَّجاحات.

■ تحدياتٌ وفُرصٌ أمام الدَّعوة الإسلاميَّة بجنوب أفريقيا:

هناك جملةٌ من التَّحدِّيات التي تواجه المجتمع المسلم في جنوب أفريقيا، في مختلف مجالات الحياة، وهي كثيرة، وفي الفقرات الآتية بيانٌ لبعضها.

أوَّلاً: تحدِّيات اقتصاديَّة.

على الرُّغم ممَّا تميَّز به مسلمو جنوب أفريقيا من انخراطٍ نشط في المجالات الاستثماريَّة منذ عصر الرِّق، ونجاحهم النِّسبي في التجارة، فإنَّ ثمة تحدِّياتٍ لا تزال تعترض انخراطهم الحقيقيِّ في صلب الجهاز الاستثماري في القطاعات الكبرى بالبلاد، مثل: قطاع المناجم والتَّصنيع. وهذا التَّأخر راجع -في الواقع- إلى السِّياسات العنصريَّة المتعاقبة التي منعت دخول غير المستوطنين البيض في أنشطة استثماريَّة معيَّنة. ومعلومٌ أنَّ هذه السِّياسة قد انتهت وزالت، إلا أن اختراق المسلمين للجهاز الاقتصادي في القطاعات الكبرى لا يزال ضعيفاً؛ حيث إنَّ الشَّركات الكبرى تستحوذ على الفُرص في تلك القطاعات، مع تدنِّي رؤوس الأموال الإسلاميَّة في هذه المجالات.

ثانيًا: تحدِّياتٌ اجتماعيَّة.

لا تكاد التَّحدِّيات الاجتماعيَّة لدى مسلمي جنوب أفريقيا تختلف عنها لدى عامَّة الشَّعب - مسلمين وغير مسلمين -، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى ما تركته سياسة التَّمييز العنصري من ترسُّبات في المجتمع؛ حيث قُسِّم المسلمون قسْرًا -في ظلِّ تلك السِّياسة- إلى تجمُّعات عرقيَّة تعيش في كانتونات وغيتوهات (ghettos)، وعلى الرُّغم من شجب المسلمين جميعاً لهذه السِّياسة، ووعيهم بضرورة الخروج عن تلك الدَّوائر الجائرة التي رسمتها السِّياسة

(1) See for instance: Stephen Ellis, Tsepo Sechaba, Comrades against apartheid: the ANC and the South African Communist Party in exile, (Currey Publishers, 1992), p72.

(2) See: Roger B. Beck. The history of South Africa, ((Greenwood Publishing Group, 2000.

(3) See: David Chidester, Abdulkader Tayob, Wolfram Wei, Religion, politics, and identity in a changing South Africa, (Waxmann Verlag, 2004), p125-.

العنصريَّة، فإنَّ خيوط «العرقيَّات» قد تمكنت بقوة من النَّسيج الاجتماعيِّ، وتكوَّنت أجيالٌ في ظل هذا الواقع، وتعلَّمت في «المدارس العرقيَّة»، فأصبح من الصَّعب الخروج النِّهائي من هذا الواقع، ولكن المغالبة مستمرة للتَّخلُّص من الأفكار والممارسات التي توسِّع الفجوة بين الأعراق المتعدِّدة في مجتمع الجنوب الأفريقيِّ.

وربما يقدر للملايو أن يقوموا بدَوْرٍ ملموس في تحقيق الوئام الاجتماعيِّ؛ لظروف تاريخيَّة في صالحهم، منها أنَّ ما يُطلق عليه «ملايو» هويَّة موسَّعة، تضم أنواعاً من الثَّقافات والأجناس المختلفة من أبناء الرَّقيق المنحدرين من آسيا الشَّرقيَّة، وجنوب شرق آسيا على السَّواء، والموزمبيق، والعرب، والخويّ سانْ، أي أنَّ كلمة «ملايو»

ترادف كلمة «مسلم» غير هندي.[1] إن التَّداخُل العرقيُّ بين الملايو وبين كثير من الأجناس، يجعلهم في موضع جيِّدٍ لتحقيق الانسجام بين الجميع. هذا بخلاف الهنود – مثلاً– الذين لم يتمتَّعوا –في الغالب– برؤية إيجابيَّة لدى السُّود؛ لكونهم –في نظر أولئك– مستغلِّين مثل البيض المستعمرين.[2] وقد أضرَّ ذلك في فتراتٍ كثيرة بالدَّعوة،[3] وبرؤية السُّود إلى الإسلام على أنَّه «دينٌ استعباديّ»، أو «دينُ الهنود العنصريِّين».[4]

■ الأفارقة السُّود فرصة دعويَّة:

من الفرص الدَّعويَّة في جنوب أفريقيا اليوم، إقبال الأفارقة السُّود من قبائل الزُّولو، والخوسا، وغيرهم على الإسلام، ولم يتسنَّ لنا الاطِّلاع على إحصائيَّة حديثة ودقيقة عن نسبة المسلمين السُّود فيها، غير أنَّ دراسة عام٢٠٠١م تشير إلى أنَّ عددهم بلغ قرابة (٧٤,٧٠١) نسمة.[5] وقد عدَّت حقبة الثمانينيَّات والتِّسعينيَّات من القرن الماضي، فترةً نشطة في إقبال السُّود المطَّرد على الإسلام، غير أن ذلك لم يكن –مع الأسف– ناتجاً عن نشاطٍ دعويٍّ حقيقيٍّ داخل البلاد، وإنَّما عن ظروف أخرى غير مباشرة، مثل نزوح كثير من الشَّباب إلى موزمبيق وملاوي فرارًا من الحكم العنصريِّ، و هناك اعتنقوا الإسلام.[6] ولا شكَّ أنَّ إسلامُ بعض الأفارقة السُّود، وهم يمثِّلون نسبة (٧٥٪) من مجموع السُّكان، يمثِّل كسبًا دعويًا استراتيجيًّا، يرفع من شأن المسلمين من حيث العَدد والعُدد. وهناك بعض المقالات والتَّقارير التي تؤكِّد تزايُد إقبال الأفارقة السُّود على الإسلام، خاصَّة في صُويتُو وغيرها؛ لما وجدوا فيه من قيم نبيلة، وحلولٍ للمشكلات الاجتماعيَّة من إجرام، ومخدرات، وفقر، ومرض الإيدز، وعنصريَّة وتمييز بين الأعراق والأجناس.. وغير ذلك من المشكلات.[7]

■ خلاصة

بهذا العرض لتاريخ الإسلام والمسلمين بالجنوب الأفريقيِّ، والتَّركيز على جمهوريَّة جنوب أفريقيا، باعتبارها النَّواة الحقيقة للإسلام بهذه المنطقة، نجد أنَّ حالة المسلمين بهذه المنطقة، تؤكِّد لنا حقيقةً اجتماعيَّة ثابتة،

(1) Muhammed Haron. "Conflict of Identities: The Case of South Africa's of Cape Malays", paper presented at the 14-Malay World Conference, K.L, 12 Oct., 2000.

(2) Multiple Communities, p.4 quoted from. Vawda, 1993: p49.

(3) Heinrich Matthée. Muslim identities, op. cit, p105.

(4) Yusuf Ahmed, "South African Muslims, Is Apartheid›s Spirit Alive?" On: March 16, 2006, www.islamonline.net

(5) See: Muhammed Haron, Islamic Culture Amongst the Ngun People, (Dept. of Arabic Studies, Unv. Of Eastern Cape, SA, 1998).

(6) Multiple Communities? Muslims in Post-Apartheid" South Africa", p4.

(7) See for instance: http://www.csmonitor.com/2002/0110/p13s1-woaf.html

وهي عدمُ وجود ارتباط عضويٍّ ضروري مباشر بين وضع الأقليَّة وبين الواقع الدِّيموغرافي (الديناميات المتعلقة بحقوق السكان) بمعنى أنَّ الكثرة أو القلَّة، لا تقوم عاملاً ضروريًّا لاعتبار مجموعة عرقيَّة أو دينيَّة معيَّنة أقليَّة أو أكثريَّة، وإنَّما يحكم ذلك قوَّة العُدَد، ودرجة التَّنظيم الاجتماعيِّ التي حقَّقتها المجموعة في ظرف تاريخيٍّ محدَّد من وجودها. ولعلَّ مصداق ذلك قول ذي العزَّة والجلال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. (البقرة:٢٤٩). ومن الأمثلة القريبة في ذلك، أنَّ ما كان يعتبر أقليَّةً في فترة الحكم العنصريِّ في جنوب أفريقيا، أي (الزُّنوج) كانوا يمثِّلون قرابة ٨٠٪ من مجموع السُّكان، ولكنَّهم –على الرُّغم من ذلك– كانوا يعدُّون أقليَّة مضطهدة.[1] فالمسلمون في جنوب أفريقيا خاصَّة، وإنْ كانوا لا يتجاوزون كثيرًا نسبة٢٪ من مجموع السكان، فإنَّهم أقليَّة معتَبرة، لها وزنها وقوتها في المجتمع، وما ذلك إلاَّ – بتوفيق من الله – ثمَّ صبر على المكاره، وعمل دؤوب. ولعلَّ التَّهديد الشَّرس للوجود الإسلاميِّ بجنوب أفريقيا منذ أنْ حلَّ بها المسلمون هو ما أرهف حساسيَّتهم لمواجهة هذا التَّحدي، والتعامل بحنكة مع معادلات صعبة، كالتَّوازن بين الاندماج وبين عدم الذَّوَبان في الأكثريَّة، وحتى يبقى هذا البناء الإسلاميُّ – الذي بناه السَّابقون – صامداً، فلا بدَّ من العناية به، والدعوة إليه. ولا شكَّ أنَّ الفُرص للمسلمين في الجنوب الأفريقيِّ متاحة، وأكبر تلك الفرص مرونة شعوب المنطقة – إنْ لم نَقلْ القارَّة– وتقبلهم للإسلام، وتجنيد أنفسهم لخدمته والدَّعوة إليه. هذا، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) Odd-Bjørn Fure. "How to Integrate Minority Narratives into National Memory?" HL-senteret - EPHE, Sorbonne, Oslo, May 2008. p. 3.

اللغة العربية في النيجر

بين الماضي والحاضر وتطلعات المستقبل

د .علي يعقوب

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

■ النيجر والعهد بالإسلام:

إن النيجر التي تغطي مساحتها ١,٢٦٧,٠٠٠كم مربع، وبكثافة سكانية تقرب من ١١ مليون نسمة تعتبر من الدول التي وصلها الإسلام في وقت مبكر جداً، منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، على يد التابعي الجليل عقبة بن نافع الفهري عام ٤٦هـ الموافق ٦٦٦م، حيث توغل في الصحراء الكبرى بعد فتحه لمنطقة فزّان في ليبيا ثم تابع فتوحاته الإسلامية نحو الجنوب حتى وصل إلى منطقة كوار (KAWAR) الواقعة في الطرف الشمالي الشرقي للنيجر وهي تحمل نفس الاسم حتى اليوم في محافظة بِلْمَا (BILMA) بمنطقة أغاديس، ففتحها ودخل أهلها في الإسلام، ثم رجع إلى عدامس[1]. كان ذلك أول عهد بلاد النيجر بالإسلام.

ويرى بعض الباحثين أن النيجر عرفت الإسلام عن طريق التجار العرب الذين كانوا يفدون إليها من شمال أفريقيا للتجارة والدعوة، وقدكانت للعرب علاقات تجارية مع سكان المنطقة قبل ظهور الإسلام، واستقرت بعض القبائل العربية في المنطقة، وخاصة منطقة آيير (AIR)، وكان لهذين الأمرين إسهام فعال في نشر الإسلام فيما بعد .وهناك من يرى أن الإسلام إنما دخل المنطقة عن طريق فتح المرابطين للمنطقة في عام ٤٦٠هـ ١٠٧٦م بعد إسقاطهم لمملكة غانة شبه الوثنية، وهو رأي يحتاج إلى مناقشة؛ لوجود أدلة تثبت وجود الإسلام في المنطقة قبل فتح المرابطين، ومنه ما ذكره البكري[2] عن عاصمة غانة كومبي

١) انظر فتوحات مصر والمغرب لابن عد الحكم. ط٥. ١٩٥٥م. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة ص٢٢٢.

٢) أبو عبيد البكري. المعرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. ص ١٧٥.

صالح: « ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي سكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة وفيها اثنا عشر مسجداً أحدها تقام فيه الجمعة، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم ....، وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك».

وأضاف البكري أيضاً: «فأهل التكرور اليوم مسلمون... أسلموا على يدي وارجابي بن رابيس الذي أسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وتوفي وارجابي سنة ٤٣٢هـ[١]. هذا الرأي كذلك غير مقبول؛ فليس يعقل أن يدخل الإسلام في الجزء الشرقي من المنطقة منذ القرن الأول الهجري ولا يصل إلى غربها إلا في القرن الخامس الهجري، مع أن التجار المسلمين كانوا يجوبون المنطقة للتجارة والدعوة. يمكن القول أن الإسلام كان موجوداً قبل فتح المرابطين، ولكنه لم يزدهر ولم تقم له دولة إلا بعد فتح المرابطين الذين أسقطوا دولة غانة التي كانت تحت حكام غير مسلمين، وأقاموا على أنقاضها دولة مالي الإسلامية التي حكمت بعض أجزاء من غرب النيجر، ثم مملكة سنغي التي وصلت إلى أغاديس وكانز.

وبدخول الإسلام إلى النيجر وانتشاره المبكر دخلت اللغة العربية البلاد وأخذت في الانتشار.

■ ماضي اللغة العربية وحاضرها في النيجر:

أولاً : ماضي اللغة العربية في النيجر:

نقصد بالماضي الفترة من قيام دولة مالي الإسلامية وحتى دخول الاستعمار الفرنسي البلاد ووجوده إلى عام ١٩٥٧م، حين تم افتتاح المدرسة العربية النظامية الأولى في مدينة ساي. وسوف نتطرق بإيجاز شديد للدولة التي شملت أجزاء من النيجر في أوج توسعها، وذكر العلماء ومراكز العلم فيها، ثم عهد الاستعمار وأهم المراكز فيه والعلماء آنذاك.

دولة مالي الإسلامية (غرب النيجر):

قامت دولة مالي الإسلامية عام ٦٣٨هـ ١٢٤٠م، وضمت أجزاءً من غرب النيجر، وخاصة في عهد سلطانها موسى كنكن الذي قام بجهود كبيرة في خدمة الدعوة ونشر العلم، من ذلك : استقدامه بعض العلماء معه بعد رحلة قام بها للحج مثل الشيخ إبراهيم الساحلي والقاضي عبد الرحمن التميمي والشيخ عبد الله البلبالي، وجلبه كتباً كثيرة من الحرمين ومصر. لقد نمت وازدهرت في عهد السلطان موسى الثقافة العربية والإسلامية، واشتهرت بعض المدن بوصفها مراكز للعلم، مثل: نياني العاصمة وتنبكت وجني وغاو. وتوافد على هذه المدن العلماء وطلاب العلم من داخل المملكة وخارجها، كماكان السلاطين يبتعثون الطلاب إلى مراكز الشمال الإفريقي والمغرب للدراسة، وقد بعث السلطان موسى كنكن بكاتبه إلى فاس بالمغرب للدراسة[٢]، وبعد رجوعه أسند إليه إمامة الجامع الكبير بمدينة تنبكت، وظل إمامه أربعين سنة. كانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتعامل التجاري ودواوين الدولة، غير أن العامة كانوا يتحدثون باللغات المحلية، وكان الآباء يهتمون بتعليم أبنائهم القرآن اهتماماً بالغا [٣].

اهتم سلاطين مالي بنشر الإسلام ولغته وأسسوا مراكز كثيرة للتعليم مثل: أغاديس (AGADEZ) وتغيدا (TIGEDDA) في النيجر

١) المصدر السابق.

٢) انظر تاريخ السودان للسعدي، ص ٥١.

٣) انظر رحلة بن بطوطة ص ٧٩٠.

وانْدُنْغا (INDOUNGA) التي كان أسكيا محمد يرسل إليها التلاميذ لحفظ القرآن الكريم، وقد اشتهرت الدولة بعلماء كبار في مجال العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية، وصلتنا مؤلفات بعضهم مثل: الشيخ أحمد بابا العالم المشهور، ومن مؤلفاته: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وهو كتاب مهم جداً في تراجم علماء المنطقة وعلماء شمال إفريقيا والمغرب وملامح الحياة الاجتماعية والعلمية في المنطقة، ومنهم محمود كعت صاحب (تاريخ الفتاش)، وكان معاصراً لأسكيا محمد توري وصاحبه في رحلته إلى الحج، وكتابه مرجع مهم في تاريخ المنطقة في عهد إمبراطورية سنغي، والشيخ عبد الرحمن السعدي صاحب (تاريخ السودان)، والشيخ أحمد بعغيغ الذي يلقب بشيخ الإسلام.

وممن وفد إلى سنغي في عهد أسكيا محمد:

- الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي استفتاه أسكيا محمد في عدة مسائل دينية وسياسية، وقد قام الشيخ محمد عبد الكريم بجهود كبيرة في تأسيس المدارس القرآنية في مدينة تغيدا.
- الشيخ العاقب بن عبد الله التغداوي الأغدسي، وله مؤلفات عدة، منها: كتاب: (أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير)، ويقصد بالأمير (أسكيا محمد)، وهي أجوبة عن أسئلة وجهها له الأمير وهو ما يدل على مكانته العلمية، وله كتاب: (وجوب الجمعة بقرية أنو سمان) في قرى تغديا ؛ حيث أنكر بعض الناس إقامة الجمعة في قريته لقلة سكانها فألف الرسالة في الرد عليهم[1].
- الشيخ شمس الدين بن النجيب التجداوي الأنوسماني، وقد وصفه الشيخ أحمد بابا بقوله :» أحد شيوخ عصره معه فقه وصلاح شرح مختصر خليل بشرحين: كبير في أربعة أسفار، وصغير في سفرين، وله أيضاً تعليق على المعجزات الكبرى للسيوطي»[2]، وقد استقر الشيخ شمس الدين في أغاديس إلى أن توفي فيها.

دولة البرنو الإسلامية (شرق النيجر):

شهد شرق النيجر قيام دولة البرنو الإسلامية التي كانت تضم منطقة زندر وما جاورها، ومن علمائها: الشيخ أحمد بن فرتو المعاصر للماي إدريس ألوما أشهر مايات الدولة ٦٩٩/٧١٧هـ، وتعتبر مؤلفات الشيخ أحمد من المراجع الأساسية لتاريخ برنو، وخاصة فترة إدريس ألوما، ومنهم الشيخ عمر بن عثمان العالم واسع الاطلاع، وكان متقناً لعلوم اللغة العربية والبلاغة والشريعة والتوحيد فضلاً عن القرآن والحديث[3].

كانت مدارس القرآن الكريم والحلقات العلمية منتشرة في مملكة البرنو، وهذا ما لفت نظر بعض الرحالة الأوروبيين في عاصمة البرنو كَوكَو حيث قال: « ونالت كوكه المدرسة العليا الممتازة، ويدرس فيها قرابة مائتين إلى ثلاثمائة من الشباب»[4].

عندما قامت خلافة الشيخ عثمان بن فوديو في المنطقة في القرن التاسع عشر الميلادي، أولت اللغة العربية وآدبها والعلوم الشرعية اهتماماً كبيراً ساعد على ازدهارها وانتشارها،

---

١) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا، ص ٣٤٨ بهامش الديباج المذهب.

٢) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص ٣٤٨.

٣) إمبراطورية البرنو الإسلامية لإبراهيم طرخان، ص ١٧٧.

٤) رحلة عبر إفريقيا، رولفس ترجمة عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين، ط ٩٦، ص ٤٥٠.

بصورة لم تشهدها في الدولة الإسلامية السابقة؛ وذلك لأن الدولة في خلافة صكتو أسسها العلماء وكان هدفهم إصلاح العادات والتقاليد المخالفة للإسلام في منطقة إمارات الهوسا؛ فلذلك اهتم علماؤها بالتأليف أكثر من غيرهم، واهتموا باللغة العربية فتعلموها وأتقنوها غاية الإتقان حتى ظهر منهم الأدباء والخطباء والشعراء، ومن أحسن ما يمكن أن يستشهد به المرء من أشعارهم القيمة جيمية الشيخ عبد الله بن فوديو في مدح شيخه جبريل بن عمر الأغدسي مؤسس الحركة الإصلاحية في المنطقة والذي يلقب بشيخ الإسلام في السودان الغربي، وهو أستاذ للشيخ عثمان بن فوديو وأخيه عبد الله، درسا عليه في مدينة أغاديس، وتوفي في منطقة تاوا بعدما أخرجه الطوارق من أغاديس لأفكاره الإصلاحية رحمه الله تعالى، والقصيدة على نهج القدماء استهلها بالبكاء على الأطلال والتصريح، ثم انتقل إلى مدح شيخه جبريل ومنه :

جبريل من جبر الإله به لنا
دينا حنيفا مستقيم المنهج[1]
وافى وحزب ضلالة في تلعة
والدين في وهد كشيء بهرج
فأزاح عنه حنادس الأعلاج من
عاداتهم وكساه حلة زبرج
لم يخش في إظهار دين الله من
مستهزئ أو لائم متمجمج

وللشيخ عبد الله بن فوديو مؤلفات أخرى في الصرف والنحو والبلاغة والتفسير.

كانت صكتو (SOKOTO) العاصمة، وكانو (KANO)، وزندر (ZINDER)، وغيرها من المدن مراكز علم يقصدها طلاب العلم من أرجاء المنطقة.

١) انظر تزيين الورقات ص ٩.

إمارات وسلطنات شمال النيجر :

في شمال النيجر قامت عدة إمارات وسلطنات طوارقية وعربية، وكانت لها إسهامات أدبية ولغوية. ومن علمائها المشهورين : الشيخ جبريل بن عمر الذي سبق ذكره، والشيخ حَدَاحِدَا، الذي قام بحركة إصلاحية في منطقة أزواغ (AZAWAG)، وكان متشدداً في الأمور.

كما كان لقبيلة كنتة العربية دور هام في حفظ اللغة العربية دراسة وتدريساً في شمال تاوا ومالي، ومن أشهر علمائها: الشيخ سيدي المختار الكبير، وابنه محمد، والشيخ باي بن سيدي عمر الكنتي، وغيرهم، وقد تركوا لنا مؤلفات عدة في العلوم الشرعية واللغوية. وظلت العلاقات الثقافية تربط علماء المنطقة بحكام صكتو، وكانت بينهم مراسلات علمية كثيرة.

■ فترة الاستعمار:

بدأ الاستعمار الفرنسي لبلاد النيجر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت مقدَّمَته البعثات الاستكشافية الأوربية للمنطقة بذريعة استكشاف منبع نهر النيجر ومصبه، مثل: بعثة مغو بارك، وبعثة كلابرتون وبارث، ولقد زادت نتائج هذه البعثات الاستكشافية من مطامع الحكومات الأوربية في المنطقة؛ فنظمت حملات عسكرية لاحتلال البلاد، وتمكنت بعد معارك عدة وإراقة دماء كثيرة بين الجانبين من السيطرة على البلاد كاملة عام ١٩١٩م.

وجد الاستعمار أن اللغة العربية هي لغة التعامل والثقافة، الأمر الذي اضطره إلى استعمالها في بداية سيطرته على البلاد، وذلك في المراسلات وعقد الاتفاقيات بين السلطات المحلية وسلطات الاستعمار[2].

٢) انظر: على يعقوب. اللغة العربية وآدابها في النيجر في عهد الاستعمار. اطروحة الدكتوراه ٢٠٠٥م ص ١٨.

كانت بعض مدن النيجر تمثل مراكز لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية في البلاد كما تقدم، مثل: مدينة ساي، وزندر، وأغاديس، ومنطقة أزواغ وآير، وسيندر في عهد الشيخ يوسف خليل؛ وقد برز في تلك المدن علماء كثيرون، مثل: الشيخ حسن سليمان في زندر، وباي الكنتي في أزواغ. ولما هيمن الاستعمار على البلاد كان للعربية والتعليم شيوع في المجتمع؛ حيث بلغ عدد المدارس القرآنية في النيجر سنة ١٩١٤م حوالي ٩٣٢ مدرسة، وبلغ عدد التلاميذ ٤٢١٣ تلميذاً، وفي سنة ١٩٢٠ بلغ عدد المدارس ٩٧٠ مدرسة، وعدد التلاميذ ٤٣٢١ تلميذاً (٣٩)[١]. أخذ الاستعمار يعمل على محاربة اللغة العربية بحجة أنها من أسباب عرقلة حكام المناطق من الفرنسيين، وقد أشار إلى ذلك حاكم عام فرنسا بإفريقيا الغربية (١٩٠٨ ١٩١١م) وليام بونتي في المرسوم الذي أصدره يوم ١٩١١/٥/٨م، وهو موجه إلى حكام المستعمرات التابعة له كالنيجر والسنغال: «لقد أثار انتباهي ما يحدث من عراقيل بسبب استعمال اللغة العربية الذي يمكن أن يقال: إنه منتظم في تحرير الأحكام الصادرة عن القضاء الأهلي، وفي المراسلات الرسمية مع الرؤساء والأعيان، وفي كل ظروف الحياة الإدارية تقريباً .. وهي اللغة المقدسة في نظر السود»[٢]. وانطلاقاً من هذه الفكرة كثفت السلطات الاستعمارية جهودها في مكافحة اللغة العربية في النيجر وفي غيرها من المستعمرات الفرنسية ذات الأغلبية الإسلامية في غرب إفريقية، واستخدمت لذلك عدة وسائل منها:

١ - فرض قيود صارمة على استيراد الكتب العربية من البلدان الإسلامية، ومنها منع الحجاج من جلب الكتب الدينية والعربية معهم عند رجوعهم من الحج.

٢ - منع افتتاح المدارس العربية إلا بعد الحصول على إذن من السلطات، مع التشديد في شروط الحصول عليه.

٣ - إحصاء كتب العلماء بغرض حصرها وفرض الرقابة عليها، مثل ما فعلوا مع الشيخين: حسن سليمان، وأحمد كيار في مدينة زندر[٣].

٤ - حصر المدارس القرآنية ومدرسيها في طول البلاد وعرضها.

إن هذه السياسات والإجراءات التي اتبعها المستعمر لمحاربة اللغة العربية والقضاء عليها في النيجر لم توهن عزائم علماء العربية وطلابها في النيجر وغيرها، بل زادتهم حرصاً على المحافظة على الإسلام ولغته.

■ مقررات الحلقات العلمية في العلوم الإسلامية والعربية :

يجدر بنا أن نذكر بعض الكتب المقررة في الحلقات العلمية في النيجر في تلك الفترة، وهي التي كانت مقررة من قبل، ولا تزال تدرس حتى اليوم في الحلقات.

مقررات العلوم الشرعية :

في العلوم الشرعية كانوا يبدأون بمتون الفقه المالكي؛ إذ هو المذهب السائد في المنطقة فيبدأون بمتن الأخضري، ثم العشماوي، ثم العزية، ثم الرسالة، ثم العسكر، فرسالة مختصر خليل. هذا في مجال النثر. وفي المنظومات الفقهيةكانوا يبدأون بمنظومة القرطبي، ثم ابن عاشر، ثم ابن رشد، ثم مصباح

١) ((عبد العلي الودغيري اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء:الماضي والحاضر والمستقبل .http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Langue_arabe/p22.php

٢) عبد العلي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب ص ٢ـ ١٩٩٣م، ص ٧٩.

٣) انظر بول مارتي، الإسلام والقبائل في مستعمرة النيجر ص ٣٥٣.

السالك، ثم تحفة الأحكام. كما كانوا يدرسون إلى جانب كتب الفقه كتب الحديث الشريف، وتفسير الجلالين.

مقررات علوم اللغة العربية :

كانت مقررات علوم اللغة العربية تختلف باختلاف مناطق البلاد، فمثلاً نجد المناطق الصحراوية تولي النحو والصرف اهتماماً أكثر من غيرها، فيبدأون في النحو والصرف بملحة الإعراب والآجرومية، وقطر الندى، ثم ينتقلون بعدها إلى ألفية ابن مالك، والكافية الشافية لابن الحاجب، وقد يزيدون جمع الجوامع للسيوطي. أما في الأدب فنجد من الكتب المقررة آنذاك: مقصورة ابن دريد، والعشرينات، والدالية، والشعراء الجاهليين. كما كان للقصائد الجاهلية عندهم منزلة واهتمام كبير، وقد أشار محققها الشيخ مصطفى الشقا في مقدمة تحقيقه إلى أن السبب الرئيسي في تحقيقه لقصائد الشعراء الجاهليين هو رغبة طلاب العلم في إفريقية الغربية أن يخرج لهم طبعة منها، وأرسلوا إليه نسختين منها وذلك في عام ١٩٢٩م، وعلى النسختين تعليقات تشرح بعض الكلمات. وفي مجال النثر الأدبي لا نجد عندهم إلا مقامات الحريري. ثم إنه من الملفت للنظر أن المقررات الأدبية وبخاصة الشعر تكاد تنحصر في الشعر الجاهلي، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نجد لشعر العصور الأدبية المزدهرة وشعرائها وجوداً، مثل: شعراء العصر الأموي،كالفرزدق وجرير، أو العصر العباسي، مثل: على بن الجهم وأبي تمام والبحتري وغيرهم، ولعل السبب في ذلك عدم وصول أشعارهم إليهم. وفي البلاغة التي كانت تدرس في بعض الحلقات الشمالية، نجد عندهم: عقود الجمان للسيوطي، والجوهر المكنون للأخضري.

وأما علماء تلك الفترة فقد كانوا على قسمين:

القسم الأول: العلماء الذين درَّسوا قبل مجيء الاستعمار، واستمر بعضهم في التدريس في فترة الاستعمار، ومنهم من جاهد بسيفه وقاوم الاستعمار بكل بسالة حتى استشهد كالشيخ شعيب الضرير في منطقة جنوب دوسو الذي قاتل

حتى قتل شهيداً، والشيخ محمد كاوسن ذلك العالم المجاهد الذي اشتهر عند بعض الناس بجهاده، ولم يشتهر جانبه العلمي والديني، فكاوسن كان عالماً قبل أن يكون قائداً للمقاومة، وقد ولد في منطقة دَمَرْغُو، ونشأ فيها ثم رحل إلى شمال تشاد وجنوب ليبيا لطلب العلم، ولازم الشيخ أحمد الشريف السنوسي، والشيخ محمد العابد الذي عينه قائداً لقواته لمواجهة تقدم الفرنسين في شمال تشاد، واستطاع الشيخ كاوسن دحر القوات الفرنسية في معارك عدة، وواصل سيره حتى دخل مدينة أغاديس واستردها من الفرنسيين.

قتل الشيخ محمد كاوسن في ١٩١٩/٠١/١٥م على أيدي بعض خصومه في ليبيا، وترك رسائل عدة باللغة العربية كان قد أرسلها إلى زعماء الطوارق وأسرته يبين لهم هدفه من الجهاد، ويحثهم على الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، وتثبت تلك الرسائل علوكعبه في اللغة العربية والعلوم الشرعية، رحمه الله تعالى[1].

ومنهم الشيخ عثمان بن سميو الفلاتي وهو من الغرب (أي غرب البلاد)، لكنه استقر في منطقة أزواغ بعد عودته من رحلة الحج للتعليم والإصلاح الديني، فكتب إلى سلاطين المنطقة

١) محمد القشاط. من قيادات الجهاد الإفريقي محمد كاوسن. ط١ عام ٢٠٠٠م الرياض. ص ١٤.

عدة رسائل في النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما استولى الفرنسيون على المنطقة في عام ١٩٠٠م هب للجهاد في سبيل الله وشارك في معارك عدة حتى سقط شهيداً في معركة من المعارك عام ١٩٠١م. تولى من بعده ابنه عبد الله بن عثمان مكانه، واستمر في نشاطات أبيه العلمية. ومن العلماء من اكتفى بالعلم والتعليم، كالشيخ يوسف بن خليل سندر في منطقة تيلابيرى والذي تلقى تعليمه في صكتو ثم عاد إلى قريته للتدريس، وكان طلاب العلم يتوافدون عليه من أنحاء المنطقة ومن مالي، وكانت له مكتبة عامرة زاخرة بالكتب، وقد وجد عنده بعض الفرنسيين نسخة من (تاريخ الفتاش)، وأخرى من (السعدي)، وحملها معه إلى باريس للطباعة.

ومن العلماء كذلك الشيخ حسن بن سليمان في مدينة زندر وكان في زمانه بمثابة شيخ الإسلام في منطقة زندر، قال بول مارتي في وصفه: « ...من العلماء الذين يحتلون المرتبة الأولى في مجتمع زندر خاصة والنيجر عامة»[1]، وقد عينته سلطات الاستعمار كاتباً ومترجماً لها في المحكمة، وكانت له حلقة علمية في حي سابُنْ غري في زندر.

ثانياً: العلماء الذين ولدوا أيام الاستعمار أو كانوا صغاراً عند مجيئه فدرسوا في أيامه ودرّسوا، منهم العالم الجليل الشيخ محمد بن محمد الشفيع الذي ولد عام ١٩٠٦م في أزواغ وتعلم عند علمائها وعلماء كنته، وهو عالم متضلع في العلوم الشرعية واللغوية، له مؤلفات عدة ودواوين شعر وهي عند ابن عمه أحمد بن محمد الشفيع المعاصر، وقد توفي ١٩٤٥م. ومنهم الشيخ حسن لاتا من منطقة تيلابيري، وقد ارتحل إلى الحجاز في طلب العلم والتحق بدار الحديث في مكة المكرمة، وبعد تخرجه رجع إلى النيجر واستقر في قريته لاتا على نهر النيجر غرب نيامي، وتفرغ للعلم وطلابه إلى أن توفي عام ١٩٦٩م. ومنهم الشيخ سومي وِنْدباغُو في منطقة دوسو، وقد تلقى تعليمه في شمال نيجيريا في صكتو خاصة، ثم رجع وتفرغ للعلم وطلابه إلى أن توفي في ثمانينات القرن الماضي. ومنهم الشيخ جنيد بن يوسف في غوري، وكثير غيرهم.

■ حاضر اللغة العربية:

يبدأ من فترة الاستقلال بعد افتتاح المدرسة النظامية المعاصرة.

في عام ١٩٥٨م نالت النيجر الحكم الذاتي بعد إعلان جمهورية النيجر، وكان أول ما طلبه السكان هو إنشاء مدرسة عربية عصرية نظامية، فافتتحت المدرسة النظامية الأولى في مدينة ساي، ووضعت تحت إشراف وزارة الداخلية إلى عام ١٩٥٦م حيث ضُمت إلى وزارة التربية الوطنية.

بعد أن نالت النيجر استقلالها عام ١٩٦٠م كان أول عمل قامت به الحكومة الوطنية في مجال خدمة اللغة العربية هو إرسال البعثات العلمية إلى البلدان العربية لدراسة الإسلام واللغة العربية، وكان من طلاب البعثات الأولى: الشيخ عمر إسماعيل، والشيخ خالد جبو، والشيخ أبو بكر دتيا، والدكتور علي ليمان، والحاج عمر أحمد أول سفير للنيجر في البلدان العربية، ثم الدكتور سيد مهيب، والشيخ بخاري تانودي الذي أُرسل إلى معهد العلوم الشرعية في كانو، والبيهقي. ولما رجعوا حملوا لواء تعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية في البلاد.

(١) بول مارتي، المصدر السابق، ص ٤٠٢.

في عام ١٩٧٤م افتتح أول معهد عربي إعدادي الإعدادية الخامسة بتمويل من ليبيا، وفي عام ١٩٨٠م افتتح معهد إعدادي آخر في مدينة زندر، وفي عام ١٩٨٤م افتتحت مدرسة عربية ثانوية في نيامي، وفي ١٩٩٤م افتتحت ثانوية عربية ثانية في مدينة مِرّيا بمنطقة زندر.

في عام ١٩٨٦م توجت هذه الجهود بافتتاح الجامعة الإسلامية في النيجر، وبذلك اكتمل سلم التعليم العربي في النيجر.

أما في المجال الإداري فقد تم في عام ١٩٧٩م إنشاء إدارة التعليم العربي في وزارة التعليم العربي لتشرف على التعليم العربي في البلاد الذي أخذ يتوسع، وعين الشيخ القاسم البيهقي رحمه الله تعالى أول مدير لها وهو من أوائل خريجي الأزهر.

وفي عام ١٩٩٢م أنشئت مفتشية خاصة للتعليم العربي، ثم أنشئت الإعداديات العربية في كل المناطق، وكان لبعض الدول العربية مساهمات فعالة في دفع عجلة تعليم اللغة العربية في النيجر منها الجماهيرية العربية الليبية التي بنت الإعدادية الأولى في البلاد ووفرت لها المقررات والمدرسين، ومنذ عام ١٩٩٧م ظلت تتكفل ببعض المدرسين في جميع المستويات ابتداءً من الابتدائية إلى الجامعة. كذلك الأزهر الشريف كان يساهم بعدد من المدرسين كل عام من ستينات القرن الماضي إلى اليوم، وكذلك المملكة العربية السعودية تقدم جهوداً كبيرة، وقد افتتح مؤخراً مركز الأمير سلطان الثقافي بالتعاون مع حكومة النيجر، وهو يعد أضخم مركز تعليمي ثقافي في غرب أفريقيا ويستهدف طلاب العلم كافة في عموم دول غرب أفريقيا)[١]، كما تقوم الهيئات التعليمية والثقافية السعودية بجهود كبيرة في مجال نشر العلوم العربية والاسلامية داخل جمهورية النيجر، وقد أقامت المملكة عدة مدارس في النيجر، كما وفرت الكتب والمراجع لمتعلمي اللغة العربية، إضافة إلى تقديم المنح الدراسية للطلاب النيجريين وقد أسهم ذلك في إرساء وجود ثقافي وفكري عربي داخل النيجر.)[٢].

البنك الإسلامي للتنمية له إسهامات كذلك في كفالة المدرسين وبناء الفصول، وعقد الدورات التكوينية للأساتذة في مشروعه « برنامج دعم التعليم العربي الفرنسي في النيجر. إن البرنامج الذي يموله البنك الاسلامي للتنمية يشمل مجالات أخرى، منها: تنظيم التعليم القرآني، وفتح قنوات بينه وبين سوق العمل، ومحو الأمية عن طريق الحرف العربي باستخدامه في كتابة اللغات المحلية، وقد تم تدريب ١٢٠ معلماً عربياً كما افتتحت ١٠٠ مدرسة ابتدائية حكومية جديدة،... إضافة إلى ست إعداديات وأكثر من ٢٠ مدرسة حرة.)[٣]

ويمكن تلخيص ما تقدم فيما يلي:

- أن النيجر من الدول التي دخلها الإسلام في وقت مبكر في القرن الأول الهجري.
- أن للغة العربية ماضياً عريقاً في النيجر؛ حيث كانت اللغة الرسمية للممالك الإسلامية السابقة في النيجر.
- أن الاستعمار رغم محاولاته القضاء على اللغة العربية في النيجر إلا أنه لم ينجح وهو ما يدل على قوة تمكن اللغة العربية في المجتمع.
- أن حاضر اللغة العربية ومستقبلها يبشر بخير كثير؛ حيث يلاحظ الاهتمام بها،

١) (بتصرف عن صحيفة البلاد الخميس ٣٠ إبريل ٢٠٠٩م)

٢) (بتصرف عن مقال بصحيفة الجزيرة الخميس ٩ ,شوال ١٤٢١)

٣) (بتصرف عن مقال بصحيفة الجزيرة الخميس ٩ ,شوال ١٤٢١)

والإقبال على تعلمها وكثرة مدارسها من الابتدائية إلى الجامعة.

■ مستقبل اللغة العربية في النيجر :

مؤشرات ومبشرات :

يتأكد المستقبل المشرق للغة العربية في النيجر من خلال جملة من المبشرات، أهمها :

- الاهتمام الذي تجده اللغة العربية من أبناء النيجر، وحرصهم على تعلمها، والتخاطب بها، إضافة إلى ما يبذل من الجهود الرسمية وغير الرسمية للنهوض بها، والاهتمام المتزايد في تقديم كافة أنواع الدعم المادي والفني من قبل بعض الدول العربية والإسلامية والمؤسسات التعليمية والتنموية وبعض الهيئات والمنظمات، داخل وخارج النيجر، ولاسيما منظمة الإيسيسكو.
- دور الجامعة الإسلامية بالنيجر التي يفد إليها طلاب الدراسات العربية والإسلامية من نحو عشرين دولة أفريقية. وهي تحتوي اليوم على ثلاث كليات للغة العربية والدراسات الإسلامية منها واحدة خاصة بالبنات فتحت بالعاصمة (نيامي) سنة ٢٠٠١م، بالإضافة إلى معهد عالٍ للتربية وتكوين أساتذة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ومركز إفريقي لإحياء التراث الإسلامي.
- أنها تعد إحدى اللغات الوطنية المعترف بها دستورياً في النيجر؛ ولذلك نجد جوازات السفر الصادرة عن حكومة النيجر تُكتب باللغتين الفرنسية والعربية.
- صدور بعض الصحف باللغة العربية، فمنذ سنة ١٩٩٥م إلى اليوم صدرت صحيفتان ومجلة ناطقة كلها بالعربية، وهي صحيفة (الوطن) التي ظهرت سنة ١٩٩٥م وصدرت منها ثلاثة أعداد ثم توقفت لظروف مالية، ومجلة (الواحة) التي صدرت منها بضعة أعداد ثم توقفت أيضا للسبب نفسه، وأخيراً صحيفة التواصل التي تواصل الصدور حالياً، وقد ظهر منها إلى حين كتابة هذه السطور تسعة أعداد.
- تصدر عن الجامعة الإسلامية بالنيجر منذ ١٩٩٥م دورية أكاديمية سنوية بعنوان: (حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر).
- تخصيص الإعلام المرئيّ والمسموع في النيجر وبعض دول المنطقة حصصاً أسبوعية قصيرة للغة العربية.)[1]

(١) ((عبد العلي الودغيري اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء:الماضي والحاضر والمستقبل .http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Langue_arabe/p22.php

الشيعة في نيجيريا
النشأة والوسائل

د. محمّد الثّاني عُمر موسى (*)

■ المدخل :

أصبحت ظاهـــرة التشـــيع أو الرفض في نيجيريا قضية تشـــغل الـــرأي العام والخاص، وأصبح المهتمون بقضايا الأمة يتباحثون حولها في مجامعهم العلمية والدينية لمعرفة أسبابها، والوقوف على أبعادها في واقع الأمة الإسلامية، ويطرحون برامج متعددة لمواجهتها، والحد من انتشارها، وتوعية الناس من مخاطرها العقدية والأمنية.

وفي هذه العجالة إضاءة سريعة حول نشأة هـــذه الفرقة، والأســـباب التي ســـاعدت على انتشـــارها، و الوسائل التي ســـلكتها في سبيل نشـــر أفكارها وعقائدها بين المســـلمين، ولا سيما العامة منهم.

■ أولاً : النشأة والتطور:

كانـــت بداية ظهور التشـــيع فـــي نيجيريا بين طـــلاب المـــدارس و الجامعـــات. الذين هم في الغالب يدرســـون فـــي تخصصات غير العلوم الشـــرعية كالطب والقانون، والاقتصاد وغيرها. قليل منهم من يدرس العلوم الشرعية؛ ولذلك كانوا قليلي المعرفة بالإســـلام وتاريخه وعقائده، وسائر علوم الشـــريعة الأخرى، وإن كانوا من المتديّنين المحافظين على الصلوات المنخرطين فـــي الدعوة و الأنشـــطة الدينية التى عادة ما يقـــوم بها الطلاب في الجامعات والمدارس.

وهـــذا بطبيعة الحال ما جعـــل مثل هؤلاء الطلبة لقمة ســـائغة أمام الدعوات المختلفة، والتيارات العقدية والفكرية المنتشرة في البيئة الدراسية، وخصوصاً الجامعية.

ومن هذه التيارات التيار الشيعي الرافضي الوافـــد من إيران بعـــد ثورتهـــا العارمة التى أطاحت بحكم الشاه محمد رضا البهلوي.

لقـــدكان من أهداف الثورة الإيرانية نشـــر المذهب الشـــيعي، فكانوا يوزعون المنشورات والكتب مجانـــاً، ويرفعون الشـــعارات البرّاقة اللمّاعة، من تأســـيس الجمهورية الإســـلامية، وتحرير المســـجد الأقصى من أيـــدى اليهود، ومقارعة أعداء الله ورفع الظلم عن الشـــعوب المستضعفة، إلى غير ذلك من الشعارات البراقة التى خدعت كثيراً من شـــباب المسلمين قليلي الخبرة والتعليم، وألقت بهم في غياهب التشيع والرفض. وكان من بين هؤلاء المخدوعين شاب يدعى إبراهيم يعقوب الزكزكي.

(*) مدير مركز الإمام البخاري للأبحاث والتّرجمة- كانو - نيجيريا

الزكزكي وانتشار التشيع في نيجيريا

برز اسم الزّكزكي في أوائل الثمانينيّات من القرن الماضي بعدما تخرّج في جامعة أحمد بللو بمدينة زكزك لرفضه أداء الخدمة الوطنية الإجبارية التى يؤديها خريجو الجامعات، زاعماً أن هذه الخدمة إنما هي في الحقيقة عبادة لصنم جديد اسمه «الوطن». وعلى الرغم من سوء الفهم وضيق الأفق الذى يدل عليه موقف الزكزكي هذا إلا أنه اكتسب بسببه شعبية واسعة ولاسيما في أوساط الشباب من طلاب الجامعات، وطلاب المدارس الذين تمتلئ قلوبهم بالحماسة الدينية مع قلة علمهم الشرعي؛ وأصبح إبراهيم الزكزكي بين عشية وضحاها يعد من قيادات الشباب الذين لهم ميل إلى التديّن والنّشاط الدّيني في نيجيريا.

كانت إيران في أثناء حربها الدامية مع العراق تدير حرباً إعلاميّة واسعة لاستمالة قلوب المسلمين، و كسب الرّأي العام الإسلامي إلى جانبها، وكانت تستضيف عدداً من الرؤساء والعلماء والزعماء وقيادات الطلاب والشباب من أنحاء العالم الإسلامي المختلفة لحضور المهرجان السنوي لذكرى انتصار الثورة الإيرانية..

تجنب الإيرانيون في اختيار من يستضيفونه من نيجيريا العلماء وأصحاب الثقافة الدينية، وركّزوا على الشباب المتحمس ممن قلّت بضاعته في العلوم الشرعية وقلّت خبرته في الشئون الدنيويّة والمعيشيّة مثل إبراهيم بن يعقوب الزكزكي.

الذي وجدوه خالي الذهن من أبسط مبادئ الإسلام فأفرغوا فيه تعاليم التشيع وعقائد الرفض وبنوا شخصيته تدريجياً على مر السنين. بينما وجد الزكزكي هو الآخر أتباعاً متحمسين للإسلام، ولكنهم على غير علم، فاستلهاهم بشعارات الثورة الإيرانية البراقة، واستخف عقولهم بخطبه الحماسية في القضايا العامة، وخاصة السياسية. فكبُر الزكزكي في أعين هؤلاء الشباب السذَّج و اعتبروه عالماً ربانياً مجاهداً، وإماماً معصوماً، يجب على جميع المسلمين اتباعه والانقياد لأوامره ونواهيه، ومن لم يفعل فهو خارج عن الإسلام وإن مات على ذلك مات ميتة جاهلية؛ لأنه مات على غير بيعة وعلى غير الجماعة!

وهنا شعر قلّة من العلماء والدّعاة بخطورة الموقف وتفاقم الخطر وخاصة بعد ما بدأ أتباع الزكزكي يخرجون في مظاهرات حاشدة في المناسبات الشيعيّة، مثل: يوم عاشوراء، والجمعة الأخيرة من رمضان التى جعلها قائد الثورة الايرانية آية الله روح الله الخميني يوماً لتحرير المسجد الأقصى والتضامن مع الفلسطنيين المضطهدين من قبل اليهود. وقد وقعت في بعض هذه التظاهرات اشتباكات مع رجال الشّرطة أدت إلى إصابات وخسائر في الأرواح والممتلكات. عندها هبّ بعض العلماء ينذرون بخطورة انتشار التشيع في نيجيريا، وينصحون الشباب بعدم الانخراط في حركة الزكزكي، وأن هذه الحركة قد تجرّهم الى اعتناق عقائد الرافضة المناقضة للإسلام. ولكن الرجل فيما يبدو قد بدأ يتقن فنّ «التقية» الذى هو أحد ركائز عقيدة الرافضة، فكان دائماً يطمئن أتباعه ويؤكّد لهم بأنه ما يربطه مع حكام إيران وعلمائهم إلا الثورة، والجهاد، والنضال ضد قوى الاستكبار العالمي والطواغيت المحليين.

وهكذا ظل إبراهيم الزكزكي يستغل سكوت أكثر العلماء، ويكسب الأتباع وينشر تعاليم الشيعة وعقيدة الرفض طول الثمانينيات وصدراً من التسعينيات.

وظل الأمر كذلك إلى أن وقع حادث غيّر مجرى الحركة وتاريخها إلى الأبد، ذلك أن إحدى المجلات التى تطبع في إيران وتوزع مجاناً على القراء في نيجيريا وغيرها من البلدان، نشرت مقالاً فيه نيل من الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه واتهام له بالكذب ووضع الحديث للخلفاء والسلاطين حرصاً على الدّنيا، فلم يستطع كثير من أتباع الزكزكي أن يتحمل ذلك، نظراً لما اشتهر به مسلمو نيجيريا من حب النبي ﷺ وصحابته الذى اكتسبوه من عقيدتهم السنيّة العريقة، فهبّ هؤلاء وطالبوا الزكزكي بأن يدين هذه المقالة علناً وأن يعلن براءته من مذهب الرافضة، ولكن الرجل رفض، فكان هذا بمثابة تحقيق للاتهامات الموجهة إليه بأنه يعتقد الرفض ويمارس التقيّة.

ونتج من هذا الحادث أن انشقت طائفة من أتباع الزكزكي وكبار تلاميذه ومريديه، وأعلنوا البراءة منه، ومن مذهبه الشيعي، وذلك بعد مشاجرات واضطرابات داخل الجماعة ظلت سنين طويلة.

وفي سنة ١٩٩٥ ميلادية ا انفصلت هذه الطائفة ،وأسست تنظيماً باسم: (جماعة التجديد الإسلامي) بزعامة أحد تلاميذ الزكزكي المقرّبين لديه، وهو أبو بكر مجاهد. وبهذا خرجت جماعة الزكزكي من طور التقيّة إلى دور الإعلان بهويتها الحقيقية والجهر بعقائد الرافضة، من بغض أصحاب رسول الله وسبهم وتكفيرهم، واعتقاد تحريف القرآن الكريم، والقول بالأئمة الاثني عشر المعصومين، وغير ذلك من مقالات الرافضة المعروفة.

■ أسباب انتشار التشيع في نيجيريا :

إن جمهورية نيجيريا الاتحادية بلد سني لا يكاد يوجد به شيعي واحد قبل الثورة الإيرانية، وتصديرها لعقائد الرافضة إلى أنحاء مختلفة من العالم الاسلامي. والنيجيريون معروفون بحبهم الشّديد للنبي محمّد ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بمن فيهم أهل البيت وغيرهم. و مما يدل على ذلك الأسماء التى يتسمّى بها غالب سكان البلد؛ إذ لا يكاد بيت يخلو من اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو غيرها من أسماء الصحابة.

فكيف وجدت الشيعة أرضاً خصبة في نيجيريا؟ وكيف استطاعت أن تنتشر هذا الانتشار الواسع في مدة يسيرة؟

إن هناك أسباباً ساعدت علي انتشار طريقة الرّفض في نيجيريا، نجملها فيما يلي:

السبب الأول والأهم : هو فشل العلماء فشلاً ذريعاً في قيادة الأمة وإرشاد الأفراد والجماعات، وتحصينهم ضدّ الفساد والبدعة وأنواع الضلال، والسير بهم على الصراط المستقيم، ولا شك أن هذه أهم وظائف العلماء في كل مجتمع مسلم، فلماذا عجز العلماء عن القيام بهذه الوظائف في نيجيريا؟

ولفهم هذا السبب لا بدّ من تقسيم العلماء في نيجيريا إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: هي طائفة العلماء التقليديّين، وهي أكبرالطوائف وأعظمها احتراماً في نظر العامة، ولكن هذه الطائفة وللأسف قد تأخرت عن مواكبة التقدم العلمي والاجتماعي؛ وقصروا جهودهم العلمية في الفقه المالكي لا يتعدّونه إلي غيره من الفنون الإسلامية الأخرى، كالقرآن والتفسير والحديث والتاريخ وغيرها، وأصبح تأثيرهم محدوداً لانعزالهم عن تطورات الحياة، وعن متابعة الأحداث والوقائع في المجتمع، وقليل جداً من يتمتع منهم بالنفوذ الواسع والكلمة المسموعة خارج محيطه، وهؤلاء القلائل هم أصحاب

العلاقات بالأمراء ورجال السياسة، وليس لهم همّ في الغالب إلا تحقيق مصالحهم،والحفاظ على مراكزهم الاجتماعية؛ لذلك لم يكن أكثر العلماء من هذه الطائفة مؤهّلين لحمل أمانة العلم، والقيام بوظيفة العلماء العاملين من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإحياء للسنة وإخماد للبدعة، بل إن كثيراً منهم يدعو إلى البدعة علناً ويدافع عن الطوائف المبتدعة، ويحارب كل من يدعو إلى إزالة البدعة وإقامة السنة. فلم يكن من المستغرب أن تنتشر بدعة التشيع تحت مرأى ومسمع هؤلاء العلماء، بل كثير منهم أسهم بطريق مباشر أو غير مباشر في انتشار عقيدة الرفض بين العامة وخصوصاً بين الشباب منهم.

وأما الطائفة الثانية: فهي تتكون من رجال الأعمال ومن خرّيجي الجامعات والمدارس وحملة الشهادات ممن تثقفوا بالثقافة العصريّة وتعلموا علوم العصر، ولم يتلقوا من علوم الإسلام إلا قليلا، فهؤلاء هم غالب من دخل في التشيع وكافح لأجل نشره والدفاع عنه.

ومما زاد الأمر خطورة أن رؤساء هذه الطائفة إضافة إلى جهلهم بالدين، فيهم نوع من الكبر والتعالي على عباد الله أدى بهم إلى التنطع والغلو والانغلاق على أنفسهم، وعدم قبول النصح و فهم يكيلون الشتائم والتهديدات لكل من يخالفهم من العلماء والأتباع على حد سواء. قصارى جهد أحدهم في الطلب أن يقف على بعض الكتيبات والمذكرات المترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

وخير من يمثل هذه الطائفة هو إبراهيم الزكزكي نفسه، فهو مثال للغلو والاستعلاء واحتقار الآخرين، على قلة علمه الشرعي؛ فإنه يحمل شهادة « البكالوريوس» في الاقتصاد، ولم يُعرف له طلب للعلوم الإسلامية والعربية، لا في مدرسة تقليدية ولا عصرية، ولا كتب شيئا يعرف به علمه. وكل ما يعرف له خطبه ومحاضراته الطويلة المملة في التحليلات السياسية والتعليقات الصحفية والتهديدات والشتائم ضد الاستكبار العالمي والصهيونية والإمبريالية، والمخالفين له من المسلمين السنة وغيرهم ممن يجمعهم الزكزكي جميعا تحت عنوان «الطاغوت»...

هذا حال الطائفة الثانية وهي كما ترى أصل كل البلية؛ وقد أصبحوا أصحابَ النفوذ العريض والكلمة المسموعة بفضل اتصالهم بالمؤسسات الرسمية وحسن استعمالهم لوسائل الإعلام؛ وبذلك استطاعوا أن ينشروا التشيع بين جمهور الناس على حين غفلة من العلماء.

وأما الطائفة الثالثة: فهم الذين جمعوا بين ثقافة الدين وثقافة العصر، بين العلوم الشرعية والعلوم العصرية المختلفة، ولهم فقه عميق بالواقع الذى نعيش فيه وإلمام قوي بالأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والحضاريّة، وكذلك النظام الدولي القائم. وهؤلاء معظمهم من خرّيجي المدارس والكليات والجامعات في شتى الفنون العربيّة والاسلاميّة. وبعضهم تخرج في الجامعات الإسلامية في بعض البلاد العربية والإسلامية، مثل السودان ومصر والمملكة العربية السعودية وباكستان وغيرها. وأكثرهذه الطائفة بتوفيق الله تعالى من القائمين بالدعوة إلى السنة ومحاربة البدعة والرجوع بالأمة إلى منهاج السلف الصالح في فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

فرجال هذه الطائفة هم الذين تصدوا لطوفان الرفض في نيجيريا ووقفوا في وجهه ،واستعملوا في ذلك كل الوسائل والأدوات المتاحة: فمنهم من استعمل طريقة الوعظ

والدروس العامة في التلفاز والمذياع، ومنهم من استغل المنابر واتخذ من الخطب وسائل، ومنهم من سخر القلم واتخذ من الكلمة المكتوبة مطية توصله إلى غرضه، ولا تزال جهودهم تتواصل وإن كانت تفتقد النظام والمؤسسية.

وهناك أسباب أخرى ساعدت على انتشار التشيع في نيجيريا منها: كثرة الجهل وانتشاره وقلة العلم وانزواؤه؛ فإن مما ابتلي المسلمون به في كثير من الأقطار إعراضهم عن التفقه في الدين، وانصرافهم إلى العلوم المادية لطلب الدنيا؛ وهو ما فتح المجال أمام دعاة البدعة والضلال، وهيأ لمثل إبراهيم بن يعقوب الزكزكي أن ينشر التشيع وعقائد الرفض في البلاد..

ومنها : فصل الدين عن الدولة وهو من الكفريات التي فرضها الاستعمار على المسلمين فرضاً؛ وبذلك أمسى الدين بمعزل عن الحياة، لا سلطان له، وهذا ما أتاح الفرصة اللمتعالمين من أهل البدع أن ينشرو بدعهم، ويتكلموا في مسائل العلم بغير علم ودون رقيب ولا حسيب، وصار الدين حمى مستباحاً يلجه كل من هب ودب، ويتكلم فيه ويفتي من شاء بما شاء. أما الحكام فلا يهتمون بالدين إلا فيما يخدم مصالحهم السياسية، وكثير منهم يفضل التعامل مع المتعالمين والدجالين الذين يساعدونهم على تضليل العامة وإلجام أفواههم، وشراء ولائهم.. وهكذا ضاع الدين بينهم، وراجت سوق البدعة، وانتشرت الفرق الضالة، ومنها الرافضة البغيضة. تلك أهم أسباب انتشار التشيع في نيجيريا ...))[1].

■ ثانياً : وسائل نشر الرفض في نيجيريا:

الناظر في واقع أهل الرفض في نيجيريا يجدهم يتخذون سبلاً شتى، ويمارسون وسائل مختلفة في سبيل نشر مذهبهم بين الأمة المسلمة، وتتمثل هذه الوسائل فيما يلي :

١- الوسائل العلمية : منها :

- دروس في كتب الشيعة، كدروس زعيمهم إبراهيم الزكزكي، التي تنشر ا مقتطفات منها في صحيفة (الميزان)، ودروس الرجل الثاني في الحركة : يعقوب يحيى في ولاية كشنا، وهو أشدهم كشفاً لعقائد الشيعة، دون تقية، فإنه يصرح ولا يلوّح .
- نشر رسائل الأدعية الرافضية الشركية، وترجمة بعضها إلى اللغات المحلية، مثل : دعاء (ناد علياً)، ومختصر (مفتاح الجنان).
- نشر كتب ورسائل شيعية مترجمة إلى لغات محلية، كالهوسا.
- عمل المسابقات في الشعر والنثر، يتسابق فيها المشاركون من كُتّابهم وشُعرائهم وتقديم جوائز للفائزين فيها.
- نشر اللغة الفارسية في نيجيريا عن طريق البعثات التعليميّة إلى إيران، وعبر السفارة الإيرانية في العاصمة أبوجا. وقريباً عقد الملحق الثقافي للسفارة الإيرانية مؤتمراً لمناقشة موضوع بعنوان : (ما هي التحديات في تعلم اللغة الفارسية وثقافتها في المجتمع النيجيري)، وقد انعقد المؤتمر في جامعة لاجوس، بتاريخ ٢٠/ مايو/٢٠٠٩، وحضره بعض الأساتذة

---

١) راجع : بيان فساد عقائد الشيعة، للدكتور عمر محمد لبطو (ص٩٢-١٢٥)

الجامعيين، وألقوا فيه محاضرات.[1]

- تقديم المنح الدارسية للشباب للدراسة في معاهد وجامعات طهران، فقد أوفدوا بهذه الطريقة بعثات تعليمية، تخرج بعض طلابها ورجعوا إلى نيجيريا حاملين عقائد الرفض، ويعملون ليل نهار على نشرها في أوساط العامة .
- تستغل إيران الطلاب النيجيريين الذين لا يزالون يدرسون في معاهدها، بإيفادهم إلى بلاد الحرمين في أيام الحج، للقيام بدعوة الحجاج النيجيريين إلى التشيع في المشاعر وفي الخيام بمنى.

٢- تلميع ما يسمى بـ«الثورة الإسلامية» في إيران وتمجيد زعماء الرفض : من ذلك :

- تلميع الثورة الخمينية في إيران، وتمجيد رموزها، وكتابة المقالات، وإلقاء المحاضرات عنها في كل مناسبة.
- نقل ونشر خطابات آيات إيران، مثل المرشد آية الله (خامئني) وغيره، وترجمة خطبهم وكلماتهم في مناسبات عدة، ونشرها عبر جريدة (الميزان)، وفي مواقع الإنترنت التابعة لهم. كما يهتمون بنقل أخبارهم وزياراتهم ولقاءاتهم في إيران وفي غيرها.
- الاهتمام بشؤون إيران ونقل أخبارها، وتحليل سياستها الداخلية والخارجية، وتحركات ساستها وأخبارهم، بما يتفق مع المنهج الطائفي الرّافضي، ولا يتعارض مع توجهات آيات إيران ومواقفهم الدينية والسياسيّة.
- تغطية أخبار تحركات السّفير الإيراني في نيجيريا داخل ولاياتها، وترجمة كلماته في مناسباتهم الرافضية ونشرها، في مثل ذكرى وفاة الخميني ونحوها.
- تغطية تحركات زعيم الرافضة في نيجيريا إبراهيم يعقوب الزكزكي داخل نيجيريا بين ولاياتها ومدنها وخارج نيجيريا، وذلك بنشر أخباره في جريدة (الميزان) المطبوعة والإلكترونية.

٣- الاحتواء باسم التقريب والوحدة.. وشراء الذمم: ويتم ذلك بسلوك ما يلي:

- الدعوة إلى التقريب والوحدة بين السنة والشيعة، ويتم ذلك عبر إشراك علماء الطرق الصوفية في أنشطتهم، وبخاصة الموالد، ونشر جداول الفعاليات والمحاضرات التي يشارك فيها أولئك العلماء والدعاة الصوفية بأسمائهم في جريدتهم (الميزان).
- خصصّ الزعيم الرّافضي النيجيري إبراهيم الزّكزكي أسبوعاً كاملاً سَمّاه (أسبوع الوحدة) يتمّ فيه دعوة مشايخ الصّوفية للمشاركة فيه، وذلك بإلقاء المحاضرات حول هذا الموضوع، والهجوم على أهل السنّة والجماعة بالسبّ والشّتم، بتهمة أنهم العقبة الكؤود في طريق تحقيق الوحدة بين المسلمين .
- توزيع الهدايا لكل من تحمل اسم (فاطمة)، بمناسبة مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ومساعدتها بأثاث البيت والأمتعة.
- محاولة إذكاء نار الفتنة والطائفية بين أهل السنة والجماعة وبين الصوفيّين، وإقناع الصوفيين بأن أهل السنّة والجماعة هم العدو المشترك للصوفيّة والرافضة، فيجب أن تتكاتف الجهود لمحاربتهم

١) جريدة الميزان. العدد ٨٧٤

وتشويه سمعتهم، وعدم الإصغاء إلى ما يقولون عن الرّافضة باعتباره كذباً محضاً لا أساس له من الصحّة. ويحاولون إظهار القواسم المشتركة بينهم وبين الصوفيّة، مما يتصل ببعض الطقوس البدعيّة، والمعتقدات الشركيّة في الأولياء والصالحين.

- الخروج مع الصوفية في مظاهرات حاشدة باسم المولد النبوي، ورفع لافتات تحمل صور رموز الرّافضة، وصور شيوخ الطرق الصوفية في آن واحد، للإيهام بوحدة الهدف والموقف بينهم وبين الصوفية، ويجاهرون بلعن أهل السنة والجماعة واتهامهم ببغض النبي ﷺ وآل بيته، وهوما جعل أهل البدع يقتبسون منهم هذه البدعة الجديدة، ليضيفوها إلى بدعة الموالد القديمة، فتراهم يخرجون في مسيرات ومظاهرات، الأمر الذي لم يكن يُعرف عندهم من قبل.
- زيارة بعض مشايخ الصوفية بمناسبة المولد، وتقديم الهدايا المادية والعينية لهم، وقد أثر ذلك في كثير من علماء الصوفية؛ فمالوا إليهم وسكتوا عن نقد عقائدهم، أو الطعن فيهم، و صاروا يبادرون إلى إجابة دعواتهم وحضور احتفالاتهم.[1]
- محاولة احتواء بعض الأمراء التقليديين، وشراء ذممهم بالمال.[2]
- حضور الشيعة الرافضة بعض احتفالات الصوفية بمناسبة موالد شيوخهم، كحضورهم الاحتفال بمولد الشيخ أحمد التجاني، والشيخ إبراهيم إنياس وغيرهما.[3]

٤- المؤتمرات والاحتفالات :

اتخذ الزعيم الرافضي النيجيري إبراهيم الزكزكي المؤتمرات والاحتفالات منبراً لإلقاء خطبه الطويلة المملة، يتكلم فيها بجهل بالغ، ويستعرض تاريخ ما يسميه بـ (الحركة الإسلامية) ونضالهم ضد الطواغيت، وما قاسوه في سبيل ذلك من اضطهاد وتعذيب وقتل وسجن، مظهراً فيها بطولاته، ونضاله الديني.

ومن خلال هذه المؤتمرات والاحتفالات يتحدث الزكزكي عن تاريخ بعض زعماء الشيعة وأئمتهم الاثني عشر، وما يزعم أنه قد نالهم من الظلم والبغي على أيدي الأمويين والعباسيين، وكل ذلك بجهل تام، وتضليل سافر، ومن هذه المؤتمرات :

- مؤتمرات خاصة بأبناء من يسمونهم «الشهداء»، (وهم الذين قتلوا في مصداماتهم مع الشرطة، أو في اشتباكاتهم مع المواطنين)، ويجري فيها جمع تبرعات من أتباع المذهب الرافضي لمواساة عوائل المقتولين.
- مؤتمرات خاصة بالنساء، في احتفال بمولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها تجري فيها مسابقات ومحاضرات وعروض عسكرية، يتم فيها توزيع الجوائز والهدايا، وتكريم كل من اسمها فاطمة .

٥- الوسائل المادية :

- استثمارات مالية بين الرافضة أنفسهم، وقد أسسوا ما سموه (منتدى التجارة) الذي يقوم على أساس عقدي رافضي، ويهدف إلى تقوية نفوذهم الاقتصادي.

١) الميزان، العدد ٨٧١، الصادر في ٦ جمادى الأولى١٤٣٠هـ والعدد:٨٦٧، الصادر في ٩ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ

٢) المصدر نفسه، العدد ٨٦٦، الصادر في ربيع الثاني ١٤٣٠

٣) الميزان، العدد٨٦٥، الصادر في ٢٠ ربيع الأول ١٤٣٠

- زيارة المرضى وأصحاب الاحتياجات الخاصة، وتقديم المساعدات المادية لهم، ونشر ذلك في صحيفتهم (الميزان).
- مواساة بعض المنكوبين، مثل زيارة أحد زعمائهم في كانو لسوق الصرافين، بعد أن هجم عليها اللصوص بالأسلحة وقتلوا بعض الشرطة.[1]
- شراء ذمم علماء الصوفية ودعاتهم وبعض الأمراء التقليديين بالمال وغيره.[2]

٦- الوسائل الإعلامية :

- تركيزهم بشكل كبير على جريدة (الميزان)، التي تعد أقوى صوت إعلامي وسياسي لدعوة الرافضة في نيجيريا، وهي صحيفة تصدر باللغة الهوسا ذات الانتشار الواسع بين مسلمي نيجيريا، ويصدرون كذلك صحيفة (المجاهد) باللغة الإنجليزية إلا أنها غير منتشرة مثل جريدة (الميزان).
- إنشاء مواقع الإنترنت باللّغة المحليّة (الهوسا) وباللّغة الإنجليزيّة، مثل موقع (الحركة الإسلامية)، وموقع (الرّسول الأعظم)، وموقع جريدة (الميزان)، وغيرها. ويتمّ أحياناً نقل بعض المقالات المنشورة في هذه المواقع ونشرها في جريدة (الميزان) المطبوعة.
- شراء ساعات البث في وسائل الإعلام المحلية المرئية والمسموعة، لبث بعض دروسهم من تفسير القرآن وغيره، أو تقديم بعض البرامج الدينية باسم التقريب والوحدة بين المسلمين، ويُشركون فيها علماءَ ودعاة من الصوفية بمختلَف طرقهم المبتدعة .
- نشر الأشرطة الصوتية التي تحتوى على ما يسمونه مدائح أهل البيت، وفاطمة رضي الله عنها، وفيها سب الصحابة تصريحاً وتلميحاً، وقد تسللت بعض هذه المدائح إلى بعض الإذاعات المحلية، التي تبثها من حين لآخر بجهل تام بمقاصدها ومحتوياتها الرافضية.
- إن استغلال الشيعة لعواطف المسلمين لنشر عقائهم ليس بأمر جديد: ((قد استغل شعراء الشيعة وخطباؤها ما يسمى بمحن آل البيت في إثارة عواطف الناس واستجاشة مشاعرهم وإلهاب العواطف والنفوس، وتحريكها ضد الأمة ودينها.
- وتُلمس في بعض ما وصلنا من «أدب» بعضُ الاتجاهات العقديّة عند الشيعة، وتُلمح المبالغة في تصوير ما جرى على أهل البيت من محن، واستغلال ذلك في نشر التشيّع، والطعن في الصحابة رضوان الله عليهم.
- وقد أجهد رواد التشيع أنفسهم في نشر الخرافات والأساطير عن أئمتهم في ثوب قصصي مثير، أو في خطبة أو في شعر مبالغ في الغلو في مدح الأئمة.
- ولقد تأثرت عقائد العامة وتصوراتهم، حتى أثر ذلك على عقيدة التوحيد عندهم فاتخذوا من الأئمة أرباباً من دون الله.[3]

١) الميزان، العدد ٨٦٧، الصادر في ٨ ربيع الثاني، ١٤٣٠هـ.
٢) الميزان، العدد ٨٧١، الصادر في ٦ جمادى الأولى، ١٤٣٠هـ والعدد:٨٦٧، الصادر في ٩ ربيع الثاني، ١٤٣٠هـ والعدد ٨٦٦، الصادر في ربيع الثاني، ١٤٣٠.
٣) أصول مذهب الشيعة الإمامية، للدكتور ناصر القفاري

٧- التمويه، والكذب، والافتراءات على أهل السنة :

من ذلك إطلاق أسماء بعض الأعلام المحترمين لدى المسلمين على مؤسساتهم؛ لإيهام الناس بأنهم على مذهب الرفض والتشيع الغالي، فسموا كثيراً من مدارسهم باسم: (المدرسة الفودية) في ولايات مختلفة، نسبة إلى الشيخ المجاهد عثمان بن فودي الزّعيم الإسلاميّ الّذي قاد حركة التجديد فيما بات يعرف ببلاد (الهوسا). والرجل بريء من التشيع، وكُتبه كلُّها شاهدةٌ على ذلك، ناطقة به.

في حال وقوع اعتداء من بعض أتباع الطرق الصوفية على أهل السنة، تقوم وسائل الإعلام الرافضية بنقل الأخبار الكاذبة حوله لمناصرة المتصوفة، وإظهار أهل السنة على أنهم هم الطرف المعتدي الظالم، كما حصل في مدينة (بيدّا) في ولاية نيجر، حيث اعتدى أتباع الطريقة التيجانية على أهل السنة، وأحرقوا بعض ممتلكاتهم، فرفع أهل السنة دعوى قضائية ضد التجانيين، فانحاز الرافضة إلى التجانيين ودعموهم بنقل أخباركاذبة وتشويه قضيتهم أمام الرأي العام. وتكرر نفس الموقف في ولاية بوثي فيما وقع من اعتداء الصوفية على جماعة إزالة البدعة وإقامة السنة.

الأخبار الكاذبة الملفقة للدعاية إلى الرفض وتلميع عقيدة الرافضة ودولتهم (إيران)؛ فقد نشرت صحيفة (الميزان) الشيعية، عنواناً عريضاً في صفحتها الأولى مفاده : (الملك عبد الله ملك المملكة العربية السعودية أشاد بإيران لما تقوم به من نشر الإسلام)، ثم وضعوا صورة الملك مع وزير الخارجية الإيرانية، في أثناء زيارته للمملكة في ٢٠٠٩/٣/١٦م.[١]

قلب الحقائق، والكذب على أهل السنة، من ذلك ما نشرته صحيفة الميزان[٢] حول حادثة المدينة، وما جرى بين الرافضة ورجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد زعمت الصحيفة زوراً وبهتاناً أن رجال الهيئة هم الذين هاجموا الشيعة، والعارف بحقيقة ما جرى يدرك بوضوح أن هذا من أكاذيب الرافضة .

٨- دعوى الكرامات والبطولات الزائفة :

- إظهار البطولة المزعومة لبعض زعاماتهم. من ذلك ما قامت به صحيفة (الميزان الأسبوعية) من نشر مقابلة أُجرِيت مع أحد زعمائهم يدعى: (يعقوب يحيى)، على هامش مؤتمر جالنغو، تحدث فيها عن معاناتهم إثر مظاهرة قاموا بها احتجاجاً على نشر صور رسومية مسيئة لرسول الله ﷺ، نشرتها صحيفة (Fun Time) النيجيرية في عام ١٩٩١م، وكيف قامت الشرطة باعتقالات عشوائية شملت حتى النساء، وأُوقفوا لمدة أربعة أشهر.
- ادعاء كرامات لبعض المنتسبين إلى الرفض، للدّلالة على صحّة معتقدهم وسلامة طريقتهم، كما يقول الرجل الثاني في قيادة الحركة الرّافضية في نيجيريا يعقوب يحيى في تلك المقابلة المذكورة: أنهم عقب تلك المظاهرات التي قاموا بها أوقف كثير من المعتقلين في سجون الشرطة، لمدة أربعة أشهر، فأصيب أحدهم خلالها بالفالج، لكنه تعافى منه تماماً بسبب بركة الحركة الرافضية، ومات بعضهم على حد تعبيره ثم أحياه الله بعد يومين من

١) العدد ٨٦٧، الصادر في ٨ ربيع الثاني، ١٤٣٠هـ.

٢) العدد ٨٦٥/ ٢٤ ربيع الأول، ١٤٣٠هـ.

وفاتــه، وعاش إلى أن، توفي هذا العام ٢٠٠٩م فــي حادث مــروري، وكل ذلك ببركة رافضيته!!

٩- محاولــة اختــراق بعــض االكيانــات الإســلامية، وتولّي مناصــب إدارية مهمة في الجامعات والمعاهد العلمية :

- من ذلك اتحادات الطلاب المســلمين، فإنهــم يحاولون فعل ذلــك في بعض المعاهد التي ليس لأهل الســنة فيها وجود كبير، فيظهرون التقيّة، ويدخلون في أنشطة اتحاداتها بقوة.
- كما أنهــم في غالب الأحيــان يعملون جاهديــن ليتبوأوا مناصــب كبيرة في بعــض الجامعات والمعاهــد الدينية، وكلّمــا تمكنوا من بعضهــا عملوا على استقطاب جماعتهم وإقصاء أهل السنة منها.

١٠- استمالة الساسة والأمراء التقليديّين :

لما كان أكثر السياسيين والأمراء التقليديين ليســوا من أهل العلم الشرعي ولا من طلابه، وبعض الساسة ليس لهم التزام حقيقي بالدّين، كان ذلك ثغرة كبرى اســتغلها الرافضة لجرهم إلى مســتنقع الرفض، بعد إيهام الساسة منهم بــأن لديهــم (أي الرافضة) قوةً سياســيّةً لا يســتهان بها، تزيد من فرص نجاحه في نضاله السياســي، فيؤيدهم، ويؤيد معتقداتهم بجهل وغرور .

هذه هي الوســائل العشــر التــي يتم من خلالها نشــر الرفض والدعوة إليه في مجتمع نيجيريا، وكسب ثقة بعض الجهلة والمغرورين، وهي وســائل تحتاج إلى ما يضادها من برامج علميــة ودعوية منظمة، وأولــى من يقوم بهذا هم أهل الســنة والجماعة، وهم الذين عُرفوا على مدى التاريخ بمنازلة فرق الضلال، وكسر شــوكتهم، وحماية المســلمين مــن عقائدهم الزائفة. وهذا لا شــك يحتاج إلى تكاتف جهود الجمعيات والمنظمات والعلمــاء والأفراد في الداخــل والخارج، ويحتاج كذلــك إلى إمكانية ماديــة وعلمية كافية، وهو أمر يتطلع إليه كثير من الدعاة والمصلحين، والجهود الآن قائمة إلا أنها لا ترقى إلى مســتوى التحديات، وينقصها كثير من الخبرات والإمكانات المادية والعلمية، والله المســتعان، وعليه التكلان، وهو حســبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

العـــرب وصـــورة أفـريقـيا

مقاربة أولوية في المـــلامـح

الدكتور الخضر عبد الباقي محمد

تمهيد:

لا يـــزال الحديـــث محتدماً حـــول جدلية العلاقة بين «الذات» و «الآخر» والتفاعلات التى تدور داخل هذا الإطار من المفاهيم الأساسية، مثـــل: (الإدراك، التصـــورات، والقبول). ورغم قدم العلاقات بين العرب والأفارقة غير العرب علـــى امتدادها في العمـــق التاريخي على حدّ ما تزخر بـــه الأدبيات المتصلة بهذا الشـــأن، والتي ترجعها لأكثر من ألفي عام،[1] فإنّ واقع تفاعلات«الذات العربية» مع«الآخر الأفريقي» لا يشـــذ عن تلك الجدلية المتشابكة والمثيرة في الوقت نفسه.

وفي هذه الخطوة التـــي تعدّ مقاربة أولية، نحاول من خلال هذه المقالة أن نتناول صورة أفريقيـــا بوصفها أحد طرفي هـــذه الجدلية، لدى شـــريحة في المجتمع العربي هي شريحة المفكرين والباحثين، لتحديد مواقفهم تجاهها، «صـــورة أفريقيا غيـــر العربية لـــدى «الذات العربية»، على أمل أن تتبعها دراسة مماثلة عن الطرف الآخر«الأفريقي غيـــر العربي» للهدف نفسه، و لاستكشـــاف مواقفه واتجاهاته نحو صورة العرب.

أهمية دراسة الصورة الأفريقية:

هناك العديد من الجوانب التي تبرز الأهمية العلمية والعملية لتناول هذا الموضوع حسب ما تعكســـه بعض الأدبيات العربية، والتي تساعد في اكتشـــاف ملاحظات مهمة تتصل بالقضايا الجوهرية للجدلية التي نحن بصددها، (الذات العربيـــة، والآخر الأفريقي)، ولعل من أهم تلك الجوانب مايلي:

أولاً: تقدّم لنا بعض التفسيرات الموضوعية للإطار المرجعي الذي اســـتندت إليه شريحة الباحثين والمفكرين في تشـــكيلها للانطباعات والصورة الذهنية عن أفريقيا.

ثانياً: تســـهم فـــي إبراز دور قـــادة الفكر والنخبة المثقفة في الوطن العربي في تشـــكيل حركة الثقافة الجماهيرية وتوجيهها.

ثالثاً: تكشف لنا عن موقف بعض المفكرين على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم من صورة أفريقيا.

---

١) يوسف فضل حسن،(١٩٨٤م) «الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية» العرب وأفريقيا، ط أولى(بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية)ص ٢٧-٥٣

رابعاً: تتأكد لنا من هذه الأدبيات محورية العلاقة الثقافية بين الطرفين، وما يمثّله البعد التصوّري لدى المثقفين العرب؛ حيث تعدّ هذه المقاربة محاولة تطبيقية لتحقيق حلم بعض المفكرين والباحثين العرب ممن شغلوا بقضايا العلاقات العربية الأفريقية واعتنوا بتتبع مسيراتها؛ حيث طالبوا في كتابات وملتقيات عدة بضرورة القيام بدراسات موسعة عن صورة أفريقيا لدى العرب على مختلف طبقات وشرائح المجتمع.[١]

■ صورة أفريقيا في الذهنية العربية:

ليس هناك خلاف بين الباحثين والمفكرين العرب حول أهمية تناول وضعية الصورة الذهنية للذات العربية والآخرالأفريقي، بل هناك تأكيدات كثيرة على أهمية سرعة تدارك ذلك ومضاعفاته، وأنّ هناك قناعات شبه جماعية على وجود خلل في واقع الصورة بفعل مؤثرات وعوامل متعددة، ولا يمكن معالجة ذلك الخلل إلا عن طريق تتبع وملاحقة روافده، التي أثرت في تكوين تلك الصورة المشوهة.

وقد جاءت الدعوة إلى القيام بذلك مبكراً، فقد أكدت (ندوة العلاقات العربية الأفريقية) في مقرراتها على أنّ» الصورة المتبادلة للشعوب العربية والأفريقية ما زالت في حاجة إلى جهود كبيرة لتصحيحها لدى الطرفين، وأنّ هذه مسؤولية المثقفين والجامعات والباحثين»[٢]، ولم تكن القضية هاجس الباحثين فقط، بل هي لدى النخبة الحاكمة، فالأمير حسن بن طلال ولي العهد الأردني سابقاً، يرى هو الآخر «أنّ صورة الإنسان العربي في الذهن الأفريقي، والأفريقي في ذهنية العربي صورتان مشوهتان، ومن واجب الإعلام العربي والإعلام الأفريقي تصحيحهما».[٣]

■ المعالجة البحثية المستقلة للصورة الأفريقية:

إنّ المعالجة البحثية المستقلة لصورة أفريقيا وقضاياها في الوسط العربي قد أخذت طابعاً موضوعياً صريحاً، سواء الذهنية منها أم الإعلامية، وهي تؤكد وجود حالة تشويه لصورة الإنسان الأفريقي بوصفه شعوباً، وصورة أفريقيا بوصفها قارة ومنطقة جغرافية. صالح أبو أصبع (أستاذ جامعي أردني) في تناوله لواقع التدفق المعلوماتي في سياق الإعلام الدولي، وما أدى إليه من تقديم صورة ثقافية متحيزة ضد أفريقيا وشعوبها، يؤكد على نمطية الصورة السلبية لأفريقيا في وسائل الإعلام العربية والأجنبية معاً؛ بسبب الصورة القاتمة الأشكال التي تعرضها عنها، «نتيجة عدم التوازن في تدفق المعلومات، وعدم الإنصاف في تناول قضايا العالم الثالث، الأمر الذي ترك تأثيرات وانعكاسات سلبية على الدول الأفريقية في شتى المجالات، لعبت دوراً قوياً في إيجاد مناخ غير موات لصالح شعوبها في مجال التفاهم الدولي»،[٤]

وفي تناول أكثر عمقاً لأدبيات التراث الشعبي في الوطن العربي أشار عبد الملك عودة (عميد الدراسات في العلاقات العربية الأفريقية) إلى أنّ هناك بعض الإشارات في

١) مجدي حماد،(١٩٨٤م)» العرب وأفريقيا» مجلة المستقبل العربي (العدد ٦٣ مايو) ص ١٥٢

٢) أحمد يوسف القرعي،(١٩٨٠م)»ندوة العلاقات العربية الأفريقية في الثمانينيات» مجلة السياسة الدولية (القاهرة:مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام)العدد٦٠ إبريل ص٢٠٨

٣) الأمير حسن بن طلال،(١٩٨٤م) العرب وأفريقيا . مرجع سبق ذكره ص١٩

٤) صالح أبو إصبع ،(١٩٩٦م) «الهيمنة الثقافية وحقوق الاتصال في أفريقيا» مجلة الدراسات الاعلامية(القاهرة:العدد٨٧) ص٦٧

التراث والتعبيرات الشعبية المحكية في بعض الأقطار العربية، والتي قد تكون لها مدلولات أو إيحاءات غير مريحة، أو تحمل مفهوماً سلبياً لدى الآخر الأفريقي؛ لأنها- تلك التعبيرات- تميل إلى النزعة العنصرية ضدّ اللون الأسود، وإن لم تكن تلك الإشارات مقصودة بالضرورة، وضرب لذلك بعض الأمثلة من التعبيرات المحلية السائدة والشائعة الاستخدام في التراث الشعبي المصري بالقول: «نحن نقول: نهار أبيض، وخبر أبيض، وغير هذا للمدح وللاستبشار بالخير الحاضر والمستقبل، ونقول: نهار أسود، ووجه أسود(من الكذب)، وغير هذا للاستنكار وللنفور من سوء الحاضر والمستقبل»،[1]

كما يرى عبد الملك عودة أنّ مضمون بعض التراث الثقافي العربي المكتوب أيضاً يحمل تلك النزعة، فيستشهد لذلك بالقول: «على الرغم من الاعتزاز والافتخار بالتراث الثقافي العربي الحضاري المكتوب والمتداول، إلاّ انّ عدداً كبيراً من هذه الكتب والمؤلفات يشير إلى العبيد السود الرقيق الأسود بإشارات وعبارات، وقصص وروايات بدائية تشير إلى الخجل أحياناً ...»،[2] الأمر الذي جعل عودة يذهب معه ليقول: إنّ ذلك من شأنه أن يبرّر الانتقادات الأفريقية في هذا الصدد؛ «لأنّ ما ورد في تلك المؤلفات عن أوصاف الإنسان الأسود، والصياغات التي استعمل فيها قد تعطي مبرّراً لانتقادات الأفارقة غير العرب الموجهة صوب الثقافة العربية، بأنها تحتوي على اتجاهات وقيم عنصرية».

ولعل ما يبرز أهمية تلك الملاحظات أنّ الآخر الأفريقي غير العربي، تكاد تكون أبرز ملامحه عنصر اللون، وهو ما دعمه الاحتلال الأوربي في تقسيمه الجغرافي لشعوب القارة،(أفريقيا شمال الصحراء، جنوب الصحراء)، فالبعد العنصري، المرتبط بعامل اللون يعدّ الأقوى والأبرز في تحديد الآخر الأفريقي في معظم الكتابات الغربية ، ومع الأسف الشديد- في بعض الكتابات العربية المتأثرة بهذه النزعة. ويلاحظ أن الذات العربية والآخر الأفريقي يتفقان في جوانب كثيرة عدا هذا الجانب، على الرغم من وجود مواطنين من ذوي البشرة السمراء في البلاد العربية؛ لذلك يرى كثيرون من العرب ومنهم محمد فائق (وزير إعلام مصري سابق): أنّ مسألة العنصر أو اللون هي أعقد المسائل في وجدان الإنسان الأفريقي، وأنّ الانتماء الطائفي قد لا يمثّل نفس الدرجة من الحساسية،[3]

وفي قراءته الأبستميلوجية (المعرفية) يذهب حلمي شعراوي (خبير مصري في الشؤون الأفريقية) إلى أبعد من ذلك؛ حيث يرى أنّ الإنسان الأفريقي الأسود الزنجي الحبشي كان على مدى تاريخ طويل في عمق الموقف السلبي في الذاكرة المركزية للإنسان العربي، وأنّ التراث الثقافي العربي يشهد له بما ذهب إليه، وقد أورد العديد من الشواهد والحكايات من كتب التراث العربي القديم التي اعتبرها معضدة لرأيه من ناحية، وكشفاً من ناحية أخرى عن صورة العزلة التي يعيشها المثقفون الزنوج بسبب مكانتهم الوضيعة، وصورتهم في الذهنية العربية،[4] في نفس السياق، وعلى ضوء

١) عبد الملك عودة،(١٩٧٩م) «من علامات المستقبل في العلاقات العربية الأفريقية» مجلة المستقبل العربي (العدد١١ أكتوبر)ص١٠

٢) عبد الملك عودة ،(١٩٧٩م) المرجع السابق نفسه ص ١٠.

٣) محمد فائق ،(١٩٨٤م) العرب وأفريقيا مرجع سبق ذكره ص ٩٦

٤) حلمي شعراوي، (١٩٩٩م) «صورة الأفريقي لدى المثقف العربي» ندوة صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه» ط أولى(بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية)ص٢٩٩-٣٩١٠

التطورات والتعاملات المعاصرة بين الأفارقة والعرب يطرح إبراهيم نصر الدين (أكاديمي ونائب رئيس جمعية العلوم السياسية-شمال أفريقيا) يطرح تساؤلاً مباشراً أكثر صراحةً في منتدى علمي في هذا الشأن فيقول:» هل نحن (العرب) نتعامل مع الإنسان الأفريقي الذي يعمل في بلادنا أو الطلاب الأفريقيين الذين يدرسون في جامعاتنا بروح تخلو من هذه النظرة العنصرية؟»، بل أبدى بعض الشكوك والريبة حيال ذلك، واستدرك بالقول» أيضاً أعود وأقول: أشكك كثيرًا في ذلك».[١]

■ اتجاهات النخبة العربية عن صورة أفريقيا:

نظراً لما تمثله قضية صورة الذات العربية والآخر الأفريقي[٢] من أهمية لدى كلا الطرفين على السواء، فقد وفّر ذلك مناخاً ثرياً من النقاشات المكثفة بين الباحثين والمفكرين العرب، حتى على مستوى صانعي القرار السياسي، وقد أفرزت تلك النقاشات مجموعة من المفاهيم والمصطلحات، كما تشير الأدبيات الخاصة بذلك، والتي منها:

١ - الصورة القومية.[٣]
٢ - صورة الشعوب.[٤]
٣ - الصورة الثقافية.[٥]

لقد تباينت الآراء، واختلفت المواقف، وتعددت الاتجاهات التي سادت أجواء مناقشات المفكرين والباحثين العرب في تقييمهم لواقع صورة أفريقيا في الأوساط العربية، ويمكن تصنيف هؤلاء الباحثين والمفكرين حسب رؤيتهم لتلك الصورة إلى ثلاثة فرق أساسية :

أ - فريق يرى أنّ صورة أفريقيا سلبية ومشوّهة. ويمكن تقسيم أصحاب هذا الاتجاه إلى فئتين:

❖ الفئة الأولى: تميل إلى أنّ الصورة سلبية كلها عبر الامتداد التاريخي للتراث العربي، وأنّها في الحالات التي تبدو محايدة في الأوساط العربية، إنما هي مجرد تكتيك لاستغلالها والاستقواء بها في مواقف الضعف أو لبسط النفوذ.[٦]

❖ الفئة الثانية: تميل إلى أنّ الصورة سلبية في جانب من أجزائها، مثل الجانب العنصري في نظرة الإنسان العربي إلى الأفريقي الأسود، وأنّها لا تخلو من نكهة العنصرية في الغالب[٧]، ويركّز الآخرون من هذه الفئة على البعد الإعلامي، بالتأكيد على أنّ هناك سوء إدراك واضح في تناول الواقع الأفريقي باختزاله في مجرد صور تلفزيونية تمثّل طفلاً هزيلاً من اللاجئين وهو يتضوّر جوعاً، أو تجسيد لحرب أهلية هناك.[٨]

ب - فريق يرى أنّ الصورة العربية هي المشوّهة في أذهان الأفارقة، وليس العكس، وذلك عن طريق شعور العداء والكراهية، وعدم الثقة التي يعمّقها اتجاه قائم بين الأفارقة، وكذلك من خلال تقديم إدراك مشوّه للشخصية العربية بالربط بين العرب وتجارة الرقيق، أو وصف العربي بأنه صاحب

١) إبراهيم نصر الدين،(١٩٨٤م) العرب وأفريقيا مرجع سبق ذكره ص ٥٧٥
٢) صبحي قنصوة،(١٩٩٨م)»قضية الهوية وأثرها على الادراك الأفريقي للعالم العربي» ندوة العلاقات العربية الأفريقية (القاهرة: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية)ص٢٠٢-٢٠٤
٣) أحمد يوسف القرعي. (١٩٨٠م) مرجع سبق ذكره ص٢١٠
٤) صالح أبو إصبع .(١٩٩٦م) مرجع سبق ذكره ص ٦٧
٥) حلمي شعراوي. (١٩٩٩م) مرجع سبق ذكره ص ٢٣٤
٦) حلمي شعراوي،(١٩٩٩م) المرجع السابق نفسه ص٢٣٠
٧) إبراهيم نصر الدين ،(١٩٨٤م) العرب وأفريقيا مرجع سبق ذكره ص ٥٧٥
٨) حمدي عبد الرحمن،(١٩٩٦م) «أفريقيا والتنمية المستعصية أي مستقبل؟» مجلة المستقبل العربي (العدد ٢١٢ أكتوبر) ص١٦٠

نظرة دونية للأفارقة غير العرب، أو بالزعم أنّ العرب يريدون استعمار أفريقيا وأنّهم انتهازيون[1]، وهناك من هذه الفئة من يركّز على العامل التاريخي[2]، كما يركز آخرون منهم على العامل الاستعماري والمصادر الأجنبية في استقاء المعلومات[3]، ويعزو البعض الآخر منهم سبب ذلك إلى الإشكاليات المرتبطة بالأطر المفاهيمية التي تحدد الهوية العربية[4].

ج- فريق يرى أنّ الصورة القومية لكلّ من الطرفين مشوّهة لدى الآخر، وهذا التيار هو الغالب، والذي ينتمي إليه أكثر الباحثين والمفكرين العرب، ويطالب أجهزة الإعلام العربية والأفريقية بضرورة التحرك لشرح الارتباط المصيري المشترك بين الطرفين بموضوعية وإسهاب دون وساطة غربية أو شرقية؛ لإزالة التزييف والتحريف والتشويه الموجود في إدراك كل منهما للآخر[5]، وكما هو واضح يحمّل هذا التيار وسائل الإعلام مسؤولية تشوّه صورة الذات القومية لدى الطرفين، وأنّها قصّرت في مواجهة الوضع بما يستحق من عناية، ولم تقدّم صورة حقيقية واضحة عن الآخر العربي أو الآخر الأفريقي[6].

ويبقى في الختام أن نشير إلى أنّ هذه القراءة لا تعدو كونها مجرد مقاربة أولية، ومحاولة جديدة وحديثة في هذا الاتجاه المهم ، نوجّه بها عناية الباحثين والمهتمين بقضايا العلاقات العربية الأفريقية إلى ضرورة اعتماد هذا المدخل الثقافي والإعلامي لتفعيل أطر تلك العلاقات واستغلال إمكاناتها[7] المتاحة، والتي كانت ولا تزال محل عناية العديد من الدراسات والبحوث العربية، وذلك لضمان تحقيق حدوث تفاعل إيجابي ملموس بين الطرفين.

---

١) صبحي قنصوة. (١٩٩٨م) مرجع سبق ذكره ص ٢٠٢-٢٠٤

٢) محمد فائق. (١٩٩٩م) «آفاق العلاقات العربية الأفريقية» مجلة المستقبل العربي (العدد ٢٣٩ يناير)ص٤١

٣) جمال زكريا قاسم. (١٩٨٤م) العرب وأفريقيا. مرجع سبق ذكره ص ٥٣

٤) إجلال رأفت .(١٩٩٨م) ندوة العلاقات العربية الأفريقية. مرجع سبق ذكره ص ٣١٢

٥) عواطف عبد الرحمن. (١٩٨٣م) أفريقيا والرأي العام العربي ط أولى (القاهرة: دار الفكر العربي)ص ٧-٨

٦) مصطفى المصمودي (١٩٨٤م) «البعد الاعلامي في العلاقات العربية الأفريقية المعاصرة» العرب وأفريقيا مرجع سبق ذكره ص ٥٣٧

٧) إبراهيم نصر الدين.(٢٠٠٠م) «التعاون العربي الأفريقي المدركات-السلوك-الإمكانات» مجلة آفاق أفريقية (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات. الجزء الأول العدد الثاني)ص٢٩-٣٥

الأحزاب السياسية في أفريقيا

النشأة، التكوين، الواقع و المستقبل

محمد العقيد

■ مدخل عام :

في ظل الأحداث العاصفة التي طواها القرن العشرين، وضبابية الرؤية المستقبلية يشتد تنافس القوى الكبرى لبسط الهيمنة والنفوذ في العالم، وتحقيق مصالحها ضمن عدة محاور إستراتيجية معلنة أهمها:

١ - التوسع الخارجي في مناطق العالم المختلفة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً.

٢ - تحقيق الأمن القومي بمعناه الشامل.

٣ - تأمين الاحتياجات من الطاقة.

أفريقيا إحدى أهم المطامع؛ فهي أحدث مراكز التسويق العالمية، وأهم مصادر المعادن والطاقة، وأخطرالمواقع الاستراتيجية. ويتوقع أن تكون وجهة رئيسة لتحركات أوباما بعد زيارة بوش لخمس من دولها، وإعلان مشروع (Africom) الذي أعده مركز الدراسات الإسرائيلي الأميريكي، وهو يعد من أهم المشروعات الاستراتيجية بشأن السياسة الأمريكية نحو أفريقيا.

المحاور المعلنة لا تخلو من تهديد ضمني للإسلام والمسلمين في أفريقيا، فلا بد من (...إدراك أن هدف الصراع على إفريقيا ليس فقط مواردها الطبيعية الغنية، وإنما أيضاً عقول أبنائها وقلوبهم، خاصة في زمن الحرب على الإرهاب الذي بات يعني لدى حكومات الغرب «الإسلام المقاوم»)[1]

تمثل هذه المطامع تهديداً لمستقبل القارة وتحدياً لقادتها، بجانب قضايا الاندماج الإقليمي ومشروع الولايات المتحدة الأفريقية، وأزمة الحكم وعدم الاستقرار السياسي، والصراعات والحروب الأهلية، ومشكلات التنمية والفقر والبيئة والصحة، والشراكات الاستراتيجية. تثير هذه القضايا جملة من التساؤلات التي نسعى لتقديم إجابات تقريبية عنها، فيما يتعلق بواقع أفريقيا السياسي وطبيعة

(١) مسلمو أفريقيا.. دروس الماضي والاستعمار الجديد إسلام أونلاين. أحمد علي سالم - أخبار وتحليلات أفريقيا وآسيا ٢٠٠٨/٧/٢٢م

النظم والكيانات الحزبية التي تؤسس للحكم وتوجه مساراته وتؤثر في قدرته على صناعة القرارالاستراتيجي، مدى فعالية الأحزاب ودورها في توفير مناخ سياسي مناسب وتحقيق حكم رشيد وأنظمة قادرة على معالجة مشكلات القارة وتحقيق أمنها واستقرارها وتحررها من التبعية، التوصيف الذي يمكن تقديمه لمستقبل النظام الحزبي والسياسي المرتقب.

تعتمد الإجابة عن هذه التساؤلات على المدخل التاريخي لتجربة الحكم والسياسة في أفريقيا.

■ الأحزاب السياسية في أفريقيا (نظرة تحليلية):

خلفية تاريخية :

أ- حكم الشيوخ:(مؤسسة الجيرونتوقراطية):

الإنسان الأفريقي عرف السلوك الحضاري قبل أكثر من ٣٥,٠٠٠ سنة [١]، وإرث القارة في تجربة الحكم والسياسة من أقدم الموروثات السياسية في العالم، لقد سادت أرجاء القارة منظومة متكاملة من المؤسسات التي حكمت أنماط سلوك الإنسان المختلفة، وتبنت المجتمعات الأفريقية أنظمة سياسية واجتماعية وثقافية متعددة، عكست مضامينها الفكر الفلسفي السياسي للجماعة الذي يعبر عن الموروث القبلي والديني، ويعد مؤشراً للقيم الاجتماعية السائدة آنذاك. كما قدمت التجربة مفاهيم فلسفية وقواعد سياسية عامة مشتركة في القارة كلها، وأثبتت نجاحاً في تقديم نموذج لكيفية صياغة الفكر السياسي في ظل التنوع البيئي والجغرافي والثقافي والبشرى من خلال نماذج الحكم المتعددة التي قدمتها. لقد أسست القبائل الأفريقية لمفاهيم الحكم المباشر لإدارة شئونها من خلال مؤسسة « الجيرونتوقراطية «الأفريقية العريقة (حكم الشيوخ ذوى الحكمة والخبرة والحنكة)، والتي تعد أول مؤسسة لممارسة الحكم والسلطة في التاريخ السياسي للبشرية. تجربة تمثل إرثاً تاريخياً يمكننا في ضوئها تقديم تفسير جزئي لنشأة الأحزاب السياسية المعاصرة في أفريقيا وطبيعتها وطريقة ممارساتها في الحكم والإدارة، وسلوك بعض القادة ومواقفهم، وفهم الصراعات المتجددة في القارة من حين لآخر. وربما أسهمت في إيجاد الحلول كذلك [٢].

ب - وثنية مظلمة.. ونور مشرق: (الممالك الإسلامية):

بعد انتشار الإسلام في أفريقيا قام العديد من الممالك الإسلامية، منها في شرق أفريقيا: سلطنة مقديشو، وسلطنة «كلوة»، ومملكة «شوة الإسلاميّة»، ومملكة «أرابيني»، و «بالي»، و «دارة»، و «داوارو»، «وزنجبار»، و«سفالة»، و «ممبسة». وأصبح الإسلام الدين الرسمي لأغلبية سكان إقليم غرب إفريقيا بنسبة٥٥٪، ويضم الإقليم ست عشرة دولة هي: السنغال، جامبيا، الجابون، غينيا بيساو، غينيا (كوناكري)، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج (كوت ديفوار)،غانا، توجو، بنين، نيجيريا، بوركينا فاسو، مالي، موريتانيا. [٣] عملت هذه الممالك على نشر الحضارة الإسلامية و قيمها في الحكم والإدارة بأسلوب لم تشهده أفريقيا قبل دخول الإسلام إليها، يقول توماس آرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية: (... أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنياً على

١) أفريقيا.. ومنشأ الحضارة الإنسانية الخضر عبد الباقي محمد موقع إسلام أونلاين١١١/٢/٢٠٠٢م

٢) بتصرف من مقال : الإرث التاريخى لتجربة الحكم والسياسة فى إفريقيا د. ميلاد مفتاح الحرائي مجلة السياسة الدولية العدد١٧٣، يوليو ٢٠٠٨

٣) مجلة المجتمع مجلة المجتمع : تقارير تاريخ: ٢٠٠٣/٠٩/٢٧ عرض: بدر حسن شافعي.

الترقي في الحضارة)[1]. بالرغم من أهمية هذه المرحلة (الممالك الإسلامية) في تاريخ أفريقيا الحضاري والسياسي، إلا أنها نالها تهميش مقصود؛ لإخفاء معالم الحكم والسياسة والحضارة الإسلامية فيها، وقد حرص الاستعمار بعد فرض هيمنته في أفريقيا على طمس تلك المعالم، وإن معظم ما قدم من أطروحات نظرية لتفسير قضايا الحكم والسياسة في أفريقيا بعد الاستقلال تعمدت عدم تقديم الفهم الصحيح لأفريقيا ،وأظهرت تحيزاً واضحاً في قراءة وتدوين التاريخ وتحليله وتفسيره، كما تعرضت (...المعلومات والبيانات والإحصاءات المتعلقة بإفريقية في أحيان كثيرة لعوامل التشويه والتزوير خدمة لأغراض معينة، وإثباتاً لسياسات خاصة، وأكثر من قام بذلك الدول الاستعمارية، وذوو الأغراض الخبيثة ممن سار على نهجهم وسياساتهم)[2]

ج – الاستعمار والسعي لإقصاء الإسلام:

١ – اللبنة الأولى للاستعمار:

ضرب النشاط الاقتصادي الإسلامي في البحر المتوسط، ووقف تجارة المسلمين مع الشرق. كان هدف البرتغال في القرن الخامس عشرالميلادي. وبوصول البرتقال إلى الهند عام ١٥٠٢م وفرض سيطرتها على المحيط الهندي وتجارته، وتشيدها القلاع على طول الساحل الأفريقي؛ لتجارة البشر وبيعهم، ونقلهم إلى الأمريكيتين بمشاركة هولندا وبريطانيا وفرنسا، وضعت اللبنة الأولى للاستعمارالأوربي في أفريقيا، الأمر الذي أغرى دولاً أوربية أخرى كهولندا والدنمارك بالتوجه نحو غرب أفريقيا، وتبعتها كل من فرنسا وبريطانيا، ثم ألمانيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي. كما تمكن البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر الميلادي من إخضاع الإمارات الإسلامية على الساحل الشرقي إلى أن تمكن العمانيون من طردهم منها في عام ١٦٩٨م[3]

٢ – مؤتمر برلين واستعمار وتقسيم أفريقيا:

في عام ١٨٨٤– ١٨٨٥م انعقد «مؤتمر برلين» بمشاركة ١٤ دولة أوربية لتقاسم النفوذ والأراضي والثروات في أفريقيا، ومزقت إلى دويلات وفقاً لمعايير إقليمية وقبلية لبسط السيطرة والحكم، فأقامت فرنسا مستعمراتها على أنقاض الممالك الإسلامية في النيجر وغينيا وتشاد والممالك الأفريقية في حوض غينيا والكونغو، كما أسست بريطانيا لمستعمراتها الهامة في نيجيريا في غرب أفريقيا انطلاقاً من دلتا النيجر.» لقد حرص المستعمر على تنحية الشريعة الإسلامية بوصفها أساس الحكم في بلاد إفريقيا المسلمة، وعمل على تطبيق مبادئ القانون الأوروبي في البلاد المستعمرة»،[4] واتسمت مواجهته بطابع العنف ضد حركات الجهاد الإسلامي في أفريقيا، كحركة محمد أحمد المهدي في السودان، و محمد عبد الله حسن في الصومال، وعمل على إفشال محاولات توحيد حركات الجهاد المسلح، وقام بتأليب النصارى ضد المسلمين وعلى إحلال لغاته محل اللغة العربية. لم يكن المستعمر يرى تهديداً في البدائل المحلية الأخرى، بل ربما تصالح معها واستفاد منها في بسط نفوذه، وتهيئتها لتكون بديلاً مناسباً عنه بعد انسحابه. أورث المستعمر القارة بعد خروجه حروباً وصراعات

١) توماس آرنولد (الدعوة الإسلامية في أفريقيا).

٢) الدكتور عبد الملك عودة مقدمة كتاب السياسة والحكم في أفريقيا.

٣) الحدود الاستعمارية وأثرها في مشكلات افريقيا شبكة المشكاة ٢٠٠٤-٠٩-٢١ أ. د. محمود عبد الرحمن الشيخ

٤) بتصرف - مسلمو أفريقيا.. دروس الماضي والاستعمار الجديد إسلام أونلاين. أحمد علي سالم

لا تكاد تهدأ، وخاصة في الدول والمناطق ذات الأغلبية المسلمة كالسودان، والصومال، وتشاد، وشرقي الكونغو، وشمال ساحل العاج، وهي حصيلة التقسيم والسياسات الاستعمارية. اضطر المستعمر للقيام ببعض الإصلاحات في مستعمراته، كشق الطرق وإنشاء الخطوط الحديدية لتسهيل نقل ثروات القارة إلى الخارج، كما أنشأ أنظمة تعليمية وإدارية لتخريج موظفين من الأفارقة يساهمون في ضبط عملية الاستغلال بصورة غير مباشرة، ولتحقيق أهدافه السياسية والثقافية والفكرية (التغريب والاستيعاب)، والتي استهدف بها الإسلام واللغة العربية، ثم لم تلبث بعض تلك النخب التي هيأها المستعمر أن حملت لواء التحرر وقادت بلادها تدريجيا إلى الاستقلال.

٣ – الاستقلال... وظلال التبعية:

بعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدول الاستعمارية في تسليم السلطة السياسية إلى النخب السياسية وحركات التحرر الوطني التي تحولت إلى أحزاب سياسية، وقامت بنقل تجربة مؤسسات أنظمتها الحكومية إلى مستعمراتها مع الإبقاء على بعض أشكال التعبير التقليدية، وسارت الدولة الوطنية على النظام السياسي المعتمد في البلد الأوربي الذي كان يستعمرها. من ذلك ما حصل في البلاد التي كانت تستعمرها فرنسا، كتجربة الأحزاب في السنغال، والغابون، وفي غيرهما. لم يكن الاستقلال الذي أعلن استقلالاً حقيقياً لأفريقيا؛ فكيانها المعنوي، وسيادتها الفكرية كانا لايزالان رهن الاحتلال والاحتواء، وهيمنة النظم التعليمية الأوروبية في الأقطار الإفريقية لم تكن تساعد على تخريج جيل يعي مشكلات أمته الإسلامية، أويهتم بها ويسعى إلى حلها، يذهب نزنجولا نتالاجا (إلى أن الناس العاديين في إقليم كويلو Kwilu في زائير الشرقية بدوا غير مقتنعين بالاستقلال الاسمي الذي تم، ويري أن الدولة الأفريقية الحديثة، ما هي إلا صناعة استعمارية شكلها وصاغها الاستعمار وفقاً لرؤيته ومصالحه. وهي من خلال نخبها السياسية الحاكمة الذين هم بدورهم صناعة استعمارية قد سارت على ذات الدرب.)[1]

٤ – ميلاد النظام الحزبي التسلطي في أفريقيا:

تجربة الديمقراطية التي أقامها الاستعمار في الدول الأفريقية كانت تحمل عوامل الفشل في داخلها؛ ولذلك لم تنجح في تنظيم السلوك السياسي لشعوبها، أو تحقيق الممارسة السياسية الرشيدة لحكامها، وتولد عما أفرزته من توجهات وممارسات سلبية نموذجان للحكم في إفريقيا سادا في فترة ما بعد الاستعمار- ولا يزالان، هما:

الحكم السلطوي للحزب الواحد، والدكتاتورية العسكرية.الأحزاب السياسية.

■ عوامل وأسباب نشأة الأحزاب وتطورها:

من عوامل تشكيل البيئة السياسية ونظمها في أفريقيا التركيبة الاجتماعية بكياناتها، وثقافاتها، وقيمها السائدة، وهي التي حددت كثيراً من المواقف والاتجاهات، والرموز والمعتقدات. تجربة (الجيرونتوقراطية الأفريقية العريقة)، الحضارة الإسلامية وحكم المالك، ثم الاستعمار الأوربي وتجاربه السياسية، والآيدولوجيات والفلسفات السياسية المعاصرة، كل منها له بعض الأثر. وترجع نشأة الأحزاب السياسية الحديثة

١) المجتمع المدني في إفريقيا وآفاق التكامل بين الشعوب الإفريقية عزة عبد المحسن خليل www.aarcegypt.org/Admin/upload/DOCs/MAGTMA%2022.doc

وتطورها في أفريقيا بصورة مباشرة إلى جملة من الأسباب، أبرزها ما يلي:

- حركات التحرر الوطني، وخاصة بالنسبة للجيل الأول من الأحزاب، كالمؤتمر الوطني الإفريقي، والمؤتمر الوطني لزيمبابوي، والمؤتمر الوطني لكينيا، والأباكو الكنغولي. واكب حركات التحرر ظهور بعض القيادات الوطنية، مثل: روبرت موجابي، وكوامي نكروما، وجوموكينياتا، وأحمد سيكيتوري، وكينيث كاوندا، وباتريس لومبا، وجوليوس نيريري، وأخيراً نلسون مانديلا، والذين عادوا إلى بلادهم حكاماً مع تحول تلك الحركات إلى أحزاب تحكم البلاد[1]
- نظام الانتخابات والبرلمانات، والذي أصبح بديلاً عن نظام الوراثة في الحكم؛ حيث ساعد نظام الاقتراع العام وظهور اللجان الانتخابية والكتل البرلمانية على إيجاد أفكار مشتركة تجاه القضايا العامة أدى إلى قيام بعض الأحزاب السياسية.
- الهيئات الدينية والنقابات العمالية ومنظمات الشباب والجمعيات الفكرية، والتي تطورت إلى أحزاب سياسية لتحقق الخدمة لأعضائها بشكل أكبر من كونها جماعات مصالح محدودة.
- بعض الأزمات في التنمية السياسية، كما حصل بالنسبة للكنغو البلجيكية في فترة الاستعمار. فالتطورات الاقتصادية التي حدثت في بلجيكا انعكست علي سياستها في الكونغو.
- الآيدلوجيات المعاصرة، كالشيوعية والاشتراكية، وقد أدت إلى ظهور بعض الأحزاب في مراحل ما بعد الاستعمار أو في بعض الدول التي تأخر خروج الاستعمار منها كجنوب أفريقيا.

■ الطبيعة التسلطية لنظام الحزب الواحد:

الأحزاب الأفريقية، وخاصة الجيل الأول منها الذي أفرزته حركات التحرر الوطني صنفت تحت مسمى: (الحزب الواحد المتسلط)؛ فهي لم تتبن آيدلوجيات معينة؛ فلا تعد من الأحزاب الشمولية، وقد أصبحت الظاهرة الغالبة للنظم الحزبية في أفريقيا عقب استقلال دولها.

ومن أبرز العوامل التي أسهمت في تكوين طبيعتها ما يلي :

أ - سياسات الاستعمار التسلطية في فترة حكمه: والتي ترسخت في صورة ممارسات تعسفية دأبت على تعزيزها الدولة في فترة ما بعد الاستعمار)[2]

ب - طبيعة حركات التحرر: وهي التي أعادت تنظيم نفسها في صورة أحزاب سياسية، حيث لم يكن قادتها بعيدين عن العنف ؛ فدعموا هيمنتهم السياسة وبسط نفوذهم على الحزب والدولة، مع استغلالهم السياسي المؤسسي أحياناً للغة النضالية والشعور الوطني وسيلةً للاحتواء أو الاستبعاد تحت مبررات الهوية القومية.

ت - الثقافة الأفريقية السائدة: كان لتعظيم السلطة الأبوية في المعتقدات الوثنية في أفريقيا أثر كبير في دعم تركيز

١) الأحزاب كالمعادن تنعب : جميل مطر جريدة الخليج الإماراتية الخميس ٢٠٠٨/١٠/٠٢

٢) د. أحمد الزروق الرشيد تأثير الموروث الاستعماري في تأصل ظاهرة التسلط في الدولة ما بعد الاستعمار: إفريقيا جنوب الصحراءأنموذجاً بتصرف

النفـوذ والسـلطة نفسـياً واجتماعياً وسياسياً، وفي توجيه القيم، والمواقف، والاتجاهـات، والرموز وميل السـلطة السياسـية إلـى المركزية التسـلطية، وتبرير ما يكون من سياسـات تعسفية، وخاصة بعد أن لم يعد الخطاب النضالي التحرري مبرراً لمشـروعية سياسية أو مؤسسـية للأحزاب؛ فاتجهت القيادات في استخدام الأشكال التقليدية للسلطة مبرراً لفرض النفوذ، كاسـتغلال موبوتو لفكرة الأصالة، أو الاستعانة بالتقاليد[1]..

ث - القيـادات السياسـية : لعبـت معظم القيادات السياسـية دوراً رئيسـاً في التوجيه والتأطير والتقرير للتسـلطية من خلال فكرها السياسي، وممارساتها العملية، وعدم بسـطها لقيم المشاركة في الإدارة والحكم.

ج - عـدم ملاءمـة الأوضاع فـي الدول الأفريقية في فترة ما بعد الاسـتقلال للرفاهيـة التعدديـة: لقـد اقتصرت التجربة السـابقة على تعبئة الشـعور الوطني ضد المستعمر، و لم تبدأ بعد نظـم الانتخابات، إضافة إلى ما تعاني منـه المجتمعات مـن الفقر وضعف التعليم والوعي السياسي العام.

ح - تحقيق التنمية : كان ذلك أحد المبررات الأساسية لبعض الزعماء الأفارقة في تخليهم عن التعدديـة الحزبية؛ بحجة أن الأولوية للتنميـة وتوفير الخدمات، وليسـت للديمقراطية، وقد أيد عامة الناس هذا الطرح التنموي، ولكن وبعد مـرور ثلاثة عقود من تسـلط الحزب الواحد لم يتحقـق لا الاندماج الوطني ولا التنمية الاقتصادية.

خ - جيل الماركسيين الذين ينظرون للنظام السياسـي كأداة للسـيطرة الطبقية، وتمثيلاً لمصالح الطبقة السـائدة على حساب الطبقة المسودة.

د - الدولة تمثل مصدر التراكم الرئيسي في أفريقيا وليس القطاع الخاص: شجعت هذه الوضعية على بسـط النفوذ على الدولة، وممارسة الاستبداد السياسي، حتى أصبح الوصول إلى السلطة، ومن ثم الهيمنة على مرافق الدولة ومؤسساتها المختلفة الهدف الرئيس على مسـتوى معظم الأحزاب في أفريقيا.

ذ - ضعـف الوعـي الجماهيـري: أفقد القاعـدة قدرتهـا علـى المشـاركة الإيجابيـة فـي العمـل السياسـي والمؤسسـي، وتحمـل مسـؤوليتها في فـرض الرقابـة الاجتماعية على ممارسات القادة والأحزاب، الأمر الذي ساعد على التفرد بالسلطة والنفوذ، بل واسـتغلال القاعدة؛ وذلك لعدم توفر ثقافة سياسية واجتماعية مكرسة للقيم الإيجابية للعمل السياسـي، والسلوك الموجه لدى الإنسان الأفريقي آنذاك.

ر - الولاءات الشـخصية والقبلية: أساس تكريـس الزعامـة الفرديـة والتفرد بالحكم، وربما أحاطت ببعض الزعماء الأفارقة هالة من التقديس، وقد كانت (السـمة الغالبـة على التشـكيلات السياسـية الحزبيـة فـي البلاد هي الشخصنة الحزبية والتفرد).[2]

١) المجتمع المدني في إفريقيا وآفاق التكامل بين الشعوب الإفريقية عزة عبد المحسن خليل

٢) الحدث العربي والعالم: سيدي محمد ولد الشيخ عبدالله http://www.almadapaper.net/paper.php?source=akbar&mlf=interpage&sid=48164

أبرز سمات وخصائص نظام الحزب التسلطي:

١- عدم المنهجية:

الأحزاب التي تولدت عن الحركات الوطنية لم تكن تملك خطة منهجية واضحة للحكم، ولم يكن لديها أي محتوى فكري يتعلق بالدفاع عن الحقوق والحريات والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية أو الوحدة الوطنية، والتنمية الشاملة، كما أنها لم تكن تحمل هم الإسلام في شيء ؛ فمرحلة الكفاح ضد المستعمر لم تمكن للقادة من مهارات الحكم والإدارة؛ فانحصرت رؤى الأحزاب وأهدافها وبرامجها في تحقيق مكاسب قبلية وحزبية، واستمر أسلوب الممارسة والإدارة التسلطية الحزبية الأمر الذي أفقد كلا من الحزب والدولة رصيده من الثقة.

٢- جمود المؤسسة الحزبية:

في ظل الطبيعة التسلطية انعدمت قابلية النمو والحيوية في المؤسسة (الحزب، والدولة)، فعدم وجود منهجية شاملة لممارسة الحكم والسياسة والقيادة والإدارة أدى ليس فقط إلى فشل الحزب في تنمية موارد الدولة وإدارتها، بل في إدارة الحزب لنفسه، وتنمية قدراته المؤسسية والتنظيمية، وتطوير ممارساته السياسية، وقد ضاعف من ذلك بعض العوامل الأخرى، كضعف الإمكانات المادية للحزب، الأحزاب الأفريقية معظمها فقيرة، وتكريس الزعامة الفردية، والخوف من المنافسين، وحداثة التجربة وقلة الخبرة.

٣- الصراعات والتحالفات الداخلية:

الطبيعة التسلطية ولدت داخل الحزب وخارجه، تنافساً حاداً بين الشخصيات النافذة، وصراعاً قوياً على منصب القيادة؛ فظهرت تحالفات داخلية في معظم الأحزاب، أدت في بعض الحالات إلى إقصاء المنافسين أو تصفيتهم كما حدث في جنوب إفريقيا وزيمبابوي وكينيا ودول غرب إفريقيا، وربما تجاوز الأمر إلى الجوانب التنظيمية لكيانات الأحزاب ولوائحها ونظمها بإعادة صياغاتها القانونية لتكريس الفردية، وتبرير التسلط. في المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو يعد من أفضل الأحزاب في أفريقيا (استسلمت التيارات "الوطنية" لهيمنة فئة معينة وقيادات جديدة تحت ضغوط متنوعة،... ظهرت بؤر يديرها أشخاص يحتفظ كل منهم بجماعات خارجة عن القانون ومن ذوي السوابق وبأفراد وشركات أمن من القطاع الخاص لتنفيذ مهام داخلية في الحزب وخارجه،... فقد خرج زعيم قطاع الشباب في الحزب يهدد بقتل من يعارض وصول المرشح زوما إلى السلطة في الموعد الذي قررته قيادة الحزب، أو إذا حاول أنصار الرئيس مبيكي المعزول من هيئة قيادة الحزب التحايل لإبقائه في الحكم فترة أطول)[1]

٤- عدم الشفافية وضعف الرقابة والمحاسبة:

إن تركيز الصلاحيات المطلقة في يد الزعامات الحزبية ساعد على عدم الشفافية، وعدم إمكانية الرقابة والمساءلة، الأمر الذي سهل عملية استغلال الحزب وتسخير إمكاناته وتوظيفها لصالح القيادة وحاشيتها المقربين، وكذلك الدولة ومؤسساتها.

٥- عدم تنمية القيادات :

أسهمت سياسات الاستعمار التعسفية وممارساته في إيجاد مناخ لتكوين قيادات وزعامات سياسية اتسمت بروح المبادرة، والتهيؤ، وحسن التصرف، والإحساس بالمسؤولية، والتصميم والإرادة، والشعور بالواجب السياسي

---

١) الأحزاب كالمعادن تتعب : جميل مطر جريدة الخليج الإماراتية الخميس ,٢٠٠٨/١٠/٠٢

تجـــاه مجتمعاتها .هذه الصفات التي تمثلت في قيادات مرحلة المقاومة أمثال: « نيكروما » و « باتريس لومومبا » و» نيريري » و « سيكاتوري » و « اميلكال كبرال » لم تكن الأحزاب السياسية التي أعقبت تلك المرحلة قادرة على توفير بيئة مناســـبة لتربية قيادات جديدة عليها، بل ربما حالت دون ذلك خوف المنافســـة؛ فكان الجيل الثاني أقل التزاماً بالمبادئ والشرعية، وأضعف قدرة وتأثيراً.[١]

٦- الميلشيات القبلية :

لتحقيق النفوذ والهيمنة وتوفير الحماية كان تســـييس القبيلة (الحزب القبيلة)، وتسليحها تحت مظلة اللافتات الحزبيـــة، بل في الدولة ومؤسســـاتها وأدواتها وقنوات تواصلها، يوجد اليوم في الصومال أكثر من ٢٥ حزباً سياســـياً تتســـم بعصبيـــة حزبية و قبليـــة (٩٩,٩٪ من أعضاء الحزب ينتمون إلى قبيلة واحدة)[٢]

٧- الدعم الخارجي:

فرض ســـلطة النخب والكيانات والأنظمة التي ظلت على ولاء للمســـتعمر بتقديم الدعم الخارجي بكافة أشكاله، ويكون التدخل المباشر أحيانـــاً لفرض هيمنة قيـــادة حزب معين، كما حدث في بعض الدول، أوالمساعدة في القيام بانقلاب عسكري عليه.

٨- الانقسامات المتكررة:

كثيـــراً ما أدي الصراع بين التحالفات ومراكز القوى داخل الحـــزب الواحد، والنفوذ القبلي في البـــلاد إلى العديد من الانقســـامات، وآخرها ما شـــهده الحـــزب الحاكم في جنـــوب أفريقيا من الاســـتقالات المفاجئة لأحد عشـــر وزيراً جاءت نذيراً باحتمال وقوع انقسامات أكبر داخل الحزب.

٩- إلغاء التعددية:

دفعت سياســـات الهيمنة والتســـلط بعض الأنظمة التـــي كانت موالية للغرب للتخلص من التعددية الحزبية منعاً للتنافس، فأخذت بنموذج الحزب الواحد الستاليني، مثل: (نظام باندا في ملاوي، وموبوتو في زائيـــر) [٣]، وفي زمبابوي بالرغـــم من وجـــود ثلاثة أحـــزاب، كان حزب الاســـتقلال الوطني المتحـــد United) UNIP (National Indepence Party هـــو الوحيد المهيمن علي الســـلطة ومع ذلك أصر الرئيس كينيث كاوندا Kenneth Kaund علي أن يتجه نحو دولة الحزب الواحد)[٤]

١٠ - عدم التســـامح والعنف والميليشيات الحزبية:

عـــدم الاعتراف بحق الآخر في الســـلطة، والتخلص منه، فالوســـيلة مبرَّرة لتحقيق هذه الغاية : شـــراء الصوت المعارض، أو إسكاته، وكذلـــك رأي المعارضة في الســـلطة وموقفها منهـــا، وإن جاءت بانتخابـــات نزيهة، لا بد من إفشال إدارتها وبرامجها السياسية والاقتصادية ومشـــروعاتها التنموية، والطرق لذلك عديدة: اختـــلاق المشـــاكل، تعبئـــة الجماهيـــر، بث الإشـــاعات. ولغة الســـلاح والعنف أحياناً في الحمـــلات السياســـية الانتخابيـــة. الأحزاب السياســـية أصبحت تقود العنف وتحرض عليه وتبـــرره («في الصومـــال ٩٩,٩٪ من الأحزاب مســـلحة)»[٥]. عام١٩٩٢م تم إســـقاط طائرة الرئيس التوتســـي الجديد لبوروندي ليقتل في الحادث فحصـــدت الحرب مـــع الهوتو أرواح

١) المجتمع المدني في إفريقيا وآفاق التكامل بين الشعوب الإفريقية عزة عبد المحسن خليل

٢) الديمقراطية والقبيلة في أفريقيا بتصرف

٣) المجتمع المدني في إفريقيا وآفاق التكامل بين الشعوب الإفريقية عزة عبد المحسن خليل

٤) مروى عادل شكري : أفريقيا وآفاق المستقبل. بحث مقدم للندوة العالمية لجامعة النيجر الإسلامية.

٥) (الديمقراطية والقبيلة في أفريقيا. د. أشفيقة ورقة مقدمة إلى الندوة الدولية حول (أفريقيا الحاضر وآفاق المستقبل) نيامي - النيجر ٢٠٠٨ف

الملايين من الطرفين. وصورة الأحداث الدامية في أثناء الانتخابات أو بعدها مشهد متكرر في الساحة الأفريقية ،آخره ما يجري في الصومال في هذه الأيام.

١١ – الانقلابات العسكرية :

بلغت الانقلابات العسكرية في أفريقيا في خلال الفترة من الستينات وحتى عام ١٩٨٠م رقماً قياسياً؛ حيث وصل عددها إلى ١٢٠ انقلاباً، من بينها ٧٩ عملية إطاحة بحكومات على نحو غير دستوري، كما فقد ٢٥ من رؤساء الدول والحكومات الإفريقية حياتهم بسبب النزاعات السياسية منذ فترة الستينات، وكانت السودان وتوجو وغانا من أولى الدول التي شهدت الانقلابات العسكرية بعد الاستعمار، وحظيت نيجيريا ب ٦ انقلابات عسكرية منذ استقلالها. وهاهي الظاهرة بعد أن هدأت لفترة خلت تعود ثانية لتجتاح جزر القمر، وسيراليون، والنيجر، وبنين)[١]

■ حصاد الهشيم (فشل التجربة) :

ما كان لتجربة حملت أسباب فشلها في داخلها أن تنجح، وقد كان من أبرز أسباب فشل تجربة الحزب الواحد المتسلط في أفريقيا ما يلي:

١ – كونها نشأت وليدة ظروف استثنائية قهرية طارئة على البيئة الأفريقية، ولم تكن نتاجاً لتطور طبيعي لنظم الحكم والسياسة فيها، بجانب كونها استنساخاً للنمط الاستعماري في صورة أفريقية، وتجربة مستوردة من العالم الغربي ونظمه، تعبر عن فلسفات وقيم و آليات تحكمها لا تناسب خصوصية الأفريقيين في تكويناتهم النفسية والثقافية والاجتماعية.

٢ – طبيعتها التسلطية : فقد كانت تجسيداً لديمقراطية الهيمنة والسيطرة، وتكريس الفساد والاستبداد السياسي، وسياسات القمع والإكراه المادي التي جعلت منها إقطاعيات تتناسخ على حساب مفاهيم العدالة والحرية والمساواة، وأدوات لمصادرتها بمنع التعبير والمشاركة، وتصفية مكونات المجتمع المدني أو دمجها في مؤسسات الدولة.

٣ – غياب المنهجية والخبرة في إدارة شؤون البلاد، فلم يكن لنظام الحزب الواحد التسلطي أي محتوى فكري وأيديولوجي شامل وفق رؤية واضحة وأهداف محددة وبرامج تكفل الحقوق والحريات والكرامة الإنسانية وتحقق العدالة الاجتماعية، والوحدة والتنمية الشاملة للمجتمعات في أفريقيا، فلم يكن للأحزاب من طموحات في برامجها سوى تحقيق مكاسب قبلية وحزبية محدودة؛ لذلك لم تتقبلها البيئة الأفريقية بعامة،ومؤشرات ذلك:

- التناقض الدائم بين الشعوب الأفريقية وبين أنظمتهم السياسة.
- الاحتجاجات العنيفة، والمقاومة الواسعة ضد الحكومات المنتخبة.
- الصراعات والحروب المحلية المتواصلة في أغلب أنحاء القارة، والتي ارتبطت بظهور الأحزاب وممارساتها.

١) مسلمو أفريقيا.. دروس الماضي والاستعمار الجديد إسلام أونلاين. أحمد علي سالم - أخبار وتحليلات أفريقيا وآسيا ٢٠٠٨/٧/٢٢م

■ حصيلة المرحلة الأولى :

احتفظت دولة الحزب الواحد ما بعد الاستعمار في أفريقيا بكثير من ملامح الفترة الاستعمارية، ولا سيما سياسات القمع والإكراه المادي، وعزلت غالبية الشعب ممن تمت تعبئتهم ضد الاستعمار عن المشاركة السياسية الحقيقية، كما أن مؤسسات المجتمع المدني المتمثلة في الأحزاب والنقابات والمنظمات الشعبية قد حرمت من فرص التعبير عن نفسها، أو تم إدماجها في مؤسسات وهياكل الدولة نفسها، أما قيادات المعارضة فقد تم التخلص منها[1]. لقد أسهم نظام الحزب المتسلط في إيجاد مناخ سياسي سلبي قاد إلى فشل تجربة الحكم وعدم الاستقرار وفقدان الأمن في معظم الدول الأفريقية، ونتيجة للصراعات الداخلية سادت الفوضى أحياناً، حتى في داخل النظام السياسي ومراكزه السياسية الحساسة، ولم يكن بالإمكان حلها داخل الهياكل والمؤسسات الرسمية (تنفيذية – تشريعية – ... الخ). ومن أبرز مؤشرات فشل نظام الحزب المتسلط ما يلي:

١ – الاتجاه نحو تأسيس نمط من الحكم الشخصي وتكريس الزعامة الفردية في النظام السياسي، وحرص الأحزاب والزعامات على تحقيق مصالحها الخاصة عن طريق ديمقراطية الهيمنة والسيطرة، والزج بالمجتمعات في الصراعات الحزبية على السلطة.

٢ – ضعف مؤسسات الحكم التشريعية والقضائية، وفشلها في القيام بوظائفها القانونية والدستورية، وقد أصبحت أداة طيعة في يد النظام الحاكم يستغلها في الحصول على الدعم والتبرير لممارساته.

٣ – استخدام سياسات الكبت والقهر لتحقيق أهداف النظام السياسي وبسط هيمنته ونفوذه، بدلاً من الممارسات السياسية المشروعة.

٤ – ترسيخ ممارسات خاطئة تخلو من روح المسؤولية والأمانة؛ فالغاية تبرر الوسيلة من شراء للأصوات، وحرب الإشاعات، وإثارة الاضطرابات.

٥ – الاستغلال السياسي لبعض قطاعات المجتمع ومؤسساته، وتسييس الكيانات القبلية، سواء من القوى السياسية المحظورة عن الشرعية أم الدولة.

٦ – ترسيخ التبعية للغرب وفتح الباب على مصراعيه للتدخلات الأجنبية، وتدويل القضايا المحلية، وهناك من يذهب إلى (... أنه على رغم اعتماد الدول في إفريقيا على مجابهة الاستعمار، إلا أنها لم تكن سوى امتداد للحكومات الاستعمارية ومثلها غريبة عن المجتمعات الإفريقية. وكانت الإضافة هي أن القوى الاستعمارية وجدت لها إفريقيين يقومون بالأعمال التي تحتاج إليها)[2]، وقد جعل ذلك أفريقيا في تبعية سياسية واقتصادية للغرب عبر سياساته وشركاته وقروضه، وهباته وشروطه، واستغلال أدوات الحكم المحلي كوسائل للسيطرة على الحكومات والأنظمة.

١) الصراعات العرقية والسياسية في أفريقيا «الأسباب والأنماط وآفاق المستقبل. دعبد الرحمن حمدي الجمعة٠١ مايو ٢٠٠٧م , ١٤ ربيع الثاني ١٤٢٨ هـ /http://www.altareekh.com/new/doc/modules.php?name=Content&pa=showpage&pid=918

٢) المجتمع المدني في إفريقيا وآفاق التكامل بين الشعوب الإفريقية عزة عبد المحسن خليل

٧- غيـاب التقاليد والأسـس الواضحة لعملية تداول السـلطة السياسـية؛ و تبني صيغ المنهـج الفوقي في التغيير السياسي باسـتخدام الوسـائل غير السلمية، مثل: الانقلابات، والاغتيالات، والحـروب الأهليـة، أو فرض قناعات آيديولوجية من جانب شخص الحاكم.

٨- التأكيد علـى مفهوم اتفاق الرأي الذي يجسـده التنظيم السياسـي الواحد، واعتبار المعارضة السياسية المنظمة مسألة ترفيه، لا تلائم الواقع الأفريقي.

٩- تفتيت وحدة المجتمع وتماسكه؛ بتوجيه أصوات الناخبين إلى مسـارات ضيّقة وخانقة كالاتجاهـات العرقية والقبلية والولاءات الشـخصية،الأمر الذي أدى إلى توتـر علاقات المجتمـع، وفجر العنف والصراعات والحروبات الأهلية.

١٠- تحول بعض الدول إلى ساحات لتصفية الحسـابات بين الدول صاحبة الشأن، واسـتقطابات، وتباينـات ونزاعـات داخلية، وحروب بالنيابة.

١١- تعثر وفشـل مسيرة التنمية في جوانب الحيـاة المختلفـة، وتـردي الأوضاع الاقتصاديـة والاجتماعيـة في معظم الدول الأفريقية.

١٢- ظهور طبقات مسـتفيدة مكنت للنفوذ الخارجي، وأعطته دوراً فعالاً في التأثير على التدفقات السياسية والاقتصادية الأمر الذي جعل القارة نهباً للمؤسسات المالية الدولية، وفي مقدمتها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وخاصة في فترة السبعينيات والثمانينيات.

١٣- الربط بين المنصب السياسـي العام، وتحقيق الثـروة والمكانة في المجتمع؛ بحيث أضحت النخبـة الحاكمة تمثل طبقـة اجتماعيـة متميزة في سـياق التمايزات المجتمعية.

■ فشل التعددية السياسية (المرحلة الثانية) :

التحـول إلـى التعددية الحزبيـة (نظام الانتخابـات والتمثيـل السياسـي والمجالس البرلمانية) نمط آخر من الاسـتعمار، وأسلوب فـرض علـى أفريقيا كشـرط للمسـاعدات الاقتصاديـة والإعانات والقـروض والهبات، وتحت ضغـوط العزل والحصـار والتهميش، فأصبحت أفريقيا نتيجة تطبيقاته أمام تحديات تهدد أمنها الاجتماعـي والاقتصادي، وويلات عنف وصراع بين أحزاب مختلفة، وحروب بين قبائل كانت متعايشـة متجاورة ؛ حيث اتسعت دائرة رفض نتائـج الانتخابات وإن كانت نزيهة مع إثارة الفوضى والتمرد والإطاحة بالقيادات المنتخبة قبل إتمام مهامها الدستورية.اجتاحت الظاهرة معظم الدول الأفريقية التي قامت فيها انتخابات وفق التعددية الحزبية، مثلما حدث في بورنـدي والكنغو الديمقراطية والكنغو برازفيل وكينيا وزيمبابوي، وكذلك اندلاع أعمال العنف والصراع الداخلي في سـيراليون، والسودان، والصومال وأنجولا، وهكذا الحال في موزامبيق، وليبيريا، وموريتانيا الـخ. كل الدول الإفريقية التي شـهدت انتخابـات برلمانية ورئاسـية بحضور مراقبين أمميين ودوليين لم تنتج فيها الانتخابـات غير الاتهامات المتبادلة بالتدليس والتزوير، وفتحت البـاب على مصراعيه أمام التدخلات الأجنبية، كما حـدث، ويجري الآن في الصومال (قوات أممية وأفريقية، وأمريكية، وأثيوبية...)، ورواندا، وتشاد، والسودان. علقت صحيفة الشـعب الصينية علـى الديمقراطية

الليبرالية وتطبيقاتها في أفريقيا، «...إن العنف في كينيا الذي حصد أكثر من ١٠٠٠ شخص ما هو إلا دليل على أن الديمقراطية على النمط الغربي لا تناسب الظروف الإفريقية ولكنها تحمل معها جذور الكارثة.

تلك كانت النتائج، لقد فشلت تطبيقات الديمقراطية الليبرالية والتعددية السياسية في أفريقيا، والديمقراطيات المزيفة التي أنتجت العنف وجعلته ملازماً لأي عملية انتخابية، ومن قبلها تجربة نظام الحزب المتسلط، فهل ثمة من بوارق أمل في الإصلاح؟!

■ مطالب ودعوات للإصلاح بعيداً عن النظم الحزبية :

تشتد الضغوط من الدول الغربية لإبقاء أفريقيا تحت الهيمنة في إطار الديمقراطية وفق التعددية الحزبية التي تدفع لها أفريقيا دفعاً في إطار عولمة الديمقراطية عبر الموجة الثالثة، كأسلوب للحكم، وطريقة للحياة والتطور، أو وسيلة للإصلاح والتقدم بالرغم من تأكد فشلها؛ « فهنالك أكثر من ٢٦ دولة أفريقية شهدت منذ مطلع تسعينات القرن الماضي انتخابات تعددية، تشهد اليوم صراعات مسلحة ومواجهات دموية للوصول إلى السلطة، وتعيش حالة من الفوضى والحروب والمجاعات واللاجئين، (زيمبابوي، كينيا، الصومال رواندا، بورندي، أنجولا، السودان، تشاد، الكنغو...الخ»[١].

في ظل هذا الواقع تتعالى أصوات شعبية ورسمية على كافة المستويات، منادية بضرورة إيجاد أسس جديدة للحكم في أفريقيا، لحماية الحقوق وتحقيق العدالة بعيداً عن النظام الحزبي. هنالك دعوة ببناء اشتراكية تستند إلى القيم والعادات الإفريقية القديمة، وإلى مبادئ المساواة الاجتماعية والسياسية، وغير ذلك من المفاهيم والالتزامات التي كانت تسود المجتمعات القبلية الإفريقية.

ودعوة أخرى إلى الجماعية في ممارسة السلطة، وأنها الوسيلة الفعالة لتحقيق مصالح الشعب مباشرةً، تحقق القيمة الاجتماعية للإنسان، وتصون آدميته، تنادي هذه الدعوة بالأخذ بنظام (الإفروقراطية)، بصفتها نمطاً أفريقياً جديداً في الحكم، يحافظ على تراث الحكم الفردي الشمولي، و يسمح ببعض ملامح الديمقراطية الليبرالية، والغرب لا يرفض هذه الأشكال السلطوية طالما أنها لا تتعارض مع مصالحه الاستراتيجية في القارة)[٢].

أطروحات هي أقرب إلى الشعارات منها إلى منهجية شاملة للحكم ؛ فالأفروقراطية ليست إلا دعوة توفيقية عامة للتأليف بين نظام الأنتوقراطية والديمقراطية الليبرالية، وحظها من الفشل لن يكون أقل مما حصل لمحاولات شبيهة، وجماعية ممارسة السلطة فكرة فيها قدركبير من عدم الواقعية، وخاصة بالنسبة للبيئة الأفريقية، ولا يتصور قيام بناء اشتراكي يكون مضمونه القيم والعادات الإفريقية القديمة، ومبادئ المساواة الاجتماعية والسياسية، وغير ذلك من المفاهيم والالتزامات التي كانت تسود المجتمعات القبلية الإفريقية، إذ لم يعد ما يمكن أن يسمى بناءً اشتراكياً.

وتبقى حقيقة الإصلاح السياسي وضرورته، وشروطه وأدواته ووسائله مسائل شائكة ومعقدة لاتصالها بتقاطعات مصالح الداخل والخارج ومطالبهما، وفي

١) الديمقراطية والقبيلة في أفريقيا. د. أشفيقة ورقة مقدمة إلى الندوة الدولية حول (أفريقيا الحاضر وآفاق المستقبل) نيامي - النيجر ٢٠٠٨ف

٢) د. أشفيقة الطاهر الديمقراطية والقبيلة في أفريقيا ورقة مقدمة إلى الندوة الدولية حول (أفريقيا الحاضر وآفاق المستقبل)

غيـــاب نظريـــة متكاملة ذات رؤيـــة تحليلية كلية، تشـــخص الواقع السياسي والاجتماعي الأفريقي وتنظمه، تبقى أفريقيا مغلوبة على أمرها حائرة في مآلها. إن هذا الواقع الذي أنتجته تجربـــة النظام الحزبي، كما أنه يمثل عقبة في طريق التنمية الاقتصادية، فهو عقبة كذلك في طريق التنمية السياسية، وقد كان مبرراً كافياً لتأجيل فكرة الولايات الأفريقية (... أكـــد العديد من الزعمـــاء الأفارقة أن الوحدة الإفريقية حلم نبيل، ولكنه غير واقعي في الظروف الراهنة التي تعيشها دول القارة الإفريقية من نزاعات إقليمية وحروب أهلية، وفي وقت ما تزال ترزح فيه العديد من الدول الإفريقية تحـــت تأثير ماضٍ مـــن الحروب والانقســـامات العرقية والإثنية الموروثة منذ عهـــود الحقبة الاســـتعمارية، ووجود تفاوت كبيـــر في بنيـــة الأنظمة السياســـية للدول الإفريقية، من حيـــث المحتوى الديمقراطي والتعددية السياسية والقوانين الانتخابية.)[1]

إن الإصلاح السياســـي فـــي أفريقيا في حاجة إلـــى منظومـــة متكاملة مـــن النظم المتجانســـة ضمن إطار شـــمولي يجد فيه الفـــرد والقبيلة والمجتمع، مـــا يوحد الغاية والوسيلة والسلوك، فهل يملك نظام سياسي غير الإســـلام أن يحقق ذلـــك، بعدما أخفت تجربـــة الحزبيـــة الديمقراطية في شـــتى صورهـــا (نظام الحزب الواحد التســـلطي، ونظـــام التعدديـــة الحزبيـــة). ؟ هل يمكن أن يُطـــرَح الإســـلامُ بوصفه حلاً شـــاملاً، تؤيـــد ذلك الشـــواهد التاريخية، في تحقيق الإسلام ما عجزت عنه الديمقراطية الزائفة والدكتاتورية المتسلطة من الأمن والاستقرار في عهد الممالك الإســـلامية التي قامت في شـــرق أفريقيا وغربها قبـــل أن يأتي عليها طوفان الاحتلال الغاشم؟

١) القمة الإفريقية التاسعة في أكراحلم كوامي نكروما بالوحدة قيد التأجيل بسقف مفتوح أبيض وأسود القسم السياسي العدد ٢٠٩٤. http://www.awaonline.net/index.php?action=show&type=news&id

المشهد الأفريقي

في المشهد:

- منظمة إنسانية أم استخباراتية ؟؟؟
- لا مؤامرة !! فقط ترتيب الأدوار
- تجنيد دول

■ لا مؤامرة!! فقط ترتيب الأدوار:

زار زعيم التمرد في دارفور عبد الواحد محمد نور إسرائيل مؤخراً، لترتيب دوره ضد الحكومة السودانية، فيما يخص قضية دارفور، وذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية على موقعها الإلكتروني اليوم أن عبد الواحد التقى أثناء الزيارات برئيس مكتب الأمن السياسي في وزارة الدفاع الإسرائيلية عاموس جلعاد، كما التقى مجموعة من اليهود الأوروبيين معظمهم فرنسيون مهتمون بقضية دارفور. وفي سياق مكمل أعلن في الخرطوم أن السلطات السودانية رصدت تحركات مكثفة لدبلوماسيين ورجال مخابرات على الحدود الغربية للسودان يسعون لدفع القبائل نحو التمرد لإفشال أي جهود للمصالحة.

الجزيرة نت ١٦- فبراير٢٠٠٩ م

■ تجنيد دول:

أعلنت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن وزير الخارجية ليبرمان سيقوم بجولة إفريقية خلال أشهر هذا الصيف، إضافة إلى جولة في عدد من دول أميركا اللا تينية . و يسعى ليبرمان من وراء جولته تلك إلى تجنيد دول إفريقية ولاتينية لتأييد إسرائيل في عدد من الملفات الساخنة، وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

السبيل الأردنية - ٢٥أبريل ٢٠٠٩م

■ منظمات إنسانية أم استخباراتية:

على خلفية طرد السودان لمنظمات غربية عاملة في دارفور لقيامها بأعمال مشبوهة، برز اتجاه قوي داخل القارة الإفريقي يقضي برفض التعاون في المجالات الإنسانية مع عدد كبير من الدول الأوربية خاصة بعد التأكد من المعلومات التي تربط العديد من المنظمات بصلة مباشرة مع محكمة الجنايات الدولية، وجهات استخبارية غربية.

وكالة القرن الأفريقى للأخبار- ٢٤ مارس٢٠٠٩ م

■ انتهاك القوانين:

أعلن وزير الثروة السمكية الصومالي أن أكثر من ٢٠٠ سفينة صيد، معظمها مملوك لشركات أوروبية، تمارس نشاطها بشكل غير قانوني في المياه الصومالية.

موقع إذاعة هولندا العالمية -٢٤ أبريل٢٠٠٩

- 15 مليار دولار إجمالي الاستثمارات الأجنبية المباشرة في إفريقيا جنوب الصحراء، التي جاءت من دول الخليج وشركاتها، خلال الفترة من 2007م وحتى منتصف 2008م، بحسب مركز الأبحاث الخليجي ومقره دبي.
- 10 مليار فرنك (20 مليون دولار أمريكي) قيمة القرض الذي قدمه مصرف غرب إفريقيا للتنمية للنيجر لتمويل برنامج كانداجي للتجديد البيئي وتطوير وادي نهر النيجر.
- 36 منصباً بارزاً في فريق أوباما الإداري تشغلها نساء أميركيات من أصول إفريقية، يعتقد أن له صلة باختلاف في التوجهات الاستراتيجية لإدراة أوباما نحو إفريقيا.
- في عام 2008م، ساهمت دول مجلس التعاون بنحو 840 مليون دولار من مبلغ 5.8 مليارات دولار خصصت لإفريقيا بصورة مباشرة، وفقًا لنظام الأمم المتحدة للتتبع المالي للمساعدات الإنسانية في العالم. غير أن هذا التقدير يبقى منخفضًا لسببين. أولا: غالبًا ما يبخس نظام التتبع المالي تقدير المساعدات إذ لا يتم الإبلاغ عن بعضها. على سبيل المثال، لا تؤخذ أنشطة الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية في الحسبان. وقد تبرع الصندوق بأكثر من 210 مليون دولار للبلدان الإفريقية في عام 2008م فقط. ثانيًا، ينطبق هذا النقص في الحساب على الدول الخليجية على وجه الخصوص حيث لا يزال المانحون حتى الآن خارج «نادي المانحين» الدولي وحيث ترسل المساعدات تقليديًا عبر آليات أهلية مثل الهلال الأحمر.

- اعترفت منظمة اليونيسيف في تقريرها عن العمل الإنساني في 2009م أن الجوع ونقص التغذية لدى الأطفال لا تزالان مسألتين هامتين في النيجر. ففي بعض المناطق، تصل نسبة الأطفال المصابين بسوء التغذية الحاد الذين تقل أعمارهم عن خمس سنوات إلى حد يثير القلق وهي 15.7 في المائة. كما أدى تفشي الكوليرا والتهاب السحايا على نحو متكرر، بالإضافة إلى الفيضانات، والعمليات التي تقوم بها الجماعات المتمردة في الشطر الشمالي من النيجر، إلى تشريد قرابة 15.000 شخص، وأثرت كثيراً على حياة الأطفال والنساء في أرجاء البلد. ويتوقع أن يموت طفل واحد من أصل خمسة قبل بلوغه الخامسة من العمر، بينما تعد نسبة وفيات الأمهات من أعلى المعدلات في العالم البالغة 650 وفاة لكل 100.000 ولادة حية.
- ضمن توقعات المحاصيل وحالة الأغذية أعلنت منظمة الأغذية والزراعة « الفاو » أن الأزمات الغذائية لدى 32 بلداً حول العالم ستتواصل. ففي شرق إفريقيا، يواجه أكثر من 18 مليون شخص حالة خطيرة من انعدام الأمن الغذائي بسبب القلاقل أو الصراع أو الأحوال الجوية، ولجملة هذه الأسباب مجتمعةً. وفي جنوب إفريقيا وحدها يُقدر العدد الكلي للسكان الذين يواجهون أوضاعاً مزعزعة ذات صلة بالأمن الغذائي بنحو 8.7 مليون نسمة. وبوجه خاص يظهر الوضع في كينيا والصومال وزيمبابوي خطيراً على هذا الصعيد، بسبب هبوط الإنتاج المحصولي إثر المواسم الجافة، والقلاقل الأمنية، والأزمات الاقتصادية.

في المشهد:

الصراع على أفريقيا

إن أوروبا لا تريد أن تفوّت فرصة الانخراط القوي والحضور الفعّال على المسرح الدولي، لمعاودة ممارسة دور الشريك القوي وليس دور الشريك الشكلي التابع، وأوروبا تعلم – بعراقتها السياسية ودهاء بريطانيا فيها ونزوع فرنسا وألمانيا إلى العظمة وتكرار تاريخ القوة – أنها اليوم قادرة على تحريك الملفات على طريقتها، وأن أمريكا مجبرة على غض الطرف ومجاراتها. فأوروبا حرّكت ملفات الصومال لمزاحمة أمريكا، وهي اليوم تحرك ملف دارفور في السودان، وتحرّك ملفات عديدة في إفريقيا، للمشاركة في كعكة خيراتها التي لا تنضب.

د. ماهر الجعبري موقع العربية نت
٢٢ مارس ٢٠٠٩م

إن اهتمام الولايات المتحدة بالنفط الإفريقي يعود إلى المنافسة التي أبدتها الصين في القارة، وإلى الكلفة الضعيفة لنقل النفط والغاز من غرب إفريقيا، عبر الأطلسي إلى السواحل الأمريكية، مقارنة بنفط الخليج العربي... أما المبادلات التجارية الإفريقية/الأمريكية، فإن ٨٧٪ منها متكونة من النفط ومشتقاته، ومن حيث الكم فإن الاحتياطات النفطية في ليبيا تقدر بـ٤٠مليار برميل وفي نيجيريا بـ ٣١مليار برميل وفي الجزائر بـ ١٢مليار برميل وأكثر من ٣مليار برميل في بقية البلدان المحيطة بالصحراء، وعموماً فإن الإنتاج الحالي يعادل ٦ملايين برميل يومياً في منطقة خليج غينيا، الممتد إلى نيجيريا وأنغولا. أما نفط التشاد والكامرون فإنه يصل الأطلسي عبر أنابيب تضخ ٢٥٠ألف برميل يومياً، مرشحة للزيادة.

الطاهر المعز عن موقع الجيران
١٣ أبريل ٢٠٠٩م

تحظى القارة الإفريقية بأكبر نسبة تمثيل دبلوماسي إسرائيلي على مستوى العالم؛ حيث إن نسبة البعثات الدبلوماسية الإسرائيلية في إفريقيا مقارنة ببعثاتها في العالم تصل إلى (٤٧٪) وذلك في عام ٢٠٠٨م، كما أن عدد الدول الإفريقية التي ترتبط إسرائيل بتمثيل مقيم معها بدرجة سفارة (١١)، وعدد الدول التي ترتبط إسرائيل معها بتمثيل غير مقيم (٣١)، وعدد الدول التي ترتبط بعلاقات دبلوماسية على مستوى مكتب رعاية مصالح (١)، أما عدد الدول الإفريقية التي ترتبط بعلاقات مع إسرائيل على مستوى مكتب اتصال (١)، وذلك فى مقابل ٩ دول إفريقية فقط لا ترتبط بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

حسين حمودة التقرير الإستراتيجي الإفريقي
الإصدار الخامس - القاهرة

تقف الإدارة الأمريكية مع السعي الإثيوبي لإضعاف الصومال، إذ ما زالت تعتبر الحكومة الإثيوبية «شريكاً» مهمّا في القرن الإفريقي مما يبعد حدوث أي تغير ملموس في السياسة الأمريكية تجاه الصومال إلى حين سقوط أو تفكك نظام زيناوي، وعلى الأرجح إذا ما حدث مثل هذا التفكك، فقد تعيد الولايات المتحدة النظر في سياساتها تجاه الصومال.

مايكل وينشتاين خبير الشؤون الصومالية في مداخلة له في مؤتمر حول التطورات في الصومال والذي عقد في واشنطن برعاية برنامج أفريقيا في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن.

موقع الصومال اليوم
٢١مارس ٢٠٠٩م

إن اتفاقيات الشراكة الاقتصادية» التي يفرضها الاتحاد الأوروبي علي دول إفريقيا والكاريبي والهادي تنطوي علي «أجندة غير تنموية»... إن كافة أهداف الألفية تتأثر سلباً بالمبادئ الاقتصادية التي تروج دون تمييز وبموجب اعتبارات خارجية، كل من الليبرالية والخصخصة، اللتين تتميز بها اتفاقيات الشراكة الاقتصادية هذه.. إن أوروبا تفرض هذه الاتفاقيات على مستعمراتها السابقة في إفريقيا والكاريبي والمحيط الهادي، وأن هذه الاتفاقيات ستضم هذه الأقاليم في منطقة تجارة حرة مع أوروبا، وتتيح لقطاع الأعمال الأوروبي صفقات احتكارية ضخمة، [ما] يتعارض مع جهود التنمية». وبلا أدنى شك ستدمر الاتفاقيات الأوروبية قطاعي الزراعة والصناعة في إفريقيا، وستمنح أوروبا سلطة ونفوذاً على السياسات الاقتصادية في دول إفريقيا والكاريبي والهادي، وتحول حكامها إلي مجرد مديرين محليين لمصالح الشركات الأوروبية وأرباحها». كما أكد أن هذه الاتفاقيات «ستقتل كل طموحات التكامل الإقليمي في إفريقيا، والعلاقات بين الجنوب والجنوب. بل ولقد أدت بالفعل إلي تقسيم وحدة الصف الإفريقي، ففي غرب إفريقيا علي سبيل المثال، كسرت غانا وساحل العاج الوحدة الإقليمية بموافقتها علي اتفاقيات شراكة مع أوروبا".

تصريح توماس ديف الخبير ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي لوكالة انتر بريس سيرفس عن جريدة قاسيون السورية
١٥ إبريل ٢٠٠٩م

هم إذن، صيّادو سمكٍ عاديون، استخدموا زوارقَ سريعةً للمرة الأولى، بُغْيَةَ إبعادً سفن الانفايات وسفن الصيد، أو لفرض ضريبة عليها على الأقل. كانوا يُطْلقون على أنفسهم «حرس شواطئ الصومال المتطوعين»، يقول أحد زعمائهم ويدعى «سيغول علي»، إن دوافعهم كانت تتمثّل «في منع الصيد وإلقاء النفايات في مياهنا. نحن لا نعتبر أنفسَنا لصوص بحر. لصوصُ البحر هم أولئك الذين يصطادون أسماكنا ويلقون النفايات ويحملون الأسلحةَ في مياهنا»، لكن بعضهم بالطبع رجال عصابات حقاً، وخاصة أولئك الذين أوقفوا برنامج الغذاء العالمي. «القراصنة» يحظون بتأييد السكّان الصوماليين لسبب وجيهٍ، وقد أجرى موقع الأخبار الصومالي المستقل، «واردهَر نيوز»، استبياناً أظهرَ أن ٧٠ في المئة من السكان «يؤيدون القرصنةَ تأييداً شديداً، باعتبارها شكلاً من أشكال الدفاع الوطني عن مياه البلد الإقليمية».

يوهان هاري في «الإندبندنت» البريطانية تحت عنوان قراصنة الصومال .. الصورة الأخرى
نقلاً عن صحيفة الدستور الأردنية
١٧ إبريل ٢٠٠٩م

الناتو.. ذراع جديدة لتطويق القلب العربي:

بعد مصادقة مجلس الأمن الدولي في الثاني من يونيو ٢٠٠٨ م على القرار رقم ١٨١٦ الذي منح الدول حق إرسال سفن حربية إلى مياه الصومال الإقليمية لمكافحة ما يعرف بالقرصنة، قرر حلف الناتو إرسال سبع من بوارجه الحربية إلى القطاع الجنوبي الغربي من بحر العرب، وكانت فرنسا قد طرحت في

ميلاد جديد

أعلنت أربعة تنظيمات في إريتريا عن تشكيل «جبهة التضامن الإريترية» التي تهدف إلى وضع خطة عمل لاستنهاض قوى الأمة واستعادة الحقوق المسلوبة ومحاربة الجهل والتخلف والتأكيد على أن إقصاء الدين يعتبر مسخاً للهوية وتهديداً للقيم.

وتضم الجبهة «حركة الإصلاح الإسلامي الإريتري» و«الحزب الإسلامي للعدالة والتنمية» و«جبهة التحرير الإريترية» و«الحركة الفيدرالية الديمقراطية». واختير الشيخ أبو سهيل الأمين العام لـ«حركة الإصلاح الإسلامي الإرتري» رئيساً للجبهة الجديدة في هذه الدورة، حيث من المقرر أن يتم التناوب على هذا المنصب بين التنظيمات الأربعة.

ودعا البيان التأسيسي كافة النخب والقيادات الدينية والاجتماعية الإريترية «لدعم هذا المشروع الوطني والتحضير لعقد مؤتمر جامع ينبثق عنه كيان وحدوي جبهوي وصولاً للغايات التي تنشدها أمتنا لتصبح إرتريا وطناً يستوعب جميع أبنائه في محبة وسلام ووئام واستقرار».

موقع الصومال اليوم – ٣ مايو٢٠٠٩م

زيارة تحضيرية للمؤتمر الثاني لتنصير إفريقيا

وفق ما أعلنته إذاعة الفاتيكان عن زيارة بابا الفاتيكان بندكتوس الـ١٦ لثلاثة بلدان إفريقية، هي: الكاميرون وأنغولا ورواندا، منتصف شهر مارس الماضي، أن القصد من الزيارة تثبيت الإيمان في الكنائس الكاثوليكية الإفريقية (الحيلولة دون ترك الناس خارج النصرانية وربما دون الدخول في الإسلام)، ودفع عجلة نموها على مختلف الأصعدة (التنصير)، وقد جاءت الزيارة تمهيداً للمؤتمر التنصيري الثاني الخاص بتنصير إفريقيا الذي سيعقد في الفاتيكان في أكتوبر ٢٠٠٩ م تحت عنوان: السينودس (المجمع الكنسي) الثاني من أجل إفريقيا.

و في الكلمة الترحيبية بالبابا قال الرئيس الكاميروني: تزورون لأول مرة الكاميرون.. شعب الكاميرون بأسره يرحب بقداستكم بفرح ويتشرف بحضوركم. إنه يعتبر زيارتكم امتيازاً استثنائياً بالنسبة للكاميرون،إن أعمال أول سينودس أساقفة من أجل أفريقيا، اختتمت مسبقاً في الكاميرون عام ١٩٩٥م، مع تقديم الإرشاد الرسولي ما بعد السينودس «الكنيسة في إفريقيا» من قبل سلفكم الموقر. لقد شاءت العناية أن تكون زيارتكم مناسبة لنشر جدول العمل، للتحضير للجمعية الثانية الخاصة لسينودس الأساقفة من أجل أفريقيا، المرتقب في روما في أكتوبر المقبل. اسمحوا لي أن أعبر عن سروري بأن الكاميرون باتت أرضاً سينودوسية، منها يمكن مخاطبة كل إفريقيا.

وقد عممت وثيقة ما يعرف بـ: «الخطوط العريضة» للمقررات المقترحة على مختلف الكنائس الكاثوليكية في عموم إفريقيا من أجل إنضاج خطة شاملة للتنصير خلال العقد القادم في إفريقيا، الواضح من كلمة البابا لأساقفة الكاميرون الاهتزاز الواضح في الإيمان الكنسي في القارة السوداء التي كان من المخطط لها في السينودس الأول في ١٩٩٥م أن تصبح قارة مسيحية.

موقعي إذاعة الفاتيكان وزينيت التنصيري

الملتقى الأول للإذاعات الإسلامية في أفريقيا

أقيم ملتقى للإذاعات الإسلامية في أفريقيا في مدينة الخرطوم بجمهورية السودان خلال الفترة ٣/٢٥ - ١٤٣٠/٣/٢٩هـ الموافق ٣/٢٢ - ٢٠٠٩/٣/٢٦م، يهدف الملتقى إلى الإسهام في تطوير الإذاعات فنياً وإدارياً ودعوياًوفكرياً، والإسهام في تأهيل القائمين عليها، وإمداد الإذاعات بمواد وخطط إذاعية.

وقد اشتمل برنامج الملتقى على دورات تدريبية، وعرض للتجارب والخبرات، ولقاءات استشارية مع المتخصصين، وحلقات نقاش وورش عمل.

وقد وصل عدد المشاركين في الملتقى إلى ٣٩ مشاركاً، من ٢٧ إذاعة إسلامية، موزعة على ١٧ دولة أفريقية، وكان مجموع ساعات العمل في الملتقى ٦٠ ساعة.

■ نقاط ثقافية

- أعلنت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسسكو عن العاصمة التشادية نجامينا، عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٩ م للمنطقة الإفريقية، وقد شهدت نجامينا عددا من الفعاليات النخبوية والشعبية التي عبرت عن الابتهاج بهذا الاختيار.

عن موقع الإيسسكو

- كثير من الكتاب يستخدمون كلمة إفريقيا ويعنون بها اللون وبالتحديد الأفارقة السود بينما أصل الكتابة ليس مرتبطاً بأي لون فإفريقيا كانت تطلق في الكتابات العربية القديمة على تونس، ويقال أنها نسبة إلى الملك العربي الحميري إفريقيش بن قيس بن صيفي، كما قال ذلك ابن خلدون وابن حزم وغيرهما، وحالياً أصبحت وطناً تاريخياً وجغرافياً للكثرة الكاثرة من الشعوب القومية عرباً كانوا أم سوداً.
- بقي من معالم الحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا الكثير: بقي الدين في القلوب والقرآن في الصدور، و بقي نسيج الحياة المتصل بالعقيدة في السلوك الاجتماعي الروحي، بقي الانتماء العرقي الذي تمازجت فيه الدماء العربية بالدماء الإفريقية، بقي التراث الضخم من الإنتاج الفكري و العلمي و الثقافي الذي أنتجته العقول و المواهب الإفريقية إسهاماً أصيلاً إلى الميراث العربي الإسلامي. كما بقي أثر الحضارة والثقافة العربية في الفن المعماري في غرب إفريقيا، ولا يزال ذلك النمط العربي الأندلسي في بناء الجوامع والمساجد وبعض قصور الملوك خير شاهد، و في شرق إفريقيا تأثرت العمارة بالنمط الخليجي والذي يقوم دليلاً حياً حتى الآن في الصومال وتنزانيا وكينيا في الآثار القديمة هناك .

د. محمد عبد الرحمن الباشا عضو هيئة تدريس بجامعة عمر المختار بليبيا

في المشهد:

- بطاقة إفريقية

جمهورية تشاد

معلومات عامة:

العاصمة	أنجمينا
الديانة	٩٣٪ مسلمون - ٥٪ نصارى - ٢٪ أخرى
اللغة	العربية ثم الفرنسية
المساحة	١,٢٨٤,٠٠٠ كلم٢
عدد السكان	١٠ مليون نسمة
نظام الحكم	جمهوري
العملة	الفرنك الإفريقي
المذهب	المالكي
عدد المحافظات	١٤
عدد المقاطعات	٥٤
متوسط دخل الفرد بالدولار	٤٠٠ دولار في العام
إجمالي الناتج المحلي	١,٢ مليار دولار في العام
تاريخ الاستقلال	١١ أغسطس ١٩٦١
رئيس الدولة	إدريس ديبي
مصادر الدخل	ثروة معدنية – زراعة - رعي
رواية القراءة	ورش عن نافع

مكانة متميزة:

عرفت تشاد في المراجع العربية بالسودان الأوسط؛ لأنها تقع في وسط شمال إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، كدولة أصيلة في عروبتها سابقة في إسلامها، وهي بوابة الشمال والشرق المسلم إلى وسط القارة الإفريقية وغربها وجنوبها، ومن هنا كانت ملتقى لكثير من الحضارات الإسلامية والإفريقية، ونقطة انطلاق لكثير من قوافل نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا، أما البحر الذي حرمته كان عوضه أعماقاً أخرى.

تاريخها الإسلامي:

دخل الإسلام تشاد طواعية عام ٤٦هـ الموافق ٦٦٦م بوصول طلائع الفتح الإسلامي إلى منطقة كوار شمال شرق بحيرة تشاد بقيادة فاتح إفريقيا عقبة بن نافع، ومنذ ذلك الوقت ظل الإسلام يحكم تشاد وما جاورها.

وخلال هذا التاريخ الطويل قامت في تشاد ثلاث ممالك إسلامية أولها: المملكة السيفية نسبة إلى آل سيف بن ذي يزن الذين فقدوا السلطة في اليمن فعبروا باب المندب وواصلوا مسيرتهم حتى تشاد واستقروا فيها، وثانيها: مملكة باقرمي التي قامت على يد مجموعة من العرب والأسر الحاكمة في العراق حيث تم تأسيسها عام ١٥١٣م في الجزء الجنوبي والأوسط من تشاد، والمملكة الثالثة: مملكة وضَّاي أسستها أسرة عباسية عام ١٦١٤م وسميت بهذا الاسم نسبة لكثرة وضوء أهلها، وقد تم القضاء عليها من قبل الاستعمار الفرنسي سنة ١٩١٩م في مجزرة الكبكب المشهورة وكان آخر حكامها السلطان رابح.

الحقبة الاستعمارية:

دخل الاستعمار الفرنسي البلاد عن طريق الجنوب في عام ١٨٩٠ م وسيطروا على هذه المنطقة بعد معارك طويلة مع المسلمين استمرت حوالي سبع سنوات انتهت بهزيمة المسلمين بسبب خيانات داخلية، وظلت المعارك مستمرة بين المسلمين والغزاة حتى عام ١٩٢٠م وفيه أُعلنت تشاد مستعمرة فرنسية.

حاول الاستعمار فرض الفرنسة على تشاد بشتى الطرق، ومن ذلك القضاء علي المدارس العربية هناك، ونقلت كل المخطوطات والوثائق والكتب العربية إلى متحف اللوفر في فرنسا وهناك قسم

كامل للوثائق الإفريقية به مخطوطات تشادية مكتوبة باللغة العربية. واستمرت المقاومة و تكونت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد «فرولينا»، واشتعلت شيئاً فشيئاً بما أجبر الفرنسيين على الخروج إثر توقيع اتفاقية برازفيل سنة ١٩٦٠م وكان شرط الاستقلال، تنصيب نصراني على السلطة، وفرض على التشاديين الجوع والتهميش بما أعاد للثورة وهجها فاشتعلت لأكثر من عشر سنين انتهت بمقتله في انقلاب عسكري عام ١٩٧٠م. ومن ذلك التاريخ عادت تشاد إلى عروبتها وعاد معها الإسلام مظهراً قوياً في الحياة وانتشرت المساجد وأخذت الدعوة الشكل الجماعي.

■ الحالة الثقافية:

يقرأ التشاديون القرآن بقراءة ورش عن نافع، ويتفقهون على المذهب المالكي، مع استفادة من المذاهب الأخرى، وتعد الخلوات الطريق الأكثر انتشاراً في تحفيظ القرآن والحديث النبوي وتدريس الفقه وعلوم الشريعة.

لكن مخطط الاستعمار بالإفقار والتجهيل مازال بادي الأثر إذ تعد تشاد من بين أفقر دول العالم، رغم ما تتمتع به من غنى في المصادر .

ويعاني أهل البلد من تكثيف حملات التنصير والتي سلط عليها الضوء منذ سنوات في فضيحة سرقة الأطفال وتهريبهم إلى أوربا عبر مؤسسات تنصيرية تتستر بزي الإغاثة الإنسانية.

■ الوضع الاقتصادي:

ظهر النفط في الجنوب في حوض دوبا DOBA وبدأ تصديره عبر مرفأ كريبي Kribi على الساحل الكاميروني بأنبوب نفط عابر تم افتتاحه في ٢٠٠٣/١٠/١٠ م على يد الرئيس ديبي.

ورغم حالة الفقر البادية تعد تشاد سوقاً واعداً لجذب الاستثمارات، فإلى جانب البترول هناك مخزون هائل من الذهب والحديد واليورانيوم والزنك والرخام والذي لم تستفد منه البلد حتى الآن. هناك اعتماد على الإنتاج الزراعي بشكل كبي؛ جبث يزرع كل من: الأرز – القطن – الذرة – قصب السكر – الفول السوداني– السمسم – الصمغ العربي – وبعض الفواكه كالمانجو والبرتقال. كما تذخر تشاد بثروة حيوانية هائلة من الأبقار والأغنام والإبل وتعتبر المصدر الوحيد للحوم لدول وسط وغرب إفريقيا.

المرأة الأفريقية والدور المنوط بها
السودان نموذجاً

أحمد إسماعيل

تتعرض المرأة في العالم الثالث، وفي أفريقيا على وجه الخصوص إلى الاستغلال الدعائي من قبل حركات ومنظمات نسوية ذات توجهات علمانية، وتجد سنداً قوياً من المنظمات الدولية، وتحاول تلك الحركات أن تفرض أطروحاتها وأفكارها العلمانية على العالم، ولا تجد بيئة أفضل من مجتمعات العالم الثالث- بمشكلاته المركبة- لتطبق عليها مشروعاتها المصادمة للفطرة الإنسانية.

فالتقارير عن أوضاع المرأة، سواء كانت صادرة عن الأمم المتحدة أم عن المنظمات الناشطة في مجال الحركة النسوية، كلها تستمد من إفريقيا مادتها وأرقامها عن العنف، والاغتصاب، وبتر الأعضاء، والانتهاكات ضد المرأة، وتهميشها؛ وتجعل من ذلك كله مدخلاً للحديث عن «الجندر» ،و«الأدوار الجديدة للمرأة»، و«مكافحة التمييز ضدها».

تعد أفريقيا قارة شديدة الخصوبة لتلك الدعاية؛ حيث الحروب والتوترات والنزاعات العرقية، و إهمال الدولة، وغياب الرعاية الصحية، وانتشار التقاليد الفاسدة والخرافة، وتفشي الجهل والأمية، وشدة الفقر، وغير ذلك من الأوضاع السيئة التي تسببت فيها الدول الغربية، وهي الدول نفسها التي انطلقت منها تلك الأطروحات، سواء كان ذلك في فترة احتلالها لبلدان القارة، أم بعد ما منحته لها من استقلال شكلي يضمن استمرار نفوذها وتأثيرها في سياسات تلك الدول، وأمنها واستقرارها.

لقد فشلت السياسات التي خلفها المحتل في تحقيق الاستقرار السياسي والأمني في معظم المجتمعات الإفريقية، وهو ما أدى إلى ضعف النمو الاقتصادي، والمدني، وغياب سيادة القانون، وانتهاك الحقوق المدنية، وضعف الخدمات العامة: التعليمية، والصحية، وغيرها، وقد أثر ذلك سلباً على المرأة بصورة خاصة ؛ إذ لم تتمكن تلك المجتمعات من تنمية أوضاع المرأة الخاصة بما يتوافق مع دينها وتقاليدها، فاتجهت إلى الأخذ بنظم أجنبية غريبة عنها، ومفروضة عليها، قادتها إلى ما هو أسوأ .

■ أفريقيا..صورة مقربة:

يبلغ عدد سكان إفريقيا حالياً أربعة وعشرين وتسعمائة مليون نسمة، موزعين على ثلاث وخمسين دولة، وتتوقع بعض التقارير الدولية أن يتضاعف هذا العدد في سنة ٢٠٥٠م؛ بسبب ارتفاع نسبة خصوبة المرأة الإفريقية، والتي تمثل نصف هذا التعداد السكاني للقارة.

أشار تقرير لمنظمة الأمم المتحدة للسكان إلى أن متوسط عمر الأفارقة سيرتفع من (١٩ إلى ٢٨ سنة)، وهي حالة متفردة بالنظر إلى الجارة الشمالية (أوروبا) ؛ إذ أفاد نفس التقرير أن عدد سكان أوروبا سينخفض من خمسة وعشرين وسبعمائة مليون نسمة حالياً، إلى ثلاثين وستمائة مليون نسمة بحلول سنة ٢٠٥٠ م، وفي المقابل سيزيد معدل الحياة في أوروبا؛ حيث سيرتفع متوسط عمر سكانها من تسع وثلاثين سنة في عام ٢٠٠٥م إلى أربع وثمانين سنة في عام ٢٠٥٠م.

هذه المؤشرات تفيد بأن القارة الإفريقية ستتمتع في المستقبل القريب بأكثرية شابة غالبة بين سكانها، مقابل مجتمع تغلب عليه الشيخوخة في كل من أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، والصين.

وتبلغ نسبة المسلمين في إفريقيا ٦٣٪ ؛ حيث يمثل الإسلام دين الأغلبية في معظم دول إفريقيا شمال الصحراء وجنوبها، على الرغم من سيطرة غير المسلمين على مقاليد السلطة والحكم في كثير من تلك البلدان، وتلك هي إحدى نتائج وآثار سياسات المحتل الأوروبي.

■ أفريقيا : المشكلات والنزاعات :

النزاعات المسلحة والانقلابات العسكرية:

من نتائج تقسيم الاستعمار للقارة وسياساته، الصراعات والحروب والانقلابات التي تفجرت في أنحائها المختلفة بمجرد خروجه منها، والتي تكلفها سنوياً أكثر من ثمانية عشر مليار دولار، وقد بلغ عدد اللاجئين والمشردين بسببها وفقاً لإحصائيات مفوضية اللاجئين قرابة سبعة ملايين لاجئ، وخمسة عشر مليون مشرَّد من إجمالي واحد وعشرين مليون لاجئ على مستوى العالم.

الفقر :

برغم ما تنعم به القارة من ثروات ضخمة فإن ٥٩٪ من سكانها يعيشون تحت خط الفقر، وتصنّف إحدى وعشرين دولة إفريقية تحت بند الدول التي تفتقر إلى الأمن الغذائي من بين سبع وثلاثين دولة في العالم تصنّف تحت هذا البند.

الأمية:

أظهرت دراسة مقارنة استندت عليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في العام ٢٠٠٥م أن نسبة الأمية في أفريقيا انخفضت من ٤٠٪ كانت عليها في العام ٢٠٠٠م إلى ٣٢٪، ويعد الجهل من الأسباب القوية لتفشي العديد من التقاليد والممارسات الخاطئة بين النساء، مثل: السحر، والشعوذة، والختان الفرعوني، وتشويه الأعضاء.

لقد ساعدت هذه العوامل: (النزاعات المسلحة والانقلابات العسكرية، والفقر، والأمية)، وغيرها، على تفشي ظواهر وأمراض اجتماعية كثيرة، مثل : التشرد والنزوح واللجوء، والتفكك الأسري، والانحلال الخلقي، وانتشار الأوبئة والأمراض الناجمة عن الممارسات الخاطئة، كالإيدز، والأمراض المنقولة جنسياً.

■ المرأة الأفريقية:

المرأة الإفريقية هي وليدة تلك البيئة بكل معطياتها: الإيجابية، و السلبية. فإذا كان

الإســـلام تبلغ نســـبته ٦٣٪ من مجمل سكان إفريقيـــا، فهو دين غالبية النســـاء في القارة؛ حيث تمثل المرأة نصف ســـكان إفريقيا، وإذا كان ٥٩٪ من ســـكان القارة يعيشون تحت خط الفقـــر، فإن أكثر من نصف نســـاء القارة هنَّ فقيرات.

والمـــرأة الإفريقيـــة بســـبب الأوضاع الاجتماعيـــة والمادية وشـــدة الفقر تضطر للعمل لتســـاعد في إعالة الأســـرة، وخاصة عند فقدان الزوج، أو الأب، أو الابن بســـبب الحـــروب والنزاعـــات المســـلحة، وأحيانا تتعرض للنزوح والتشرد، فتتغير حياتها. وهي غالباً ما تكـــون عرضة للموت عند الإنجاب، أو الإصابـــة بالمرض نتيجـــة لغياب الرعاية الصحية.

اســـتغلت بعـــض الهيئات والمؤسســـات، ووسائل الإعلام، وخاصة الغربية هذه الأوضاع المزرية لتدفع بالمرأة الأفريقية إلى الوقوع في الرذيلة، والانحـــلال الخلقي، كما قادها الجهل والأمية إلى ممارســـات فاســـدة من معتقدات خرافية، وتقاليد ســـيئة، وهي غير قادرة على معرفة حقوقهـــا الشـــرعية، والمطالبة بها أو الدفاع عنها.

برغم هذا الواقع، يظل القاســـم المشترك فـــي المرأة الإفريقية- مســـلمة كانت أم غير مسلمة- هو إدراكها لأهمية الأسرة في الحياة وضرورة الحفـــاظ عليها، ومعرفتها أن الرجل هو القيِّم على الأســـرة والمســـؤول، عنها وأن الأمومـــة هي وظيفتها الأولـــى التي لا تقابلها مهمة.

هذا الفهم راسخ في كل التقاليد الإفريقية، ومتردد في التراث الشعبي والأحاجي ...[1]

■ المرأة في السودان:

الســـودان بلد مســـلم بغالبية سكانه، تمثل ثقافة الإســـلام وأعرافه الأســـاس الذي يقوم عليه المجتمع، وهو منطلق النظرة إلى المرأة. هذا في الجملة، غير أن ذلك الإجمال لا ينفي وجـــود مجتمعات غير مســـلمة لهـــا أعرافها وتقاليدها ومعتقداتها الخاصة، كما لا ينفي أن كمّاً من الأعراف والتقاليد الفاسدة - المتسللة من التراث التاريخي الســـابق للإسلام في هذا البلد، ومن الاحتكاك بالمجتمعات الأخرى- قد وجد له مكاناً في ممارســـات السودانيين، حتى المسلمين منهم.[2]

يبلغ تعداد ســـكان الســـودان قرابة أربعين مليون نسمة، ٤١,١٪ منهم لا تتجاوز أعمارهم أربعة عشـــر عامـــاً، ويبلغ عـــدد الإناث منهم ٨,٠٩٣,٦٠٩، فـــي مقابـــل ٨,٠٩٣,٦٠٩ من الذكور، وتبلغ نســـبة الســـكان الذيـــن تتراوح أعمارهم بيـــن ١٥- ٦٤ ســـنة قرابة ٥٦,٤٪، الإنـــاث منهـــم ١١,٢٧٥,٦٨٥، فـــي مقابـــل ١١,٤٠٧,٢٣٣ مـــن الذكور، بينما يمثل من هم فوق الـ ٦٥ عاما ٢,٥٪ من السودانيين. الأسرة الشرعية هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع في السودان، وهي المأوى الوحيد للمرأة، فليس في الســـودان امرأة تعيش في منزل بمعزل عن أســـرة، بل تتولى النســـاء إعالة قرابة ٢٧٪ من إجمالي الأسر السودانية.

تعانـــي المـــرأة الســـودانية مـــن أزمات مجتمعها؛ فقد تأثرت إلى درجة كبيرة بالحرب الأهليـــة في جنوب الســـودان التي دامت لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، وتعاني بشكل كبير مآسي الحـــرب الأهلية في دارفور التـــي اندلعت في

١) في جمهوريات بنين ونيجيريا وتوغو هناك نوع من التراث الخاص يعود إلى قرن من الزمن يحتفى فيه بـ«الأم الأصل» «ليانلا». وهو دور تأديه النساء.

٢) من ذلك عادة «الخفاض الفرعوني» و «الزار» وبعض العادات المتعلقة بالزواج، والميلاد، والوفاة، مثل: «تعليق عظام الميتة» ،و«الذهاب إلى النيل للعروس والنفساء»، و«نصب المرأة المتوفى زوجها قبالة الحائط عند الغروب»..إلخ.

العام ٢٠٠٣م، ومازالت مستعرة حتى الآن، أدت هذه الحرب إلى نزوح ولجوء قرابة مليوني نسمة، ومقتل أكثر من ١٠ آلاف شخص.كما تعاني المرأة السودانية الفقر، وانتشار الأمية، وكثرة حالات الوفاة عند الإنجاب، إلى غير ذلك من الإشكالات.

■ استغلال أوضاع المرأة في السودان:

لم تكن للمرأة في السودان قضية منفصلة عن قضية الإنسان في بلدها؛ فالأوضاع السيئة والمظالم التي تتعرض لها المرأة هي جزء مما يعانيه المجتمع بصورة عامة، و ضعف التعليم وضعف الثقافة الإسلامية كانا من أسباب ضياع حقوق المرأة والرجل على السواء.

ولكن الحركة النسوية التحررية وليدة الحركات العلمانية واليسارية في السودان، جعلت من تلك الأوضاع قضية خاصة بالمرأة، واستغلتها لهدم أركان المجتمع المسلم، متخذة من قضية تعليم المرأة مدخلاً ونقطة انطلاق ؛ حيث كانت نسبة الأمية في مجموع نساء السودان قبل استقلاله تبلغ ٩٠٪، وهو واقع كانت له مسبباته، فالمجتمع عموماً – رجاله و نساؤه– كان يعاني الأميَّة، ولم يكن الأمر قاصراً على المرأة دون الرجل، فالمجتمع السوداني كان مجتمعاً شفاهياً رعوياً، والقلة من الرجال الذين نالوا حظهم من التعليم، تلقوه في «الخلاوي»– المؤسسة التعليمية التي كانت متوفرة آنذاك– حيث كان الفتى يسافر مغترباً عن أهله، لينقطع للتعلم في الخلوة، الأمر الذي لم يكن ليتيسر للمرأة، والمحاولات الأولى للمحتل الإنجليزي لتعليم المرأة ارتبطت بمحاربة التعليم الديني الإسلامي، وكانت المدارس النظامية في تلك الفترة تحت إدارة الإرساليات التنصيرية؛ لذلك قاطعها معظم السودانيين.

بعد أن انتهت قضية تعليم الفتيات، أخذت الحركة النسوية العلمانية تبحث عن قضايا أخرى تثيرها، للترويج لأفكارها من خلالها، فصارت تنتقل من قضية إلى أخرى: من التعليم إلى حقوق العمل والمطالبة بمساواة المرأة فيها بالرجل، والحقوق السياسية وحق الترشيح إلى المناصب العليا ورئاسة الجمهورية، إلى المطالبة بتعديل قوانين الأحوال الشخصية، ومساواة المرأة بالرجل في الميراث، وفي القوامة داخل الأسرة، والطلاق، إلى دعوة «الجندر»، والاتفاقات الدولية، مثل: اتفاقية «إزالة كافة أشكال التمييز ضد المرأة» المعروفة اختصاراً بـ «سيداو»، وغيرها من الكوارث والشرور التي تتبناها الحركات النسوية العالمية.

وفي هذا الإطار استخدمت كل الكوارث الإنسانية والأوضاع المزرية وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية وقانونية تضر أول ما تضر بالمرأة نفسها؛ فالانتهاكات التي تحدث في مناطق الحروب والنزاعات المسلحة – حقاً كانت أم باطلاً–، والجرائم التي تقع في المجتمع وتكون المرأة ضحية فيها، مثلها مثل الرجل، كجرائم الاعتداء والإيذاء، ومشكلات الأسر ووقائع الطلاق، وغيرها، كلها جمعت تحت شعار: «العنف ضد المرأة»، واستخدمت مطية للمطالبة بما أطلق عليه «تمكين المرأة»!!، وهو شعار رفعته التنظيمات النسوية في السودان، ويتضمن العديد من المطالب، مثل: «تخصيص نسبة كبيرة للنساء في البرلمان»، رغم أن القانون السائد يكفل لهن الحق الكامل في جميع أضرب المشاركة السياسية أسوة بالرجل، من الاقتراع وحتى الترشُّح لرئاسة الجمهورية!، ومثل: تعديل قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين..هذا فضلاً عن الدعوة إلى المساواة «الجندرية»، وهي دعوة لا تعترف

بالتقسيم البايلوجي والتخصص النوعي والوظيفي للإنسان «ذكر وأنثى»، وإنما تؤمن بحق الإنسان في اختيار ما يرغبه من أدوار اجتماعية، سواءً كانت تصب في عرف الناس في خانة الذكر أم في خانة الأنثى.

■ الدور المنوط بالمرأة السودانية :

هناك أدواركبيرة ملقاة على عاتق المرأة في مختلف جوانب الحياة : اجتماعياً، وتربوياً، وسياسياً، واقتصادياً، وثقافياً..وتتميّز المرأة المسلمة بالالتزام بالصبغة التي يضفيها دينها على هذه الأدوار، وفي هذا المقام سنركز على أكثر هذه الأدوار أهمية:

أولاً: الدور الاجتماعي للمرأة السودانية:

في غضون العقود الثلاثة الأخيرة: (ثمانيات، وتسعينات القرن الماضي، وبداية الألفية الثالثة) تعرّض المجتمع السوداني إلى تحولات اجتماعية كبيرة طالت جميع مكوناته: (الفرد، الأسرة النووية، الأسرة الممتدة، القبيلة، المجتمع)، وأثرت عليها في عدة نواح، منها: الأخلاقية والقيمية، ومنها المتصل بالترابط والاتصال بين تلك المكونات.

فمن جهة كان المجتمع السوداني، كغيره من المجتمعات العشائرية البسيطة، يتميّز بالترابط الوثيق، الذي يصل أحياناً إلى درجة الغلو، فالتزاوج يتم داخل القبيلة، إلا نادراً، والمجتمع تسوده الأسرة الممتدة التي تظل متحدة حتى في السكنى؛ حيث يعيش أبناء الأب الواحد بأسرهم المتعددة في بيت كبير واحد يُسمَّى»الحوش»، وتظل الصلة وثيقة ببقية أفراد العائلة الكبيرة، هذا فضلاً عن الصلة القوية بالجيران والمعارف، التي تقترب من صلة ذوي القربى. لا تقتصر تلك الصلة القوية على العاطفة فحسب، بل تكون لها تبعاتها الاجتماعية والقيمية؛ فكل شخص كبير في السن- مهما كانت درجة قرابته- له الحق في ملاحظة سلوك الصغار وتقويمهم، ولا يعترض عليه أحد، كما كانت تحقق نوعاً من التكافل الاجتماعي الوثيق؛ فالمرأة المتوفَّى عنها زوجها لا تتجشم عناء البحث عن عمل لتعول أبناءها؛ فجميع الرجال في الحوش يقومون مقام الأب، هذا فضلاً عما كان يوفره البيت الكبير من بيئة طيبة تسهم في حل الخلافات الزوجية، والمحافظة على كيان الأسرة واستقرارها.

التحولات الاجتماعية - خاصة في المدن الكبيرة- قلّصت تلك الصورة إلى حد كبير، الأمر الذي أدى إلى ظهور تصدعات داخل الأسرة الصغيرة نفسها، فارتفعت حالات الطلاق في السودان في السنوات الأخيرة بصورة مزعجة، ففي خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة فقط من العام الماضي سجلت دائرة الأحوال الشخصية في مدينة شندي وحدها - وهي من المدن المتوسطة- اثنتي عشرة وثلاثمائة حالة طلاق مقابل اثنين وثمانين حالة زواج!.

ثانياً: دور المرأة في الحفاظ على كيان الأسرة:

بالنسبة للمرأة، فإنه كلّما تراجعت «الأسرة الممتدة»، زادت الأعباء التربوية على المرأة، أما إذا فُقد العائل بالوفاة أو العجز عن العمل وقع على المرأة العبء الاقتصادي في تحمل تكاليف المعيشة، والسعي لتوفيرها عن طريق العمل، ففي السودان تعول النساء ٢٧٪ من الأسر السودانية.

ومن هنا يتضح أن الحفاظ على كيان الأسرة ممتدة كانت أم نووية هو دور رئيس وحاجة أساسية للمرأة السودانية بمختلف صفاتها الوظيفية: (أماً، أو زوجة،) من خلال قيامها بحق الزوج والأبناء، استناداً إلى مفهوم

المسؤولية في الإسلام: «...والمرأة راعية في بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم»[1]

ثالثاً: مكافحة الانحلال الخلقي والقيم الدخيلة على المجتمع:

وفدت قيم دخيلة كثيرة على المجتمع السوداني عبر وسائل عديدة، منها وسائل الإعلام في عصر الفضائيات، وقد زاد من خطرها وقوة تأثيرها غياب الرباط الاجتماعي بصورته التي ذكرنا، كما ساهم احتكاك اليافعين من الجنسين بعضهم ببعض في الجامعات والمعاهد المختلطة في انتشارها بكثرة، هذا بالإضافة إلى التيارات العلمانية التي تحرص على نشر ذلك النوع من السلوك المضاد لقيم المجتمع بوصفه أفضل طريقة لمحاصرة المد الإسلامي.

يلحظ الإنسان بوضوح انتشار الأزياء الفاضحة والتبرج الشنيع، والجري خلف التقاليع الجديدة والموضة، بالإضافة إلى العلاقات المحرمة بين الفتيان اليافعين والفتيات اليافعات: كالصداقة والحب التي كثيراً ما ينتهي أمرها بفواحش جنسية، مثل: الزنا، وما يسمى «بالزواج العرفي»[2]!!، وأبسط ما يكون من ممارسات تلك التي يصنفها القانون السوداني تحت بند الأفعال الفاضحة.

إن دور المرأة في مكافحة تلك الظواهر أساسي؛ فصون الفضيلة لا يقتصر على الرجل وحده؛ فالمرأة عليها في تحقيق ذلك أن تلتزم بشرائع الإسلام في اللباس، وفي العلاقة بالجنس الآخر، وفي خروجها ومشيها في الطرقات، هذا بالإضافة إلى قيامها بواجب الدعوة بالحسنى إلى أخلاق الإسلام وفضائله.

وثمة تفاصيل أخرى تندرج ضمن الدور الاجتماعي للمرأة، وخاصة في ظل الأوضاع المترتبة على الحرب والنزوح، مثل: كفالة الأيتام، والأطفال فاقدي الأبوين وفقاً للضوابط الشرعية، والعمل على دعم روح التكافل الاجتماعي، ودعم الأسر الفقيرة. وهي أدوار يمكن أن تتم من خلال تنظيمات اجتماعية، مثل : المنظمات الطوعية، أو التجمعات البسيطة في الأحياء، وفي السودان يوجد عدد من المنظمات النسوية التي تغطي تقوم بذلك، من أشهرها: منظمة سند الخيرية، ومنظمة أم الفقراء، وجمعية العافية، وجمعية الأيادي، وجمعية أنسام، بالإضافة إلى الاتحاد العام للمرأة السودانية التابع للدولة.

رابعاً: الدور التربوي والتعليمي للمرأة السودانية:

في إطار الأسرة تعتبر التربية أمراً طبيعياً فطرياً للأبوين، ولكن العبء الأكبر فيها يقع على الأم، ويساهم المجتمع والأسرة الممتدة بشكل أو بآخر في التربية من خلال منظومة القيم التي يحافظ عليها ويحرسها.

إلا أن التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمع أدت إلى تقليص دور المجتمع التربوي؛ إذ أصبح السعي وراء الرزق يستحوذ على النصيب الأكبر من وقت رب الأسرة، فما بالك إذا أضيف إليه خروج المرأة إلى العمل؟!، انعكس كل ذلك سلباً على حظ الأبناء من الرعاية والتربية والتنشئة القيمية ودور الأسرة في ذلك، في مقابل هيمنة القنوات الفضائية، ووسائل الاتصال، ومجموعات الأصدقاء، وهو أمر كان له مردود خطير في زلزلة الثوابت من المعتقدات والأعراف والقيم، وأدى إلى انحرافات سلوكية لدى الشباب وإلى ظاهرتي الفشل والتسرّب الدراسي.

---

١) جزء من حديث: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته». أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

٢) يسمى زوراً بالزواج العرفي وهو في حقيقته «زنا»؛ حيث لا تتوفر فيه شروط الزواج. فليس فيه ولي للمرأة.

إذن الأجيال الجديدة في حاجة ماسة إلى المرأة بوصفها المرتكز الأول في عملية التربية، ويتوجب عليها أن ترتب أولوياتها، لتكون تربية الأبناء هي الأصل الذي تتراجع دونه كل الوظائف الأخرى.

خامساً: رفع الجهل ومحو الأمية:

مازالت نسبة الأمية مرتفعة في السودان، و في النساء بصفة خاصة، ففي العام ٢٠٠٨م كانت نسبة الأمية في مجموع الإناث في الريف السوداني ٦٢٪، مقابل ٤٤٪ للذكور، وفي المناطق الحضرية بلغت النسبة ٣٤٪ للإناث، وللذكور ٢١٪ [١].

إن القضاء على الجهل والأمية يلقي على عاتق المرأة المتعلمة مسؤولية كبيرة تجاه بنات جنسها، وذلك بالعمل في حملات محو الأمية، أو من خلال عملها في مهنة التدريس، وهوما يسهم بدرجة كبيرة في الارتقاء بأوضاع المرأة؛ حيث يظل الجانب العملي الجاد، أكثر فائدة من الصراخ، والمناداة بما لايليق بكرامة المرأة من مطالب، وتعليق الإخفاقات على شماعة الرجل والمجتمع الذكوري.

سادساً: الدور الثقافي والتوعوي للمرأة السودانية:

تفشي الجهل والأمية في شريحة النساء نجمت عنه إشكالات كبيرة في أوساطهن، وتبدى في مظاهر كثيرة مثل:

- انتشار المعتقدات الفاسدة والخرافة والشعوذة والدجل: حيث مازال كثير من النساء في السودان يعتقدن في تصرف الأموات بالأحياء، ويلجأن إلى السحرة والمشعوذين للحفاظ على أزواجهن، أو لجلب الولد وغيره، ويُقِمن الحفلات الشيطانية التي تسمى: «الزار».
- انتشار العادات الضارة، مثل: «الخفاض الفرعوني»، و«الشلوخ»، وغيرها.
- الجهل النساء بالواجبات والحقوق في حياتهن الزوجية، أو العامة، وهو أمر يستغله كثيرون في غمطها حقها، كما تستغله المنظمات النسوية العلمانية لدفعها إلى التمرد على الدين والأسرة والمجتمع.
- الجهل بالعبادات والواجبات الشرعية، وغياب الفهم الصحيح للإسلام.

إنه باب كبير من أبواب الجهاد للمرأة السودانية المسلمة، أن تعمل على نشر الوعي بين النساء، أولاً بحقوق الله تعالى، ودينه، ثم بحقوقهن التي جاءت بها الشريعة السمحة، وبالواجبات المنوطة بالمرأة تجاه بيتها ومجتمعها، حتى تأخذ المرأة حقها وتؤدي واجبها، ولا تكون فريسة للفكر العلماني المتمرد على الله وعلى دينه، وعلى الفطرة الإنسانية السوية، الذي يؤدي إلى شقاء المرأة أكثر من نفعها؛ لأنه يصادم فيما يدعو إليه نظام فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وهو أعلم بما يصلحهم، وما يفسدهم.

وفي هذا المجال قامت في السودان منظمات لنساء مسلمات وعين أدوارهن، وفهمن دينهن، ووقفن ينافحن عنه ويرددن عنه غارات العلمانيين.فظهرت في السابق «الجبهة النسائية»، وفي الحاضر توجد «منظمة أم عطية الأنصارية»، و «مركز دراسات المرأة»، وغير ذلك من المنظمات والهيئات.

■ الأدوار الأخرى للمرأة السودانية:

هناك أدوار أخرى للمرأة السودانية مهمة،

١) تقرير صادر عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء. شارك في إعداده خبراء سودانيون. ونشرته جريدة الصحافة اليومية السودانية في عددها رقم: ٥٢٩٧ الصادر بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٨م

لكنها ليســـت في مســـتوى أهمية الأدوار التي تقدمت.من تلك الأدوار:

الدور السياسي: وهو دور تدركه جميع القوى السياسية والأحزاب الوطنية ؛ حيث يتم استغلال المرأة بوصفها مـــورداً مهماً من موارد الأصوات الانتخابية، ويؤدي الجهل المتفشـــي بين النســـاء لاستغلالهن استغلال مقيتاً. فهي تحتاج إلى تنمية وعيها السياسي حتى لا تستغل في تكريس أوضاع سياسية يتضرر منها الوطن، وهي أوضاع معظمها مستورد، دخيل على بيئتنا الإسلامية.

الدور الاقتصادي: فقد كفل الإسلام للمرأة حق تملك المال وتنميته، وقد مارســـت المرأة النشاط الاقتصادي في الســـودان منذ القدم، وفي مختلف أشكال الإنتاج، من زراعة، وصناعة يدوية، إلى تجارة، وغيرها. لقد دفعت الأوضاع الاجتماعيـــة، والفقر، وغيـــاب العائل، وأحياناً الطموح كثيراً من النســـاء إلى العمل، فحققن فيه نجاحات، وصارت بعضهن ســـيدات أعمال يشـــار إليهن بالبنان، وقد أسهت بعض النساء في دعم الأعمال الخيرية في المجتمع.

وأخيراً فإن على المرأة المسلمة أن تدرك أن دورهـــا الحقيقي مركوز فـــي الفطرة، وقد أكد عليه الإســـلام، ولأجله رفـــع الله قدرها، وجعـــل الجنة تحت قدميها، وهي تدرك حقيقة الدعاوى العلمانية التي تحاول استغلال اسمها وقضاياهـــا للمطالبة بما لا يقره الشـــرع، ولا تســـتقيم به الحياة، مما فيه مصادمة لفطرتها، وامتهان لكرامتها .

قراءة في أثر الحروب الأهلية على الشباب في إفريقيا تشاد نموذجاً

محمد البشير أحمد موسى

مفهوم الشباب :

يقصد بالشباب ـ غالباً ـ الفئة العمرية التي تبدأ من عمر ١٥ ـ ٤٠ سنة، وهي مرحلة تتميّز ببعض الخصائص عن المراحل السابقة واللاحقة في حياة الإنسان، و يكون في خلالها النضج البيولوجي والنفسي والاجتماعي، وقدرة الإنسان على تقبل القيم والمعتقدات؛ لإشباع حاجات اجتماعية محلية يتطلب إشباعها عادة إعادة صياغة النظام الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بكامله؛ وهي بذلك (أي فئة الشباب) تعكس اتجاهات المجتمع وقيمه في سلوكها والتزامها. والتعريفات المتعلقة بمفهوم الشباب من الناحية الاصطلاحية تنصب في مجملها على قضية أساسية، هي اعتبار مرحلة الشباب مرحلة النضج العقلي والبناء الفكري لدى الإنسان، واعتناقه التصورات والمفاهيم سواء أكانت عقدية أم فكرية، إضافة إلى قدرته على التفاعل مع ما حوله، والتأثير في محيطه الاجتماعي، يصف الأستاذ أنور الجندي الشباب بأنه: « ... الطور الحاسم في حياة الإنسان، والدور الذي تتبني فيه كل العقائد والمثل، وتشكل فيه النفس الإنسانية والعقل البشري، بحيث تكون متأهبة لأداء دورها في حمل أمانة الحياة ومسؤولية المجتمع، وقد تتحول إلى طاقات مبعثرة تُبدد في فراغ، وتُستهلك في غير المواقع الصحيحة، وتنتهي إلى الحيرة والقلق والتمزق والعدمية، ... يعيش فيها الشاب حالة من الضياع، تسهل على الأعداء احتلال نفسه وعقله وروحه وأرضه، وإذا فَقد الالتزام والانضباط للمثل التي يؤمن بها انقلب إلى شرٍّ محض يدمر نفسه وأمته «()

وفي هذا الصدد ورد عن عياض بن حمار رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قوله: (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم)() .

يشتد الانبعاث الذاتي للمرء في هذه المرحلة نحو الالتزام القوي بمنهج وفكر يسير عليه، فيقوى تمسكه بإسلامه منهجاً شاملاً

لحياته، وقد تجتاله الشياطين عن دينه فيكون شيوعياً ملحداً، أو كافراً مشركاً بربه وخالقه، جاحداً لأنعمه؛ لذا كان التوجيه النبوي ﷺ في غاية الدقة: « ... وشاب نشأ في عبادة الله... «(٣) في الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

من الأمور التي يحرص عليها الإسلام في بناء الإنسان أن يعرف المهمّة التي خُلق لأجلها، وهي عبادة الله وحده، وحمل رسالة الإسلام وتبليغها كما أُنزلت على رسول الله ﷺ إلى الناس كافَّة، هذه الرسالة العظيمة هي التي ينبغي أن يكون بها انبعاث الشباب الذاتي، والمنهج الذي يلتزمه بقوة ويوجه همته وطاقته للدعوة إليه؛ ولذلك يحرص أعداء الإسلام على صرف الشباب المسلم وإلهائه عن التمسك بدينه، وإن من أخطر الوسائل والأساليب التي يتبعونها في ذلك: إشاعة الإباحية الجنسية، و شرب الخمور، و نشر الأفكار العلمانية تحت شعارات الحرية والديمقراطية والعولمة، والجهر بذلك في مختلف وسائل الإعلام.

■ الاهتمام العالمي بالشباب :

وفي السنوات الأخيرة ازداد الاهتمام العالمي بالشباب؛ فهم يشكلون نسبة عالية من سكان العالم، وبصفة خاصة في العالم النامي؛ حيث يبلغ عدد من تتراوح أعمارهم بين ١٥ إلى ٢٤ سنة اليوم أكثر من مليار نسمة، كما أن ٤٠ في المائة تقريباً من سكان العالم تقل أعمارهم عن ٢٠ سنة، ويعيش ٨٥ في المائة من هؤلاء في البلدان النامية، يعانى معظمهم الفقر الشديد، ويتأثرون بصورة كبيرة بمشاكل التنمية في مجتمعاتهم، ويشكل الأطفال والشباب نسبة عالية جداً من سكان الحضر في البلدان النامية. وفى كثير من البلدان الأفريقية تبلغ نسبة عدد السكان الذين تقل أعمارهم عن ١٩ سنة أكثر من ٥٠ في المائة(١). إن اجتماع الفقر والبطالة، والمشاكل البيئية والصحية، وفقدان الفرص التعليمية يؤدي غالباً إلى تفاقم النزاعات العنيفة، وإيجاد مخاطر أمام أعداد متزايدة من الشباب في الدول المختلفة.

جاء في التقرير العالمي عن الشباب عام ٢٠٠٣ م أن معظم الحروب تقع في البلدان النامية وبصفة خاصة في أفريقيا؛ حيث تتعرض حياة ما يقرب من ٣٠٠٠٠٠ من الجنود الشباب فيما بين ١٠ إلى ٢٤ سنة للخطر في غمرة المنازعات المسلحة التي يتسبب فيها الكبار، وحتى في البلدان التي لم تُبتلَ بالمنازعات المسلحة، غالباً ما يغيب الشباب عن الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومع أن طاقة الشباب وحماسه يمثلان أدوات قوية في تنشيط القضايا الاجتماعية والسياسية وغيرهما، فهم عرضة أيضاً للتضليل وسوء الاستخدام اللذين غالباً ما يكون لهما عواقب وخيمة على المجتمع الإفريقي.

يصف بعض المختصين « التنشئة السياسية للشباب، ودورها في تقليل المشاكل الاجتماعية والسياسة في كثير من البلدان التي تأخذ بها، بأنها: « إحدى العمليات الاجتماعية التي يكسب الأفراد من خلالها المعلومات والأفكار والقيم والاتجاهات التي تتعلق بالنسق السياسي لمجتمعهم « (١).

فالتنشئة السياسية عملية مستمرة، ويمكنها أن تلعب دوراً كبيراً في الوعي السياسي في المجتمعات التي تتناحر فيما بينها، وتشكل دعامة من الدعامات الأساسية في بناء مجتمع مسالم، يدرك كل مسؤوليته السياسية تجاه الآخر، وتجاه الحكومة، وقد ركزت التربية في الإسلام على تنمية روح المسؤولية الفردية

والجماعيـــة، والدور الإيجابـــي في المحافظة على سلامة المجتمع، وأمنه واستقراره.

عانى الشـــباب في أفريقيا طول العشرين عاماً الماضية من جـــراء تزايد الفقر والبطالة، ونمـــو الاتجـــار بالأطفـــال والشـــباب وخاصة الشـــابات، والاستغلال الجنسي للشباب، وبصفة خاصة الفتيات صغيرات السن، وارتفاع مستويات البطالة، ونمو ظاهرة أطفال الشـــوارع، وانتشار الجريمة المنظمـــة وأعمال العنف التي يقوم بها الشـــباب، والعصابات الشبابية، وتجنيد الأطفال فـــي أعمـــال الجندية، وتفكك الأســـرة، وظهور الأمـــراض الخطيـــرة وازديـــاد المصابين بوباء نقص المناعة « الإيدز» في عدد من دول القارة، وخاصة في دول الجنوب الإفريقي، لقد أدت هذه المشكلات إلى تفاقم الحروب في القارة، وزيادة معدل الوفيات بين الشباب في هذه الحروب.

■ السياسات الموجهة نحو الشباب:

لأهمية الشباب ودورهم في المجتمع، ومعالجة مشـــكلاتهم في عـــدد من الـــدول، كان الاهتمام المتزايد بهم في الســـنوات الأخيرة، وما شهدته أروقة كثيـــر من المنظمات الإقليميـــة والعالمية من مؤتمرات تعنى بقضايا الشـــباب ودورهم في نهضة مجتمعاتهم، ووضع الاستراتيجيات المعينة على ذلك، ومن ذلك (إستراتيجية الشباب)، التي وضعتها الأمم المتحدة في أيار/مايو٢٠٠٣م، حيث اعتمدت إدارة برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية القرار ١٣/١٩، وقد طالب القرار بوضع إســـتراتيجية تعمل على تعزيز إشـــراك الشباب والمنظمات الشـــبابية في أعمال الأمم المتحدة، وقد استلزم وضع الإستراتيجية إجراء مشاورات على نطاق واســـع مع الشباب ومنظمات المجتمع المدني في خلال الفترة من أبريل إلى ســـبتمبر عام ٢٠٠٤م، وقد شـــارك في هـــذا الجهد كثير من المنظمات الشـــبابية والجهـــات المتعاونة مع تلك المنظمات من مؤسســـات المجتمع المدني. لقد أجريـــت اللقاءات داخل أروقة الأمم المتحدة للتأكيـــد على الاســـتراتيجيات والبرامج الحالية المتعلقة بالشباب، وفرص تعزيز إشراك الشباب، كما تم أيضـــا إجراء بحوث لتقدير فرص التعاون مـــع وكالات الأمم المتحدة الأخـــرى، وتم عرض الإســـتراتيجية ومناقشتها في عدد من المنتديات منهـــا: اجتمـــاع فريـــق الخبراء المعنـــي بوضع استراتيجيات لإتاحة فرص عمل لشباب الحضر في أفريقيا، يونيو ٢٠٠٤م، واليوم الدولي للشباب في نيروبي في ١٢ أغســـطس ٢٠٠٤م، والمنتدى الحضـــري العالمـــي الثاني ببرشـــلونة ١٣-١٧ سبتمبر ٢٠٠٤م.(١). من المؤسف أن هذا القرن العشـــرين تميز بصفة (قرن النزاعات المسلحة)، وقد اتخذت أشـــكالاً متعددة مـــن بينها الحروب الأهليـــة والحروب الإثنية بيـــن القبائل، وقد أدى ذلـــك إلى تعريض حيـــاة المدنييـــن للخطر في مناطق الحروب والنزاعات، وإن مأســـاة الحروب في القارة الإفريقية في تزايد مســـتمر، ومأساة الشاب الإفريقي، وخاصة المسلم في تزايد أكبر. كشفت بعض الدراسات المتعلقة بالأطفال الجنود ومشـــاركتهم في الحروب: أن عدد هؤلاء الأطفال الجنود يقدرون بـ ٢٥٠ر٠٠٠ ألف طفل في العالم بناءً على التقارير الواردة عن عدد الأطفال الجنود المشاركين في النزاعات المسلحة في العالم(٢).

■ العوامل الداعية لانضمام الشباب إلى النزاعات المسلحة:

هنـــاك عوامل عدة تجعل بعض الشـــباب، وخاصة من هم في ســـن الثامنة عشـــرة أكثر الفئـــات انضماماً إلـــى الحركات المســـلحة والمشاركة في حمل السلاح، وهذه العوامل هي:

- الجهـــل والأمية المنتشـــرة في معظم

الدول الإفريقية.

- العصبيات القبلية والإثنية.
- حب التصدر والزعامة.
- الفقر المدقع، فمثلاً في ليبيريا كما يقول أحد المقاتلين السابقين: «يحتاج الكبار لسبب مقنع لحمل السلاح، أما الأطفال فإنه من السهل إقناعهم بأن يقاتلوا من أجل لا شيء، وكل ما يلزم لإقناعهم هو بعض الوعود الصغيرة ببعض المال والغنائم... إنهم فريسة سهلة الاصطياد» (١).
- الظلم الواقع على الأسرة والتفكك الأسري.
- وجود هذه الفئة في أماكن النزاعات والحروب.
- التجنيد القسري للأطفال في بعض الدول والمجتمعات.
- وفرة السلاح بشكل متزايد، وتطور الأسلحة المستعملة في القتال تطوراً سهل استعمالها حتى من قبل الأطفال، كالبنادق الأوتوماتيكية. ... (٢)، وهذه الأسلحة رخيصة وسهلة الصيانة، وهو ما سهل انتشار استعمالها في النزاعات المسلحة وخصوصاً في إفريقيا.
- البطالة: حيث تلعب دوراً كبيراً في مشاركة عدد لا بأس به من الشباب في هذه النزاعات والحروب في القارة الإفريقية وفي غيرها.

■ الغرب وتأجيج الأزمات والحروب:

إن الدور الغربي في تأجيج بعض الأزمات في القارة قد بدأ واضحاً منذ مؤتمر برلين ١٨٨٤ – ١٨٨٥م، الذي تمَّ فيه تمزيق الممالك الإسلامية الحديثة في القارة إلى دويلات صغيرة، كل دويلة تتبع إحدى الدول الغربية و تدور في فلكها. هذه الدويلات التي تم تقسيمها في مؤتمر برلين تم تقسيمها عمداً، ووفقاً لقاعدتهم المشهورة « فرق تسد «، ففرَّقوا وسادوا، وما زالت تعاني القارة آثار هذا التقسيم إلى يومنا هذا!، كما أن السياسة الاستعمارية تغيرت وأخذت شكلاً آخر من أشكال الاستعمار في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين عبر أطروحات العولمة والديمقراطية والشركات العابرة للقارات، وأصبح أمثال بوب دينار، والمخابرات الفرنسية والبريطانية والبلجيكية وغيرها من الجهات الغربية، تقيم دولاً وتزيل أخرى، وتشعل حروباً وتوقف أخرى، وصور ذلك كثيرة في طول القارة وعرضها!.

فالدول الغربية هي السبب الرئيس فيما آلت إليه الأحوال في القارة، فعلى مدار ستين عاماً شهدت القارة حروباً متتالية تنتقل من دولة إلى أخرى، والدولة التي لم تعانِ حروباً عسكرية عانت حروباً اقتصادية وأزمات صحية؛ حيث شهدت القارة منذ عام ١٩٦٦م حتى أواخر القرن الماضي أكثر من ستين حرباً، و شهد عام ١٩٩٦م أكثر من عشرين نزاعاً شاركت فيه أكثر من خمسة عشر بلداً، تسبب في وفاة أكثر من نصف جميع الوفيات المتعلقة بالحروب على نطاق العالم؛ حيث شهدت الكونغو وحدها أشرس تلك الحروب، التي يمكن أن تصنف ضمن الحروب العالمية؛ حيث شاركت معظم دول القارة ودول من خارجها في هذه الحرب. إن الأسلحة بشتى أنواعها تدخل القارة من الدول الغربية والشرقية، ويمكن أن تحصل على سلاح في أقل من ساعة في بعض المناطق، بينما لا يمكن أن تجد ما تسد به رمق الجائع بسهولة!

تُعد المعاناة الناجمة عن النزاعات

المســـلحة تجربة من أقسى التجارب التاريخية المشـــتركة فـــي المجتمع الإنســـاني، ويعتقد كثيرون أن القرن العشـــرين شـــهد ارتفاعاً في عدد النزاعات المسلحة على امتداد العالم، كما شهد في الوقت نفسه تغيراً ملحوظاً في طبيعة هذه النزاعات؛ حيث شـــهد النصف الثاني من القرن العشرين تفشياً للنزاعات الداخلية التي ارتبطت في غالب الأحيان بقيام دول وطنية، أو تدعيمها، أو انهيارها ، كما حدث في ســـاحل العاج والصومال، وما أفرزتـــه الانتخابات في كينيـــا وزيمبابوي، والدعـــوات الانفصالية في جزر القمـــر، وأحداث دارفور ومـــا صاحبتها من تداعيات. إن ما يقـــارب ٨٥٪ من إصابات الحـــروب اليوم هـــي بين المدنيـــين، وخاصة الأطفال والنســـاء والشـــيوخ. أشـــارت إحدى الإحصائيـــات عن النزاعات المســـلحة إلى أن عشـــرة من النزاعات المسلحة الآن على الأقل قد اســـتمرت أكثر من عشر ســـنين متواصلة. وهنـــاك أجيال في هذه الدول لا تعرف شـــيئاً عن ماهية الحياة الطبيعية الخالية من الحرب، وهي غير مؤهلة لتعيش حياة طبيعية، ولا تعرف إلاّ أن تعيش حيـــاة المحاربين (١). ولعل هذا الجدول يعطينـــا نموذجاً عن واقع الحروب في القارة منذ الاستقلال وإلى يومنا هذا:

الدولة	تاريخ الحرب	بعض الأسباب الرئيسة	أعداد القتلى
الجزائر	١٩٥٤-١٩٦٢، ١٩٩٢م	الصراعات الداخلية على الحكم، البترول والغاز. ومصالح القوى الخارجية.	٧٠,٠٠٠
السودان	١٩٨٣ - ٢٠٠٥م	البترول، اليورانيوم، مخططات تنصيرية.	١,٨٠٠,٠٠٠
أنجولا	١٩٧٥-٢٠٠٢م	ألماس، البترول، والعاج وغيرها من المواد.	٥٠٠,٠٠٠
الكونغو برازافيل	١٩٩٣-٢٠٠٠م	البترول ، ألماس، مصالح دولية.	١٠,٠٠٠
الكونغو الديمقراطية	١٩٩٣-٢٠٠٩م	مصالح القوى الغربية، الماس، البترول، اليورانيوم، العاج، الذهب، النحاس، وغيرها.	٢٥٠,٠٠٠
بوروندي، رواندا	١٩٩٣م	الماس، الذهب، البترول، مصالح دولية.	٢,٠٠٠٠٠٠
تشاد	١٩٦٦-١٩٨٢م ١٩٩٠ - ٢٠٠٩م	الحروب الأهلية والصراع على الحكم، البترول، اليورانيوم، مصالح خارجية.	٦٠٠,٠٠٠
كاميرون / نيجريا	١٩٩٢	البترول.	١,٠٠٠
ليبريا	١٩٨٩-١٩٩٨م	تصفية عرقية للمسلمين، الماس، الذهب، المطاط، وغيرها من المعادن.	١٧٥,٠٠٠
ساحل العاج	٢٠٠٢-٢٠٠٩م	العاج، البترول، الكاكاو، مصالح دولية.	٢٠,٠٠٠
سيراليون	١٩٨٩-١٩٩٩م	الماس، الذهب، تصفية للمسلمين من قبل العميل تايلور.	٩٠,٠٠٠
الصومال	١٩٩٠-٢٠٠٩م	الصراعات الداخلية على الحكم،العصبيات القبلية، مصالح القوى الخارجية.	٥٠,٠٠٠

■ الحروب الأهلية والشباب في تشاد :

إن تشاد لم تكن بعيدة عن هذه الصراعات العلنية أو السرية، وهي الآن على أبواب مرحلة جديدة من الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتية، كل واحدة تسعى للهيمنة على ثروات الدولة لاستثمار العائدات لدفع عجلة التنصير في القارة، كما صرّح بذلك أكثر من مسؤول. وتعد المعارك التي حدثت في ٣١/١/، و١-٢/٢/٢٠٠٨م حلقة من سلسة من المعارك المستمرة في البلاد. إن أطماع المنظمات النصرانية ومصالح القوى الغربية تقتضي أن يدفع الشباب التشادي فاتورة هذه الحروب التي تدار بالوكالة في تشاد. وما شهدته العاصمة التشادية في خميس ٣١/١/٢٠٠٨م إنما هو استمرار لتاريخ التحالفات الدولية لإدارة دفة الصراع في منطقة وسط إفريقيا عامة، وتشاد على وجه الخصوص، فخلال أربعين عاماً لم يذق التشاديون الطمأنينة والسلام والاستقرار في بلدهم، وهو حال معظم شعوب القارة الأفريقية، التي تعاني أزمة عدم الاستقرار وفقدان الأمن، سواء كان ذلك بعوامل داخلية أم عوامل خارجية. كلما جاءت حكومة اتخذت رداء القبيلة في الغالب لتنفيذ سياساتها في الهيمنة على مقدرات البلاد ، وتتلقى القبائل الأخرى تلك السياسة بالرفض والعداء، الذي سرعان ما يتحول إلى عمل عسكري، وقد يتم الاستقرار المبني على المصالح، والذي يكون قابلاً للانفجار في أيّة لحظة. بدأت الصراعات بالانتفاضة الأولى ضد الحكومة المعيّنة من قبل فرنسا في عام ١٩٥٨م، ثم قامت أول ثورة في تشاد عام١٩٦٢م ضد أول رئيس لها(فرانسوا تمبلباي)، ومنذ ذلك التاريخ تفجرت سلسلة من الحروب المتواصلة، كانت أشرسها حرب تسعة الأشهر بين الرئيسين السابقين: (قوكوني عويدي، وحسين هبري)، والتي راح ضحيّتها أكثر من عشرة آلاف شخص ما بين عسكري ومدني، معظمهم من الشباب، وذلك في الفترة ما بين مارس إلى ديسمبر من عام ١٩٨٠م . ومنذ وصول الحكومة الحالية إلى الحكم ووتيرة الحرب وملامحها تظهر بين الفينة والأخرى، سواء في الشمال أم في الغرب أم الشرق، وهي الجبهات الرئيسة التي غالباً ما يتمركز فيها بعض الثوار المناوئين للحكومة .

هذه الوضعية التي تمر بها تشاد الآن ليست غريبة على هذه الدولة التي عانت الحروب منذ تاريخ استقلالها عن فرنسا، فقد أوجدت فرنسا كل الأسباب المعينة على عدم استقرار تشاد، حتى يسهل لفرنسا استغلال ما تبقى من ثرواتها كحال معظم الدول الأفريقية، وإن كانت تشاد على رأس القائمة، وقد هاجر بسبب هذه الحروب أكثر من خمسة ملايين تشادي إلى الدول المجاورة جلهم من الشباب وذوي الكفاءات المقتدرة، سواء كانوا من ذوي الثقافة الفرنسية أم العربية. هذه الأحداث كلها تنبئ أن الأطراف الخارجية، وعلى رأسها فرنسا وبعضاً من عملائها، وكذلك الشركات المتعددة الجنسيات ـ والتي لعبت دوراً قذراً في كثير من الحروب التي نشبت في أفريقيا ـ، هذه الأطراف تبدأ بتحريك خيوط اللعبة كلما وصلت البلاد إلى حالة من الاستقرار، لتتواصل تلك الدوامة المقيتة. إن ما تردده فرنسا من حين لآخر بأن أيَّ محاولة للاستيلاء على السلطة بالطرق غير الديمقراطية، ولا سيما استخدام القوة أمر مرفوض من قبلها، مجرد تصريحات للاستهلاك الإعلامي؛ فما تفعله في أرض الواقع غير ما تبثه عبر وسائل الإعلام. وقد تكررت مثل هذه التصريحات سابقاً، ولكن النتيجة أنها دائماً مع شعار: « نحن مع القبيلة الأقوى المنتصرة «!

لقد بدأ النظام الاقتصادي الرأسمالي في العالم ينهار شيئاً فشيئاً بعد أحداث ١١/ سبتمبر ٢٠٠١م، وأصبح يُعاني أزمات اقتصادية متتالية، ظهر ذلك جليّاً في إفلاس شركات عديدة في عدد من الدول الرأسمالية الكبرى، وتسريح أعداد هائلة من العمال مع الأزمة المالية، وفي نفس الوقت زاد الطلب على الطاقة في تلك البلدان، الأمر الذي حدا بها إلى مراجعة أماكن نفوذها السابقة في العالم الإسلامي، والسعي إلى إيجاد أماكن احتياطية تغذّي اقتصادها، وتساهم في انتعاشه، فكان الصراع الأمريكي الفرنسي الظاهري على المستعمرات الفرنسية السابقة، والتي تسعى فرنسا لجعل ثرواتها مدخرات مستقبلية لها، بحيث تنتقل من دولة إلى أخرى. وقد تكون بعض الدول الإفريقية هي محور الصراع بين القوى الغربية لتعيد لنا ذكريات احتلالها، كلما زاد الضغط الشعبي على الحكومات الغربية بسبب الأزمة المالية العالمية، أخذت تبحث عن موارد جديدة، لحل أزماتها وتوظيف العاطلين عن العمل، وإفريقيا هي الأفضل لكثير من هذه الشركات العابرة للقارات وكذلك الدول الغربية.

أثر الشباب التشادي في نهضة المجتمع في ظل الأزمات المتلاحقة.

■ جهود الشباب في مجال التعليم :

كان لبعض الإسهامات الشبابية في الحروب المتتالية، دور في النهضة التي يعيشها المجتمع التشادي اليوم، سواء ما تعلق منها بالنهضة التعليمية، وما تشهده الدولة من تطور في هذا الجانب في السنين الأخيرة ـ رغم ما تعانيه من أزمات متتالية ـ، أم ما يتعلق بالزيادة المطردة في المدارس وخاصة الأهلية، أم بإنشاء كليات وجامعات أهلية تساهم في هذا التطور العلمي بعد أن كان التعليم العربي الإسلامي وخريجوه لا يقارنون بأي حال مع التعليم الحكومي الفرنسي. فالمؤسسات التعليمية الإسلامية يزداد عددها يوماً بعد يوم في كل المحافظات التشادية، و تساهم هذه المؤسسات التعليمية مساهمة فعالة في نشر الإسلام وتوعية المسلمين وتزويدهم بالزاد الضروري لهم لمواجهة انتشار ثقافة العلمنة والعولمة في المجتمع التشادي، مع ما تعانيه هذه المؤسسات من نقص في الكوادر المؤهلة والمنهج الموحد، والكتاب المفيد، والمدرسة المتكاملة. إن جوانب النقص كثيرة، لكنها لم تثن عزم الشباب عن المضي قدماً، والسعي لإيجاد الحلول الممكنة بكل السبل المواتية لهم.

■ جهود الشباب الدعوية :

كذلك كان أثر الشباب الدعوي بارزاً في أثناء الحروب الأهلية سواء أكان هذا الأثر بشكل مباشر أم غير مباشر في القرى البعيدة، أم في المدن الرئيسة، كما انتشرت بحمد الله في الآونة الأخيرة المساجد و المصليات في كثير من المدن والقرى، وزاد عدد مساجد العاصمة « أنجمينا » و ضواحيها إلى أكثر من ٢٠٠ مسجد، كما ازدادت في المدن الأخرى ذالرئيسة، وازداد الإقبال على المساجد والمصليات من الكهول و الشباب لأداء الصلوات، و تلقي الدروس والمحاضرات العلمية، و تعلم القرآن الكريم في بعض منها، و إشهار عدد كبير من الجنوبيين الإسلام فيها. لعبت خطبة الجمعة التي يلقيها كثير من شباب الدعوة دوراً بارزاً في لفت أنظار المجتمع إلى قضاياهم الأساسية، بدلاً من الاهتمام بسفاسف الأمور، ناهيك عن المحرمات، وخاصة قتل المسلم لأخيه المسلم دون مسوغ شرعي.

■ جهود الشباب في مجال الإعلام:

وفي الجانب الإعلامي قدم الشباب عبر عدد من المنابر الإعلامية، بدءاً بمنبر الجمعة إلى الإذاعة والتلفاز والصحافة، صورة مشرقة أخرى بتوجيه المجتمع إلى الخروج من الأزمات التي يعانيها اليوم، والبعد عن المفاهيم الجاهلية في الممارسة والسلوك، وتربية النشء من خلال الرسائل القصيرة عبر تلك المنابر والوسائل المتاحة إلى التربية الإسلامية الصحيحة، ومن أكبر الأمثلة على ذلك الدور المشرق الذي تقدمه إذاعة البيان اليوم في تشاد، والتي حازت على شهادات وتزكيات داخلية وعالمية؛ لدورها المميز ومساهمتها الفاعلة في توعية المجتمع التشادي، بوصفها تجربة ناجحة من تجارب الشباب الدعوي في تشاد، وخاصة أن تشاد تشهد الآن هجمة علمانية ضد الإسلام، تظهر من خلال الإذاعات التي أنشأتها المنظمات النصرانية، لتبث من خلالها السم الزعاف من أغان هابطة، وبرامج تافهة، ونشر للمجون والعهر في مجتمع ما زال والحمد لله يحتفظ بالإسلام في كثير من سلوك أفراده، كما تظهر تلك لهجمة في التعليم، وفي كافة مناحي الحياة، خاصة وأن الدستور في مادته الأولى نص على علمنة الدولة:» وأن تشاد دولة ذات سيادة ، مستقلة، علمانية، اجتماعية واحدة وغير قابلة للتجزئة، قائمة على مبادئ الديمقراطية، وعلى سيادة القانون والعدالة، وهي تؤكد على فصل الأديان عن الدولة «، فاتخذ السفهاء من هذه المادة مدخلاً لصبغ المجتمع صبغة علمانية، ووجدوا ضالتهم في المادة ٣٩ من الدستور الحالي بأن: « التعليم العام علماني «، لتحويل المجتمع كافة إلى مجتمع علماني، بالتركيز على هذه المواد وصبغ القوانين العامة والخاصة بالعلمنة، كما في محاولة العلمانيين وبعض ضعاف النفوس من خلال ما طرح من مشروع مدونة الأحوال الشخصية. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

■ جهود الشاب في الجوانب الاقتصادية والسياسية في المجتمع:

من صور إسهامات الشباب في تخفيف أثر الحروب على المجتمع التشادي ما يقومون به في بعض الجوانب الاقتصادية من إسهامات بسيطة بإنشاء مراكز ومؤسسات تجارية خاصة بهم، وفي الجانب السياسي التطور الذي أحدثه بعض الشباب من خلال إنشاء أحزاب سياسية جل أعضائها من الشباب المستنير وتحقيق نقلة نوعية في هذا الجانب، هذا إلى غير ذلك من الآثار الحميدة التي ينتهجها الشباب اليوم في تشاد، وخاصة في البرامج الدعوية والإرشادية، ـ التي سبقت الإشارة إليها ـ، وإنشاء جمعيات ومنظمات المجتمع المدني، وتحويل السجال السياسي إلى برامج عمل يتم تنفيذها من خلال منظماتهم وجمعياتهم، ليكون سجالاً فكرياً يفضي إلى نهوض البلاد وتطورها، بدلاً من الحراك العسكري الذي حول البلاد إلى خراب ودمار. بالرغم من أن الشباب يواجه تحديات في هذا المجال، وخاصة بعد حل أكثر من (١٠٠) منظمة و جمعية إسلامية كانت تسهم في توعية المجتمع بوجه أو آخر، وذلك بموجب القرار ٢٢/ الصادر من وزارة الداخلية والأمن بتاريخ ١٩٩٦/٧/٣٠م، واستهدف القرار حينها بشكل أساسي الجمعيات والمنظمات الشبابية التي يديرها شباب الدعوة.

أزمة الغذاء والأزمة المالية العالمية..
التداعيات على الزراعة والفقراء

يواكيم فون براون[1]

ترجمة: المجلة

لقد أدى ارتفاع أسعار الغذاء في الفترة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠٠٨م إلى تداعيات خطيرة على الأمن الغذائي وعلى اقتصادات الدول واستقرارها حول العالم، ومن المتوقع أن تعاني إفريقيا من نقصان حاد في دخول الأفراد بسبب الأزمة العالمية الراهنة، حيث شهدت أكثر الدول تضررًا انخفاضًا في الدخل وصل إلى ٥٠٪، طبقًا لتقرير نشرته مؤسسة «أكشن إيد» المعنية بالشئون الإنسانية والإغاثية.

ويشير التقرير المعنون «أثر الأزمة الاقتصادية على الدول النامية» إلى الطرق المختلفة التي تؤثر بها الأزمة المالية على اقتصادات الدول النامية وخاصة في القارة السمراء، ويظهر التقرير أن الدول الأكثر تضررًا هي تلك التي فتحت قطاعها المالي بصورة أكبر في السنوات الماضية للاستثمارات الأجنبية مثل جنوب إفريقيا، وقد التقى رئيس الوزراء البريطاني جوردون براون القادة الأفارقة في لندن مؤخرًا لمناقشة آثار الكساد على اقتصاداتهم قبيل قمة مجموعة العشرين في أبريل، ويتوقع التقرير الذي نشرته مؤسسة أكشن إيد للأبحاث أن أفريقيا سوف تعاني من نقص حاد في الدخول سوف يصل إلى أكثر من ٤٩ مليار دولار في الفترة ما بين ٢٠٠٧م ونهاية ٢٠٠٩م.

ويشير التقرير إلى أن هذا النقصان الحاد جاء بسبب كل من الأزمة المالية والكساد العالمي، فمن ذلك التقلص الحاد في الدخول هناك ٢٢ مليار دولار بسبب الأزمة المالية، و٢٧ مليار دولار بسبب الانخفاض في عوائد التصدير ونقص المساعدات والدخول من الدول الغنية التي تعاني هي نفسها من الكساد. وتعادل تلك الخسارة انخفاضًا قدره ١٠٪ من كافة دخول القارة، وأكثر الدول تضررًا من الأزمة المالية سوف تكون جنوب إفريقيا

١) أعد هذا التقرير يواكيم فون براون رئيس المعهد الدولي لأبحاث سياسات الغذاء لصالح المعهد.

التي سوف يصل انخفاض الدخل فيها إلى ٥٠ بالمائة. وقد صرحت كلير ميلاميد رئيسة قسم السياسات بالمؤسسة قائلة: «بالرغم من أن الدول النامية لم تتسبب في هذه الكارثة إلا أنه من الواضح أنهم الآن أصبحوا في خط النيران الأمامي فيما يتعلق بالمعاناة من أسوأ تداعياتها».

وقد أظهرت أعداد متزايدة من الدراسات أن الليبرالية الاقتصادية قد أثبتت قصورها في الدول التي كانت تهدف إلى جذب الكميات المتزايدة من الأموال والتي لم تشهد بالضرورة زيادة كبيرة في نسب التنمية الخاصة بها، كما أظهرت الأرقام أن إفريقيا سوف تشهد نقصاناً في إجمالي الناتج القومي بنسبة ٦٪ مقارنة بفترة ما قبل الأزمة.

■ العلاقة بين الغذاء والأزمة المالية :

هناك العديد من الأسباب التي تؤدي إلى كارثة غذائية وإلى تفاقم أسعار الغذاء، مثل: الزيادة السكانية وارتفاع أسعار الطاقة، كما أن دعم إنتاج الوقود الحيوي تسبب في ارتفاع استهلاك المنتجات الزراعية وهو ما أدى إلى ارتفاع أسعارها، وفي الوقت نفسه فإن الإنتاجية والنمو الإجمالي قد أضيرا بشدة بسبب القيود على استخراج المصادر الطبيعية جراء الأزمة، وبالرغم من أن مشكلة الغذاء والأزمة المالية العالمية نبعتا من أسباب مختلفة، إلا أنهما تلاقيا وتقاطعا في تداعياتهما على الاستقرار المالي والاقتصادي وعلى الأمن الغذائي وكذلك على الأمن السياسي للبلدان الفقيرة في إفريقيا.

فقد أضيفت مشكلة الغذاء إلى التضخم العام في تلك البلدان وإلى عدم استقرار الاقتصاد الكلي لها مما يحتم على الحكومات سرعة التحرك بفرض سياسات مالية ونقدية جديدة لمواكبة الأزمة. وفي الوقت نفسه فإن الأزمة المالية وما يصاحبها من تداعيات من تباطؤ في النمو قد دفعت أسعار الغذاء مرة ثانية إلى مستويات منخفضة بسبب قلة الطلب على السلع الغذائية وعلى علف الحيوان وعلى الوقود المصنع من المواد الغذائية وهو ما أدى إلى تذبذب في الأسواق الغذائية، كما تقلص التوسع في الإنتاج الزراعي بسبب ندرة رؤوس الأموال وحرص المستثمرين على الانتظار حتى تبين تداعيات الأزمة؛ لذا فإن إفريقيا بحاجة إلى حلول متزامنة ومنسقة لتخفيف تلك الضربة المزدوجة لفقراء القارة السمراء.

■ الضربة المزدوجة للفقراء:

وحتى قبل مأساة الطعام العالمية فإن أفقر دول العالم كانت تعاني من المجاعات والأزمة الغذائية، كما أدى ازدياد أسعار الغذاء إلى تقويض الأمن الغذائي لهم وأدى إلى تهديد حياة الطبقات الأضعف عن طريق تآكل قدرتهم الشرائية المحدودة أصلاً. فتشير التقارير إلى أن الفقراء ينفقون ما بين ٥٠ إلى ٧٠٪ من دخلهم على الغذاء وحده وليس لديهم قدرة للتكيف مع ارتفاع أسعار الغذاء، كما أن أجور العمال غير المهرة انخفضت تماشيًا مع الأزمة العالمية. ومن أجل التعايش مع الأزمة فإن الأسر الفقيرة في إفريقيا ـ التي تعيش على دولار يوميًا ـ قامت بتخفيض استهلاكها للغذاء وتحولوا إلى أنظمة غذائية أقل توازناً وأنفقوا أموالاً أقل على البضائع والخدمات الأخرى التي تعد أساسية لصحتهم وللعيش الكريم، مثل: المياه النقية، ووسائل النظافة والتعليم والرعاية الصحية. وقد قامت الصين بالاستثمار في الزراعة في عدد من الدول

الإفريقية، ولكن الدول المستقبلة لتلك المنح الزراعية بحاجة إلى تقنين تلك الاستثمارات وإلى ضمان مشاركة المنتجين المحليين في التنمية الزراعية.

■ سيناريوهات الكساد:

هناك العديد من المناطق النائية واجهت نموًا اقتصاديًا عاليًا في السنوات الماضية، فقد حدث نمو في الدول النامية في آسيا في الفترة ما بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧م بمقدار ٩٪ وفي إفريقيا بمقدار ٦٪ سنويًا، ولكن في ٢٠٠٨م ومع بداية الأزمتين الغذائية والمالية حدث تباطؤ في النمو وتم خفض سقف الطموحات. ومن المتوقع أن تحدث حالة انخفاض في النمو الاقتصادي في المرحلة القادمة تؤثر بدورها على الاستثمار وعلى الإنتاجية، بتداعيات مباشرة على الغذاء حول العالم. فيتوقع المعهد الدولي لأبحاث سياسات الغذاء أن هناك سيناريوهين لأزمة الغذاء في الفترة القادمة التي من المتوقع أن تؤثر على النمو والإنتاجية والاستثمارات في مجالات الزراعة، والسيناريوهان كالآتي:

السيناريو الأول:

سوف يقل معدل النمو الاقتصادي فيما بين ٢ إلى ٣ بالمائة على حسب المنطقة، ولكن في الوقت نفسه ستتم المحافظة على سياسات حكيمة في المجالات الزراعية والإنتاجية والاستثمارية.

السيناريو الثاني:

سوف يقل النمو الاقتصادي كما هو الحال في السيناريو الأول ولكن مع انخفاض الاستثمار في المجالات الزراعية وبذلك تقل الإنتاجية، وللأسف فإن هذا السيناريو هو الأقرب حدوثًا.

وطبقًا للسيناريو الثاني فإن أسعار الحبوب الرئيسة سوف تزداد بصورة حادة، وربما تسفر عن أزمة غذائية طاحنة في النهاية. ويتوقع أن تتضاعف أسعار الذرة الشامية والقمح والأرز بحلول عام ٢٠٢٠م لتصل إلى ٢٧ و١٥ و١٣ ٪ على التوالي مقارنة بالسيناريو الأول، ونتيجة لحالة الكساد فإن الفقراء في القارة من المحتمل أن يستهلكوا طعامًا أقل، ومن المقرر أن تنخفض السعرات الحرارية بنسبة ٥٪ بحلول عام ٢٠٢٠م، وفي بعض المناطق سوف تكون الآثار أشد قسوة، ففي دول جنوب الصحراء الإفريقية على سبيل المثال سوف تقل نسب استهلاك السعرات الحرارية بنسبة ١٠٪ بحلول عام ٢٠٢٠م طبقًا للسيناريو الثاني، وعلى مستوى العالم سوف يعاني ١٦ مليون طفل من سوء التغذية عام ٢٠٢٠م وسوف تزداد نسبة الأطفال المصابين بسوء التغذية في دول جنوب الصحراء الإفريقية مقارنة بدول العالم بمقدار ٢٠٪ طبقًا للسيناريو الثاني.

ولكن إذا ما تمكنت الدول النامية والمستثمرون من الحفاظ على الإنتاجية الزراعية والاستثمارات في ظل وجود الكساد فيمكنهم تجنب العديد من الآثار السيئة للتباطؤ في النمو، ويمكن أن تنخفض حينها أسعار الحبوب الأساسية وكذلك أعداد الأطفال المصابين بسوء التغذية، وسوف يزداد استهلاك السعرات الحرارية لكل فرد بحلول عام ٢٠٢٠م مقارنة بالسيناريو الثاني.

■ التغلب على الأزمة:

لأن الفقراء يختلفون في مصادر دخلهم فإنهم أيضًا سيضارون من الأزمة بصورة مختلفة، ولكن على أي حال فإن الفقراء هم الخاسر الأكبر بغض النظر عن طبيعة الأزمة التي ستضر بهم، وخاصة النساء والفتيات، ولكن سيضار أيضًا الفئات الضعيفة مثل الأقليات

وذوي الاحتياجات الخاصة؛ لذا فمن الضروري أن تخاطب الحلول المستويات المحلية والعالمية لمواجهة التحديات العاجلة للفقراء والمحتاجين؛ لذا فإن السياسات الاقتصادية والزراعية الإيجابية مثل زيادة الاستثمارات في المجالات الزراعية يمكن أن يمنع النتائج الكارثية، وفي ضوء الأزمة المالية والقيود على إنفاق الأموال من البنوك الخاصة، فيجب على الحكومات أن تسهل إجراءات الاستثمار، وفي الوقت ذاته فإن قرارات الاستثمار في الزراعة يجب أن تتجه ناحية استغلال الفرص الجديدة وتحقيق مرونة للتحديات المستقبلية. وفي ظل الأزمة المالية العالمية سوف تحظى المؤسسات المالية الدولية مثل البنك الدولي بأهمية كبيرة مع تقلص رؤوس أموال القطاع الخاص وفقدان الثقة من البنوك والمناخ الاستثماري المحبط؛ لذا من المهم أن تحافظ تلك المؤسسات الدولية على تركيزها على الإنفاق في الطعام والغذاء لحل أزمة الأسعار، وأن تصبح تلك المؤسسات أكثر دعماً لتمويل الأبحاث في مجالات العلوم والتقنيات الزراعية.

لقد جاءت الاستجابة الدولية والإقليمية إيجابية حتى الآن وتضمنت تعهدًا بدعم المساعدات الغذائية وبالتدخل من أجل رفع حالات سوء التغذية وفي نشاطات الحماية الاجتماعية والإجراءات من أجل زيادة الناتج الزراعي في الدول الأكثر تأثرًا بالأزمة. ولكن بالرغم من ذلك فمن المهم الوفاء بالأموال التي تم التعهد بها في الوقت المناسب وأن تستثمر في الأهداف المناسبة. وتقدر مؤسسة أوكسفام Oxfam أنه لم يتم إنفاق سوى مليار دولار فقط من الاثني عشر مليارًا التي تعهدت بها منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (الفاو) في قمة الأمن الغذائي في يونيو ٢٠٠٨م؛ لذا يجب متابعة التزامات الدول تجاه تلك الأزمة المالية والغذائية ومن أنها سوف تفي بتبرعاتها. والجدير بالثناء أن كلا من الهند والصين تعهدتا بزيادة استثماراتهما في مجالات الحماية الزراعية والاجتماعية بنسبة ٢٧ و٢٤٪ على الترتيب في عام ٢٠٠٨م؛ لذا يجب الحفاظ على تلك الاتجاهات الإيجابية لكي تحذو حذوها الدول الأخرى.

وهناك مزيد من الإجراءات التي يجب اتخاذها من أجل حل أزمة أسعار الغذاء ومواجهة التحديات المستقبلية ولتقليل الفقر والجوع في إفريقيا، وهناك ثلاث مجموعات من الإجراءات السياسية التكميلية التي يجب اتخاذها:

١ - الترويج للنمو الزراعي في مصلحة الفقراء.
٢ - التقليل من تذبذبات الأسواق.
٣ - زيادة برامج الحماية الاجتماعية وإجراءات حماية الأطفال من سوء التغذية.

لذا يجب أن يتم الاستثمار في مجالات البحث والتنمية والبنية التحتية للمناطق والمؤسسات النائية وأن يكون هناك تداولاً للمعلومات. وبالرغم من أن الإنفاق على البحث والتنمية في المجالات الزراعية يعد من أكثر أنواع الاستثمار فعالية في الترويج للنمو الاقتصادي وتقليل الفقر، إلا أن ذلك الإنفاق قد أصابه الركود منذ التسعينات، فقد أظهرت دراسة أجراها المركز العالمي لأبحاث سياسات الغذاء أنه إذا تضاعف الاستثمار في الأبحاث العامة للزراعة من ٥ مليارات إلى ١٠ مليارات من الدولارات في الفترة من ٢٠٠٨م إلى ٢٠١٣م فإن الناتج الزراعي سوف يزداد بصورة حادة وسوف يخرج ملايين البشر من تحت خط

الفقر في إفريقيا. وإذا ما تم توجيه الأبحاث والتنمية إلى المناطق الفقيرة في القارة مثل جنوب الصحراء الإفريقية فإن إجمالي الناتج الزراعي سوف يزداد بنسبة ١,١ نقطة سنويًا ويرفع ما يقرب من ٢٨٢ مليون إفريقي من تحت خط الفقر بحلول عام ٢٠٢٠م.

كما أن زيادة الاستثمارات في مجالات الأبحاث والتنمية الزراعية سوف يكون له أثر هام على أسعار الغذاء العالمية، وقد أشارت المجموعة الاستشارية للأبحاث الزراعية العالمية أن هناك العديد من المجالات الجيدة التي يمكن الاستثمار فيها زراعيًا، بما في ذلك برامج زيادة إنتاج الأسماك وزيادة إنتاج الحبوب وأيضًا مكافحة الآفات الزراعية ومعالجة أمراض الماشية مثل حمى الساحل الشرقي، ومثل تهجين أنواع من الذرة الشامية تستطيع أن تنمو في المناطق التي يضربها الجفاف، كما يمكن الحصول على منتجات زراعية غنية بالفيتامينات والمعادن مثل فيتامين (أ) ومادتي الزنك والحديد، والكثير من تلك المشروعات توفر فرصًا على نطاق واسع للشراكة مع القطاع الخاص في التخطيط والتنفيذ لتلك المشروعات، وتشارك أيضاً في النفقات والمخاطر.

■ توفير الحماية الاجتماعية وتحسين تغذية الأطفال في القارة:

إن إجراءات تحفيز النمو الزراعي وتقليل تذبذب الأسواق ليست وحدها كافية للوصول إلى الأمن الغذائي في تلك الأزمة المالية العالمية المعقدة. فنحن بحاجة أيضًا إلى إجراءات حماية لتخفيف المخاطر قصيرة الأمد بالإضافة إلى إجراءات وقائية لتقليل التداعيات السلبية طويلة الأمد، وبخاصة توفير برامج الحماية الاجتماعية في إفريقيا. وإجراءات حماية مثل وجود أنظمة معاشات وبرامج توظيف، أما البرامج الوقائية فتكون في مجالات الصحة والتغذية مثل صرف وجبات للتلاميذ في المدارس ووجود برامج لتحسين الحالة الغذائية للأطفال في السن المبكر والتي يجب إطلاقها في المناطق الفقيرة في إفريقيا وبين الفئات الأكثر ضعفًا. إن القارة الإفريقية تعاني من نقص المعلومات والبيانات الحديثة بشأن أثر الأزمة المالية على مختلف القطاعات في القارة، وتلك البيانات والإحصاءات من شأنها السماح لصناع القرار على المستويات المحلية والدولية لكي تستخدم لتحقيق أفضل النتائج. كما يجب وضع أولويات وجداول زمنية ويجب أيضًا أن تتميز تلك البرامج بالشفافية والمصداقية لضمان نجاحها.

ومقارنة بالأزمات السابقة فإن الأزمة الحالية يعتقد أنها سوف يكون لها آثار قوية وطويلة الأمد على الاقتصاد الناشئ في كل دولة، وعلى الشعوب الفقيرة في إفريقيا، فإذا ارتفعت أسعار الغذاء نتيجة لنقص الاستثمارات في المجالات الزراعية من جراء الأزمة المالية فسوف يكون لها تداعيات كارثية على الطبقات الأضعف في المجتمعات الإفريقية، إن العديد من سكان القارة السمراء يعتمدون على الأجور اليومية وبالتالي يعتمدون على المشروعات التنموية التي سوف تضار هي الأخرى بشدة من الأزمة المالية.

وتشير آخر تقديرات (الفاو) أن عدد الأشخاص الذين يعانون من نقص في التغذية ازدادوا من ٨٤٨ مليون إلى ٩٦٣ مليون شخص في الفترة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٨م والسبب الأكبر هو كارثة أسعار الغذاء. وارتفاع أسعار المواد الغذائية وبالتبعية فإن سوء التغذية له

آثار سلبية مدمرة على نواحٍ أخرى مثل التنمية الإدراكيـــة للفقراء وضعف مقاومتهم للأمراض وارتفاع نســـب الوفيات بيـــن الأطفال حديثي الولادة وكذلـــك الأمهات اللائي يعانين من آلام المخاض والنزيف الحاد وهن يعانين أصلاً من سوء التغذية.

ولأن التغذية الســـليمة تعد أساسية للنمو الجســـمي والمعرفي للأطفال فإن ذلك سيؤثر على قدراتهم الإنتاجية كبالغين بعد ذلك وبالتبعية على أجورهم، لقد أظهر تقرير لمؤسسة لانسيت نشر في عام ٢٠٠٨ م أن الأطفال الذكور الذين اســـتفادوا من المعونات الغذائية في السنتين الأوليـــن من أعمارهم حصلوا على أجور عند بلوغهـــم أعلى بمقدار ٥٠٪ مـــن نظرائهم، كما أن الأزمة المالية والغذائية لها آثار سلبية على مســـتقبل التنمية والمستقبل الاقتصادي للقارة الإفريقيـــة، وأن فقدان الأمـــن الغذائي يمكن أن يصبـــح مصـــدرًا للصراعات، ومـــع ارتفاع تكلفة المعيشـــة بصفة عامة فـــإن الناس عادة ما يلجأون إلى المظاهرات في الشـــوارع، وقد أظهرت التقارير حدوث قلاقل سياسية في ٦١ دولة منذ بدء الأزمـــة المالية في عام ٢٠٠٧ م وشهدت العديد من البلدان ارتفاعًا في معدلات العنف، وهو ما ينذر بكوارث اجتماعية وغذائية لا يحمد عقباها إذا لم يحدث تدخل سريع من الحكومات والمنظمات الدولية.

أفريكوم..
إدارة النفوذ والنفط
بالقارة السمراء

إعداد: محمد الزواوي

في السادس من فبراير ٢٠٠٧ م أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دبليو بوش ووزير دفاعه روبرت جيتس عن إنشاء قيادة أمريكية لقارة إفريقيا، عرفت اختصارًا باسم: «أفريكوم»، وجاء هذا القرار محصلة لعشر سنوات من الدراسة داخل وزارة الدفاع الأمريكية، والتي خلصت في النهاية إلى الأهمية الاستراتيجية المتزايدة للقارة الإفريقية، وأن السلام والاستقرار في القارة لا يؤثران فقط على الأفارقة، ولكن على مصالح أمريكا وعلى المجتمع الدولي على حد سواء؛ ولذا رأت الولايات المتحدة أن تنشئ قيادة خاصة لإفريقيا لزيادة تركيز وزارة الدفاع على إمداد دول القارة ومؤسساتها مثل الاتحاد الإفريقي بالدعم في النواحي الأمنية.

هذا هو الهدف المعلن للاستراتيجية الأمريكية في إفريقيا، وهو استتباب الأمن، وتوفير التدريب العسكري والأمني لدول القارة، ولكن الهدف غير المعلن لهذه الاستراتيجية الأمريكية الجديدة هو تأمين النفط الإفريقي، سواء ما يستخرج من داخل القارة أم من أمام شواطئها، بالإضافة إلى تأمين مسارات الناقلات على ضفتي القارة: من ناحية باب المندب حيث نفط الشرق الأوسط، أم من ناحية غرب إفريقيا، حيث الدول الغنية بالنفط ومسارات ناقلاته إلى أمريكا وأوروبا الغربية.

لقد أظهرت التقارير تزايد اعتماد أمريكا على نفط القارة؛ حيث تستورد أمريكا حاليًا ٢٢٪ من نفطها من إفريقيا، ومن المتوقع أن يزداد هذا الرقم بصورة حادة في المستقبل القريب؛ حيث تجرى عمليات استكشاف واسعة النطاق في مختلف أنحاء القارة الغنية بالموارد الطبيعية، كما تهدف أمريكا إلى استقرار الأمن الداخلي والخارجي لتلك الدول المنتجة والمصدرة للنفط، لكي تبعد الحرائق الأمنية والسياسية والاجتماعية عن منابع النفط الإفريقي القابلة للاشتعال.

وأوردت شبكة بلومبرج الاقتصادية الأمريكية أن شركات النفط سوف تبدأ في حفر آبار في الصومال بنهاية العام الحالي، بعدما أكملت الدراسات المطلوبة في دول القرن الإفريقي، وأن شركة «أفريكا أويل» المملوكة لعدة دول غربية سوف تبدأ اختبارات مشابهة في إثيوبيا وكينيا هذا العام، وقد قامت شركة أفريكا أويل في فبراير الماضي بشراء الأصول الكينية والإثيوبية لشركة «لوندين» النفطية بقيمة ٢٠

مليون دولار؛ لـــذا فإن أنظار الولايات المتحدة متجهة إلى تلك المنطقة ذات المخزون النفطي للســيطرة عليه، ولكـــي تقوم أيضًـــا بتحييد النفـــوذ الصيني المتنامي في القارة، فقد وجد العمـــلاق الصيني فراغًا اســـتراتيجيًا وثروات نفطية هائلة يمكنهـــا أن تلبي ظمأ اقتصادها وتعطشـــه للطاقة، وبرز التغلغـــل الصيني في القارة الإفريقية في نواحٍ كثيرة تستتر معظمها تحت غطاء المســـاعداتٍ الإنسانية والتنموية، والتي تهدف في الحقيقة إلى اســـتمالة عقول القـــادة الأفارقة وقلوبهم لذلك المارد الصيني، الذي يعد المنافس الأول للولايات المتحدة في المجالات الاقتصاديـــة في القرن الجديد، إلى جانب الاتحاد الأوروبي.

يشـــير موقع القيادة الأمريكية في إفريقيا إلـــى أن الإدارة الأمريكية أدركـــت منذ البداية أن هنـــاك علاقـــة وثيقة بين الأمـــن والتنمية والدبلوماســـية والرخاء في إفريقيا، وأن القارة السمراء ظلت غير مســـتغلة بصورة كبيرة منذ الخروج الأخيـــر للقوى الاســـتعمارية الغربية في أعقـــاب الحرب العالمية الثانية؛ لذا جاءت قيادة «أفريكـــوم» متنوعة من حيث تخصصات موظفيها، فقد ضمَّـــت الفرق الإدارية والفنية، وموظفين من وكالـــة التنمية الدولية الأمريكية (USAID)، التي تقدم مساعدات لمختلف دول العالم، وموظفين من أقسام أخرى من الوكالات الأمريكية المهتمة بالقارة الإفريقية،إضافة إلى العديد من الموظفين الأفارقة من المؤسســـات الحكومية، والهيئات الإنسانية للعمل مع الفرق الأمريكيـــة، هـــذا بخلاف القـــوات الأمريكية المقاتلة المتمركزة في قاعدة ليمونيه بجيبوتي، الذين يصل عددهـــم إلى ألفي جندي أمريكي، وســـوف تتمركز القـــوات الأمريكية في قواعد تابعة لها أيضًا في كل من: أوغندا، الســـنغال، ساوتومي وبرينسيب.

لذا فإن المهمة الرســـمية المعلنة لأفريكوم هـــي تحقيق الأمـــن للقارة من خـــلال برامج عســـكرية، ونشـــاطات ترعاهـــا المؤسســـة العســـكرية، وعمليات أخرى وصفت بأنها من أجل «الترويـــج لبيئة أفريقية آمنة ومســـتقرة تدعم السياســـة الخارجيـــة الأمريكية»، وهي المهمة التي وافق عليها وزير الدفاع الأمريكي في مايو ٢٠٠٨م، وتقول الولايات المتحدة: إنها لا تهدف من إنشـــاء أفريكوم أن يقود جيشـــها الشـــئون الأمنية للقـــارة الإفريقية، أوإنشـــاء قاعدة عســـكرية أمريكيـــة كبيـــرة بإفريقيا، ولكنهـــا عبارة عن مقر رئيـــس لموظفين تكون مهمتهم تنســـيق الدعم الذي من شأنه تمكين الحكومات الإفريقية، والمؤسســـات الإقليمية الموجودة حاليًا مثل «قـــوة التأهب الإفريقية» African Standby Force التابعـــة للاتحـــاد الإفريقـــي، مـــن أن يكون لها قـــدرة أكبر على توفير الأمن والاســـتجابة الســـريعة في أوقات الأزمات. وســـوف تعتمد أفريكوم على العديد من النشـــاطات التعاونية الأمريكية الأفريقية الجاري إنشـــاؤها بين مختلـــف دول القارة من أجل تمكين وزارة الدفاع من التنســـيق الأفضل مع المؤسســـات والوكالات الحكومية الأمريكية الأخرى لجعل تلك النشاطات أكثر فاعلية.

وســـوف تتمركزالقيادة الأمريكيـــة لإفريقيا في ثكنات كيلي في مدينة شـــتوتجارت الألمانية في المســـتقبل المنظـــو، لتتحكم فـــي الجيوش الأمريكيـــة الموجودة حاليًا فـــي مختلف مناطق القـــارة الإفريقية، مثل معســـكر ليمونيه Camp Lemonier بجيبوتـــي، بالإضافـــة إلى موظفي البنتاجـــون المتمركزين في مختلف الســـفارات والبعثات الدبلوماسية الأمريكية في القارة من أجل التنسيق بين برامج البنتاجون لدعم الدبلوماسية

الأمريكية. يشـير موقع أفريكوم الرسمي إلى أن أي وجود عسـكري أمريكي إضافي سوف يكون بالاتفـاق الدبلوماسـي مع الدول المسـتضيفة له، وسـتعمل القيادة في المستقبل القريب على التنسيق بين مئات النشاطات التي تقوم بها ثلاث مـن القيادات العسـكرية الإقليميـة التي كانت تقوم في السـابق بالتنسيق بين المهام العسكرية الأمريكية بالقارة.

أشـارت مجلة الجيش الأمريكـي إلى أن الولايـات المتحـدة تخطط لجعل معسـكر جيبوتي معسـكرًا دائمًا، وزيادة مساحته ليكون داعمًا أساسـيًا لأفريكوم، وقـد قامت الإدارة الأمريكية بالفعل بتوسيع قاعدة ليمونيه من ٩٧ هكتارًا إلى ٥٠٠ هكتار، لتصبح واحدة من أكبر المنشـآت العسكرية الأمريكية في القارة، ومن المتوقع أن تتسارع عملية إرسال القوات للقاعدة لتصبح الأكثر ازدحامًا بالجنود الأمريكيين في المستقبل القريب، ومعسكر ليمونيه يبعد فقط ٥٠ كيلومترًا مـن الجزيرة العربية، التي أصبح الوجود العسـكري الأمريكي فيها يثير العديد من المشكلات للدول المستضيفة له مثل قطر.

وقد صرح الجنرال وليام وارد قائد أفريكيوم أمام لجنـة الخدمات المسـلحة بالكونجرس الأمريكي فـي مارس ٢٠٠٨ م أنـه «مع تقدم عمل القيادة العسـكرية الأمريكيـة لإفريقيا «أفريكوم» سـوف ينتقل معسكر ليمونيه لدعم الجهـود طويلة الأمد في المجـالات الأمنية، وإنشـاء علاقات قوية ودائمـة مع دول القارة، وسـوف يكون معسكر ليمونيه جزءًا من قدرات الأفارقة في مجالات الدعم والتنمية الإقليمية؛ لذا يجب أن يستمر الكونجرس في تمويل هذا البرنامج العسكري». ويقول القس الملازم بوب كين الملحق بالقاعـدة : إنه يتذكر عندما جاء أول مـرة في مايو ٢٠٠٦ م أن المعسـكر كان عبارة عن وحدة صغيرة، ثم تم إنشـاء بنايات دائمة قليلة العدد، بالإضافة إلى مباني الفريق الرئيسي، وكان الجنود قبلها يعيشون في خيام، ثـم بعد ذلك تم شـحن منازل جاهـزة بنهاية مارس ٢٠٠٧م.

لقد خصص الكونجرس الأمريكي أكثر من مائة مليون دولار لتوسـعة وتحسين المعسكر في الميزانية العسـكرية للفترة ما بين ٢٠٠٧م ٢٠١٠م، ويتضمـن ذلك بناء كنيسـة جديدة، ومكتـب بريد وقاعات طعـام، ويخطط القادة الأمريكيـون لبناء ثكنات عسـكرية للجند في العام المالي الحالي، كما قامت الفرق الهندسية بتعبيد الأراضـي في المنطقة لاسـتخدامها لتسهيل حركة الطائرات على الأرض، ويخطط القادة الأمريكيون أيضاً لوضع منصات طائرات سـريعة تسـمح للطائرات المقاتلـة أن تقوم بالتـزود بالوقود وإعادة تسـليحها، ثم عودتها مرة ثانية إلى مسـارها في سـرعة، مما يفيد بأن تلك القاعدة العسكرية سوف تكون قاعدة محورية لحركة الطائـرات المقاتلة الأمريكية في المنطقة، التي تعتبر اسـتراتيجية للقوات الأمريكية، وتمكنها من سرعة الوصول إلى أي مكان في دائرة قطرها آلاف الكيلومترات.

ويقـول نقيب بحري باتريـك جيبونز القائد البحري للقاعدة : إن معسكر ليمونيه يجهز ليكون قاعـدة دائمة للعمليات تحـت القيادة الإفريقية، ويقول: إن المعسكر سـوف يكون قاعدة متقدمة للقـوات المتمركزة فـي المنطقة لكـي تمدهم بالتجهيزات الأخيرة قبل أداء مهامهم، حيث تعمل القاعدة أيضًا كمركز لوجيستي يدعم السفن التي تعمـل في خليج عدن، والطائرات الي تقوم بمهام مكافحة القرصنة في المنطقة، وهناك فرق أخرى منوط بها التقاط أي شخص بحاجة إلى الإنقاذ، ويضيف قائلاً: إن مهام معسـكر ليمونيه ستمتد

إلى ما وراء منطقة القرن الإفريقي حيث يقبع في جيبوتي. ويقول الأدميرال أنطوني كورتا قائد القوات المشتركة في القرن الإفريقي والمسئول عن هذا الجزء من إفريقيا: إن «المعسكر سوف يخدم المهام الدائمة للقوات الأمريكية؛ حيث إنه الأكبر في المنطقة».

وقد أثبتت أمريكا وجودها العسكري والبحري رسميًا في القارة في فبراير الماضي، وأرسل البنتاجون الفرقاطتين برادلي وناشفيل إلى ضفتي القارة، الأولى في شرقها على ساحل موزمبيق، والأخرى في غربها أمام سواحل دكار السنغالية، ويشير تقرير نشرته جريدة كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية إلى أن الولايات المتحدة أصبحت أكثر إدراكًا لأهمية القرن الافريقي لمنع انتشار مقاتلي تنظيم القاعدة فيه، كما أن الولايات المتحدة أصبحت الآن تستورد ٢٢٪ من نفطهامن دول إفريقية، فقد نقلت الصحيفة في ٢ أكتوبر ٢٠٠٧ م عن ريتشارد كورنويل كبير المحللين بمعهد الدراسات الأمنية في مركز تشوان بجنوب إفريقيا: أن «الولايات المتحدة لا تستورد نفطاً من نيجيريا فقط، ولكن أيضًا من غانا ويتميز النفط الإفريقي بأنه خام خفيف؛ لذا أصبحت غرب إفريقيا أكثر أهمية للولايات المتحدة.

يأتي هذا الاهتمام العسكري الأمريكي بإفريقيا في إطار إعادة ترتيب الجيش الأمريكي لقواعده في حقبة ما بعد الحرب الباردة؛ حيث لم تعد الولايات المتحدة بحاجة إلى قواعد كبرى سواء في ألمانيا أم كوريا الجنوبية، ولكنها الآن أصبحت بحسب القادة العسكريين الأمريكيين أكثر اهتماماً بمنطقتين، هما: شرق أوروبا لنشر منظومة الدفاع الصاروخية لاتقاء الخطر الروسي أو الإيراني، وأفريقيا التي تقع في قلب العالم، وفي قلب منابع النفط، وفي قلب مسارات الملاحة العالمية أيضًا. وهذا الوجود العسكري الأمريكي في القارة من شأنه أن يؤدي إلى كثير من القلاقل، وليس إلى الاستقرار كما يعلن القادة الأمريكيون.

■ توجس ورفض إفريقي:

بالرغم من الادعاء أن «أفريكوم» ستحظى برقابة مدنية أكثر من أي قيادة عسكرية أميركية إقليمية أخرى، فإن من الصعب تصديق أن السياسة الأميركية تجاه أفريقيا لن يسيّرها العسكر، وخصوصاً أنها ستكون في النهاية تحت إشراف «البنتاغون». ويخشى الأفارقة، الذين عانوا- ولا يزالون جرائم المرتزقة الأوروبيين أن تكرّر «أفريكوم» تجربة ما يحدث في العراق اليوم، كما يخشون من السياسة الاقتصادية الأميركية، التي يرون أنها ستخضع لعسكرة السياسة الأميركية في أفريقيا عموماً، مما يعيد إلى الأذهان صورة الآثار المدمرة للصراع والتنافس الأميركي السوفياتي في فترة الحرب الباردة على اقتصاديات أفريقيا، وربما تكررت تلك الآثار إذا ما تكرر الخطأ التاريخي مع دخول الولايات المتحدة في منافسة مع الصين على الموارد الطبيعية للقارة الأفريقية.)

قال مفوض السلام الأفريقي، الجزائري سعيد جنيت في لقاء مع «الشرق الأوسط»: إن الدول الأفريقية «ترفض بصفة جماعية مشروع قيام قيادة عسكرية أميركية فوق أراضيها».

وتساءل السفير الليبي لدى جنوب إفريقيا عبد الله الزيدي قائلاً: «كيف نسمح لأمريكا أن تقسم العالم إلى قيادات عسكرية خاصة بها؟ أليس ذلك منوطًا بالأمم المتحدة؟ وماذا سيحدث إذا قررت الصين إنشاء قيادتها الإفريقية الخاصة بها؟ ألن يؤدي ذلك إلى صراعات في القارة؟»، هذه التصريحات من

السفير الليبي تعكس شعور ليبيا بالخطر بالرغم من تطبيع علاقاتها مع الولايات المتحدة.

وسوف تتركز القوات الأمريكية في دول أوغندا، جيبوتي، السنغال، ساوتومي وبرينسيب، حيث تنشئ أمريكا فيها قواعد تصلح لكي تكون نقاط انطلاق صغيرة للتحرك السريع للجيش الأمريكي، وسوف تبدأ أمريكا في تقليل وجودها في القواعد العسكرية القديمة التي أنشئت إبان الحرب الباردة، مثل: القواعد الكبيرة في ألمانيا وكوريا الجنوبية، وتبني في مقابلها قواعد أكثر مرونة في الشرق الأوسط، وإفريقيا، وشرق أوروبا.

وتهدف الاستراتيجية العسكرية الأمريكية إلى إنشاء ما يمكن أن يسمى «منصات قفز» بعدد قليل من القوات الدائمة، ولكن ببنية تحتية قوية تمكنها من الإطلاق السريع لعمليات عسكرية كبيرة، وذلك طبقاً لتقرير نشرته الأسوشيتدبرس، ويشير التقرير أيضًا إلى أن القواعد سوف تغطي كافة مناطق العالم التي تهتم بها الحكومة الأمريكية، أو التي تعد مناطق محتملة للقلاقل أو الإرهاب، وذلك لتأمين المصادر الطبيعية في إفريقيا وعلى رأسها النفط.

وسوف تغطي قاعدة عنتيبي بأوغندا شرق إفريقيا ومنطقة البحيرات الكبرى ومنابع النيل؛ إذ يعد رئيس أوغندا يوري موسيفيني واحداً من أكبر حلفاء أمريكا، وذلك منذ وصوله إلى الحكم عام ١٩٨٦م، كما يعد مطار عنتيبي واحدًا من أكثر القواعد الأمريكية تطورًا في إفريقيا، وتعتبر السنغال في الجانب الغربي واحدة من أكبر نقاط اهتمام أمريكا في إفريقيا حاليًا فقد حصلت أمريكا على مجموعة كبيرة من «الامتيازات» في المجال الجوي لدكار، والتي تستخدم أيضًا كنقطة هبوط للعديد من العمليات العسكرية الأمريكية في غرب إفريقيا، ويشمل ذلك عمليات عسكرية موسعة في ليبيريا، وقد أصبحت السنغال واحدة من أهم حلفاء أمريكا تحت حكم الرئيس عبدالله واد، وتحول مركز الثقل للتحالف الاستراتيجي السنغالي من فرنسا إلى الولايات المتحدة.

كما ستصبح جزيرة ساوتومي وبرنسيب واحدة من القواعد العسكرية الأمريكية أيضًا، وتتكون تلك الدولة من أرخبيل من مجموعة جزر، وسوف تنتج النفط قريبًا كذلك، وهي تقع في منطقة خليج غينيا الاستراتيجي الذي يضم أهم منتجي النفط في منطقة ما وراء الصحراء الإفريقية، وستتمكن أمريكا من خلال تلك القاعدة من مراقبة تحركات ناقلات النفط وحماية منصات التنقيب.

كما تعمل قاعدتي جيبوتي ودكار أيضًا على حماية المصالح النفطية الأمريكية؛ لاستراتيجية موقع كل منهما؛ فجيبوتي على فوهة باب المندب الذي يعد بوابة البحر الأحمر، والتي تصفها الاستخبارات الأمريكية على أنها «أعلى منطقة للحركة الملاحية في العالم وقريبة من حقول النفط العربية»، وأما السنغال فهي على الضفة الغربية من القارة التي تجري بها حاليًا عمليات مكثفة للتنقيب عن النفط، و تأمل أمريكا في أن تصبح مصدرها الرئيس للنفط في غضون سنوات.

وفي شمال إفريقيا التي توصف بأنها الساحة الخلفية للاتحاد الأوربي، فإن الوجود العسكري الأمريكي لا يزال محدودًا ولكنه بصورة عامة يشهد وجودًا للناتو عن طريق التعاون مع دول المنطقة، وتطور أمريكا تعاونًا عسكريًا وثيقًا مع المغرب والجزائر وتونس بالإضافة إلى مصر.

وتؤكد بعض المصادر أنه بالرغم من

اللقـــاءات المتكررة التي أجراهـــا رايان هنري مساعد وزير الدفاع الاميركي لشؤون التخطيط والسياســـات، مـــع المســـؤولين العســـكريين والسياسيين في عدة بلدان أفريقية، لإقناعهم بجدوى احتضان المشروع خلال زيارته لأفريقيا في يونيو (حزيران) الماضـــي، إلا أن القضية ظلت معلقة)

وإلى جانب القواعد العســـكرية الأمريكية الصغيـــرة في إفريقيا فـــإن البنتاجون قد وقَّع على عدد من الاتفاقات العســـكرية مع مختلف الحكومـــات الإفريقية في الســـنوات الماضية تتيح لأمريـــكا التحرك على قرارات المنظمات الإقليمية في إفريقيـــا، مثل الاتحاد الإفريقي، وقد وقعـــت أمريكا بالفعل علـــى اتفاقات مع الدول المنتجة للنفط، مثل: الجابون، موريتانيا، وحتى الدول قليلة المصادر النفطية مثل: غينيا ورواندا، وطورت علاقات شـــراكة عسكرية مع معظـــم دول القارة، وورثت بذلـــك تركة الدول الاستعمارية القديمة.

يتوقع في المســـتقبل القريب أن تســـتغل أمريكا الشـــعبية الجارفة لرئيسها الجديد من أصل إفريقي في بســـط المزيـــد من نفوذها على زعماء القارة، لإقناعهم بتعزيز شراكاتها، وقبول وجودها العسكري؛ إذ إن المشروع يجد رفضًا من قبل الـــدول الأفريقية، كما أكد ذلك المتحدث الرسمي لمفوضية الاتحاد الأفريقي، ولم توافق عليه ســـوى ١٢ دولة حسب ما صرح بذلك مسؤول عسكري أميركي.

مما يزيد المخاوف من الوجود العسكري الأمريكـــي قصف طائـــرات صهيونيـــة بدون طيار لقافلة ســـودانية داخـــل الحدود، زعمت إسرائيل أنها محملة بالسلاح ومتجهة إلى غزة، وهـــو ما يؤكد خطر وجود القواعد العســـكرية الأمريكية في المنطقة، والتعاون الوثيق المتوقع بينهـــا وبين الكيان الصهيونـــي لتنفيذ الأجندة الصهيوأمريكية للســـيطرة على المنطقة؛ لما تتمتع به من ثروات؛ ولموقها الاستراتيجي، مع إمكانية التأثير على حكوماتها، واستجابة بعض زعمائها.

■ هل فعلاً تراجعت أمريكا عن مشروع «أفريكوم».؟

فـــي تطورات لاحقة أعلنـــت وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون، أنها ســـتراجع طموحاتها لبنـــاء قيادة مركزيـــة في أفريقيـــا على غرار القيادة المركزية في الشرق الأوسط «سيتكوم»، مرجعـــة ذلك لمعارضة الـــدول الإفريقية لهذا المشـــروع المعروف باســـم «أفريكوم»، وعدم نجاح أمريكا فـــي إقناع دول إفريقيا بالموافقة علي اســـتضافته، حتى الدول الحليفة لها في غرب إفريقيا وشـــمالها. فقـــد نقلت صحيفة (كريستيان ساينس مونيتور) عن مسئول دفاعي أمريكي اعترافه بأن حكومته لم تنجح في إزالة التوترات والشـــكوك لدى تلك الدول إزاء اتخاذ هذه الخطوة، وذكرت مصادر حكومية أمريكية أن واشنطن تخلت مؤقتًا عن المضي قدمًا في تنفيذ مشروع إقامة هذه القاعدة، وتدرس خيارًا آخـــر، وأنها تراجعت كذلك عن تســـويق فكرة أفريكوم». باعتبارها قيادة متعددة تضم المهام العسكرية وغير العسكرية ومؤسسات إضافية. ومن المؤشرات التي تحمل تأكيدًا على التراجع تقليص الحكومة الأمريكية للميزانية التي كانت مقررة بما يعادل أكثر من ٣٠٪.

وبرغـــم هذا الإعلان عـــن التراجع، إلا أن بعض القادة العســـكريين الأمريكيين أكدوا أن لديهم عزمًا على تنفيذ هذه الفكرة مســـتقبلاً؛ لما تمثله من أهمية على مستوى ترسيخ النفوذ العسكري الأمريكي.)